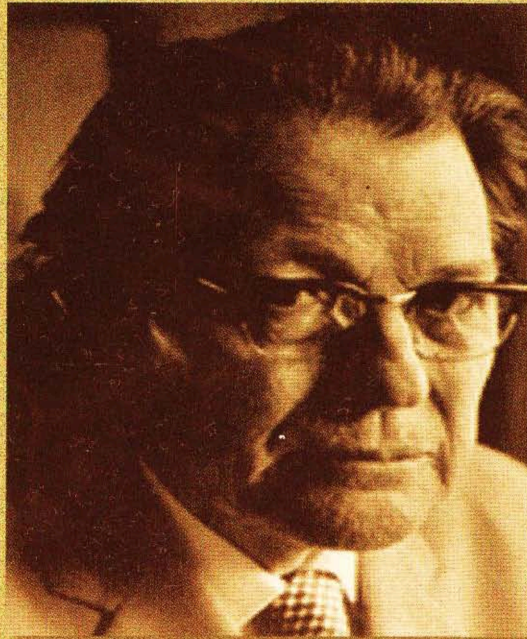
١٩٧٤

مكتبة نوبل

هاري مارتنسون

الشوك يزهر



ترجمة

د.أنطون حمصي



الشوك يزهر



مكتبة نوبل

Author:Harry Martinson
Title:Les Orties Fleurissantes
Translator:Dr. Antoun Homsi
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002

اسم المؤلف : هاري مارتينسون
عنوان الكتاب : الشوك يزهر
المترجم : د. انطون حمصي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٢

First published by Albert Bonniers Förlag AB, Stockholm

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٧٤

مكتبة نوبل

هاري مارتنسون

الشوك يزهر

ترجمة:

الدكتور انطون حمصي



مقدمة

عندما سلم، عام ١٩٢٩، هاري مارتينسون، عضو الأكاديمية السويدية المقبل والحائز على جائزة نوبل مستقبلاً، مجموعته الشعرية الأولى «المركب الشبح» إلى منشورات البير بونييه في ستوكهولم، أرفقها بالرسالة التالية:

إلى الناشر

قبل أن أقدم لك هذه المجموعة الأولى قد يكون من مصلحتك، وكذلك من مصلحة الشيء نفسه، أن تعرف شيئاً عن المؤلف، فبما أنه (المؤلف) قد عاش حياة متنوعة على الأقل، أود أن أفضي إليك، فيما يلي، بترجمة حياة صغيرة - على الرغم من كونها موجزة. هاري مارتينسون المولود عام ١٩٠٤ - ابن ربان باخرة رحلات طويلة - فقد أبويه منذ طفولته الأولى وأصبح ربيب البلدية. وبعد عدد كبير من مرات الهرب والمشكلات التربوية التحق بالعمل، في عمر الرابعة عشرة، على متن باخرة وركب البحر، بعد ذلك، كبحار مبتدئ ووقاد وأنباري وطاه على متن ثمانية عشر مركباً وتاه، أحياناً، كصعلوك في المرافيء، واجتاز، متشرداً، كيلو مترات في جزر الهند والقارة الأوروبية وأمريكا اللاتينية.

ومارس، فضلاً عن ذلك، حشداً من المهن: ممدد خطوط حديدية، عامل مزرعة، بائع جرائد - وعمل، برهة، في المسالخ وراعياً في الأرجنتين. وجند، ذات مرة، بالقوة، في جيش ثوري برازيلي وشارك في بضع معارك و مناوشات ولكنه هرب في نهاية المطاف لأنه لم يكن معنياً بأن يعرف ما إذا كان حاكم ريوغراندي يدعى غولس أو دياز.

وهو يقيم منذ سنة على البر، في السويد. لم ينجز دراسات تأهيلية، المدرسة الابتدائية ثم مدرسة الحياة القاسية.

مع أفضل تحياتي

هاري مارتينسون

وفي السنة نفسها، شارك مع ارتور لندكفيست، من بين آخرين، في مختارات «الشباب الخمسة». وكان هؤلاء، بأصولهم البروليتارية، يرتبطون بإيفند جونسون وايفا - لو - جوهانسون وفيلهلم موبرغ الذين يكبرونهم ببضع سنوات والذين كانوا، وقد علموا ذواتهم بدرجات متفاوتة، قد ارتادوا، هم أيضاً، مدرسة الحياة القاسية، قبل أن يبدؤوا منذ بضع سنوات. ولكن الواقع الاجتماعي لم يكن يشغلهم بقدر ما شغلتهم الحياة، والحياة عامة، التي انشدوا لها - شعراً ونثراً - وقد اتخذوا نماذج لهم والت هويتمان وشيروود اندرسون ود. هـ. لورنس.

وفي السنة نفسها، أخيراً، تزوج موا شوارتز التي تكبره بعشر سنوات، وهي كاتبة مثله ولكنها، دون شك، أكثر التزاماً بالمسائل الاجتماعية. وكانت هي التي وضعت بين يديه «البحار السبعة» لكيبلنغ الذي كان نموذجه الأول والذي ألهم القصائد الأولى التي نجح في نشرها في صحف متنوعة.

وبعـد قـليل، نـشـر مـارتينسـون مـجـمـوعـة «البـدوي» Nomade (١٩٣١) التي تعد بين مؤلفاته الأساسية بنضارة الإلهام وحدة ملاحظة التفاصيل الصينية تقريباً و «حداثة الصور» - وهي سمات تطورت، أيضاً، في «الطبيعة» Nature (١٩٣٤). وفي هذه الأثناء، كان قد نشر أول عملين نثريين له، «رحلات دون هدف» (١٩٣٢) و«رأس الوداع» (١٩٣٣). وهما مجموعتان مركبتان تركيباً حراً من خطوط أولية وصور شخصيات وقصائد نثرية وحكايات وذكريات وتهب فيهما ريح البحر.

وليست هناك، بين الذكريات ورواية الحياة الذاتية، سوى خطوة يزيد في سهولة اجتيازها كون تلك، على ما يبدو، صورة تعبير طبيعية تماماً لمن كان في «مدرسة الحياة القاسية». فكل الكتاب السويديين الذين سموا «بروليتاريين» نشروا، في سنوات الثلاثينات، من نوع دارات الترجمة الذاتية هذه بدءاً من إيفند جونسون الذي نشر، عام ١٩٣٤، المجلد الأول من Roman d'ola، وتبعه فيلهلم موبرغ وموا مارتينسون. إلا أنه إذا كانت هذه المؤلفات تجد في الطفولة الفقيرة والمهن المتعددة والضاغطة «علامات نبل» طبقة صاعدة، فذلك لأنهم حملوا فيها شيئاً أكثر من ذلك أعطاهم إياه فن الكاتب.

وقد بقي هاري مارتينسون، في «الشوك يزهر» الصادرة عام ١٩٣٥ و «الرحيل» الصادرة عام ١٩٣٦ مع إسهامه في موجة قصص الترجمة الذاتية القوية في المدرسة البروليتارية، شاعر الصور الغنية وتداعيات الأفكار السريعة، الفكهة والمفاجئة والمفردات غير المتوقعة، الجديدة التي غالباً ما ابتدعت من أجل إحاطة أفضل بخصوصية شخص أو انطباع عن الطبيعة.

في «أوليفرتويست» الأدب السويدي الحديث هذه، يمر، دون انقطاع، حفيف تنانير: فبقدر ما كانت قصة ايفند جونسون الذاتية مذكّرة الجنس، كانت قصة هاري مارتينسون مؤنثة: فالمخلصات والكيسات والمتغطرسات والمراوغات والفظات والشهوانيات والخفرات والكريمات هن الأخوات والبنات والنساء اللواتي يحطن بالحياة اليومية لمارتان الصغير ويحددن مصيره. ولما كان يبحث، دائماً، عن أم فقد حمايتها ويأخذ عليها، بمرارة، خيانتها، فقد احتفظ في أعماق نفسه - بشهادة صفحة طريفة - بذكرى شهوانية ومبهرة استعادتها تيمة «المستحمات» التي غالباً ما نلقاها في عمل مارتينسون (يجب أن لا ننسى أنه كان، كذلك، رساماً موهوباً).

إن قصة «الشوك يزهر» تحتل في عمل مارتينسون مكانة مركزية بالنظر إلى وراء في تعاسات الطفولة وتهللاتها كما بالنظرة التي تتجه نحو المستقبل منددة، دون رأفة ولكن دون أن تخلو من بعض التسامح، بـ «الكذاب الصغير»، الشاعر الكبير المقبل.

هذه النظرة المشفقة والساخرة، معاً، على الذات وهذا الغضب... فلنوسع المجال، ولنزد في سعة التأرجح، وسوف نلقى هاري مارتينسون، الملاحظ المتنبه، الكفء والصابر للصغير دون حدود، كالحشرات وأعواد العشب، والمتأمل، في الوقت نفسه، للكبير دون حدود، شاعر «أنيارا»، هذا الصاروخ الضائع في الفضاء الخارجي الذي لجأ إليه أواخر البشر نهائياً ولكنهم سيموتون فيه لأنهم حملوا معهم كل التناقضات البشرية.

ج. بجور ستروم

تنبيه للقارئ

هذه القصة تجري في بداية القرن العشرين في سويد فقيرة، مختلفة جداً عن «الفردوس الاجتماعي» الذي انتشرت صورته خلال السنوات الأخيرة. فيمكن، إذن، لعدة تفاصيل أن تفاجئ القارئ بدءاً من مؤسسة «ربيب البلدية». ويدور الأمر حول شكل بدائي للمعونة الاجتماعية: فقد كانت البلدية تتولى أمر الذين لم يكونوا يستطيعون الوفاء بحاجاتهم - الأيتام والعجائز - ولكنهم «يُضمَّنون» نوعاً ما، للذين كانوا يقبلون ايواءهم بأدنى النفقات. وكان هذا الالتزام يعقد لسنة، وكان «المزارع» - أو الأبرشية لأن السويد بلد توجد، فيه، كنيسة دولة - يستطيعان فسخ العقد. وكان الطفل أو العجوز مرغماً، إذ ذاك، على سلوك الطريق إلى منزل جديد. إلا أن البلدية كانت، فيما يتعلق بالأطفال، تحرص على أن يتابعوا ارتياد المدرسة، وعلى أن يتلقوا تربية جيدة إلخ.

كانت المزارع فقيرة. فليست «السجادات» التي يدور حولها الأمر، إذن، صنف ترف، بل كانت عصابات طويلة متعددة الألوان - وجميلة جداً في معظم الأحيان - تنسج في المنزل انطلاقاً من ملابس قديمة أو أقمشة مقطعة إلى شرائط طويلة. و «الدكة» التي ينام عليها الطفل هي، في الحقيقة، صندوق مملوء بالقش ومزود بغطاء يسمح باستخدامه دكة خلال النهار.

كنت صغيراً في الزمن الذي كنت أصغي فيه.
في فصول الخريف المتأخرة كانت أفواه دون أسنان
تحكي فيه عن قمح المستنقعات الأبرص وزهرة الشيلم
ذي الظفر المرة. وفي بيت طفولتي كنت أحس بالبرد.

- ١ -

يجب أن يكون ذلك قد جرى في خريف ١٨٩٤. أولاف توماسون عاد بعد إحدى عشرة سنة طويلة أمضاها في كل ما هو الأبعد جنوباً. كانت رسالة قد وصلته إلى حيث كان يجز صوف خراف تسمانيا بمقصاته الملوثة بالشحم: عد إلى البيت، أيها العزيز أولاف لأن هناك الإرث الآن. هانا وويلغوت.

مسح مقصاته بعشب تسمانيا الكثيف الداكن، المزيت تقريباً وشرع في العودة إلى بلده، رحلة طويلة حول الأرض.

كان قد كتب، في ملبورن، إلى البيت يقول: «أعود بحذائيّ». وفي ولنغتون، في نيوزيلاندا، اشترى لنفسه بزة جميلة، كان من الأفضل لو انتظر أن يكون في لندن حتى يحصل عليها لأن الرحلة كانت دون نهاية، ولأن رجلاً بثياب مهترئة ومدعوكة هو الذي عبر بوابة بريدناس في تشرين الثاني من تلك السنة. ومع ذلك، كان هناك الفرح. هتفت هانا التي كانت خصبة الخيال ولكنها حمقاء.

– ها أنت، إذن، ياكتكوتي. يالها من مسيرة شقية! من الجزر التسمانية! أهلاً بك. أركبت السفينة إذن؟

قال مازحاً: جئت على محفة بعجلات.

تعانق الثلاثة جميعاً، أولاف وويلغوت وهانا، وضحكوا دون ارتباك، لمتعة الضحك، كما يفعل الناس حين يلتقون بعد زمن طويل.

عادت إلى أذهانهم كل الذكريات، كل ما كان مشتركاً بينهم، وكل ما جمعوه من هنا وهناك وما يزيد في حجم الذاكرة. استدعوا ما تمنحه الذكرى معاً، بصوت منخفض، في أعماق الزمن وصعدوا بها حتى قمة أهرام الضحك؛ هوهو، هوهو، آه! كيف كانوا في تلك الأزمنة! الآلام نفسها ارتفعت بالطريقة نفسها وبدت في ذروة موجة الذكرى مرحة تقريباً.

لم يلزمهم في تلك الليلة سوى القليل من الكحول، بضع قطرات محرقة، فقط، غرقت في فرحهم على مهل. لم يكن على أي كمان أن يدغدغهم بنشازه. لم يلزم ذلك لأن كل شيء كان، في تلك الليلة، على أفضل ما يرام. كانت تلك سكرة اللقاء الكبرى.

حوالي الصباح، ناموا كثلاثة أطفال ثملين قليلاً بعد أن عاشوا من الحياة ما هو الأوفر حرارة وكرماً. لم يكن ذلك فرح اللحظة، بل فرح شعور المرء بأنه قوي بخبرته، بأنه قد أطيح به بعيداً بركلات قوية، بأن جلده قد سلخته أشواك درب طويل وبأنه مسرور مع ذلك.

وهكذا التقوا. وكان، كما قالت هانا، عائداً من جزر تسمانيا.

- ٣ -

ثم جاءت الأيام التي أخذوا يتناقشون، فيها، حول الميراث. أوه!

لقد ظلوا أصدقاء، ولكن المواريث تستجر الريبة، تفسد. يجب أن نتوقع، دائماً، على دروب المال والحب، خلافات وحقارات. الحياة البشرية تبعث رائحة جلد ذئب خفيفة، لذلك يجب تهويتها دائماً.

-٣-

مع ذلك، كان هناك - في الحالة التي تشغلنا - ثمانية عشر ألف كورون لكل منهم. أضف إليها ستمائة وتسع عشرة ليرة اقتصدت في تسمانيا وسوف يكون أمامك المبلغ الذي بدأبه أولاف تومسون حياته - المكرسة للتجارة والحب والشراب - على ضفاف بحيرة إيلمن. وهناك، التقى ذات مساء، على الأرض البراح، المرأة. توثقت علاقاتهما ومضيا نحو قدرهما. وانتفخ جسد المرأة عند الخصر، وتزوجها قبل ولادة ابنتهما، إينيز، بشهر.

منذ ذلك الحين، كان يلزمهم بيت، وهو ما فكر فيه طويلاً، ولكن ليس إلى درجة كافية على الرغم من كل شيء، وأنجز شراء طريفاً. كان، هو نفسه، نموذج غني الطبقة الوسطى الجديد الذي يزدري الزراعة. وعلى طرف غابات نيت الأميرية، ألقت دارة لمفتش في إدارة المياه والغابات، مهيبة وعديمة الشكل، بأنظارها عليه. كانت للبيع.

قال أولاف لنفسه إنها ممتازة (إلا أنها لم تكن كذلك أبداً). كتب إلى الإدارة. ولما كان مسكوناً بذكرى مراعي تسمانيا ومسافاتها التي تتجاوز مدى البصر، فقد اشترى، على ضفة بحيرة ايلمن، هذا الكوخ المهدم الكبير المزخرف. شرع في تأثيثه. وكانت تلك، قضية بأكملها. فلم يمتلئ هذا المسكن، حقاً، أبداً. فقد ابتلعت غرف ذات أبعاد هائلة،

في الأدوار الثلاثة، عربات من الأثاث واللوازم، وانشأ، مدفوعاً، خاصة، بغريزة عمياء، غريزة ملء الهوة، بقالية من ثلاث غرف في طرف الدور الأرضي.

جلس في الشرفة - التي كانت بشاعة - العالية التي كانت في مقدمتها رؤوس تنينات فايكنغ عيونها تهدد كل نقاط الأفق. كان أولاف يحلم، يعزف على الناي أحياناً، ولكنه لم يستطع، قط، أن يتمالك نفسه تماماً ولا أن ينسى ساحات تسمانيا الكبيرة، هناك. لم تكن الكتب تعنيه. فالعالم كان، في نظره، يتبدى كامتداد هائل يتجاوز مدى البصر، ولم يكن يختزل إلى شيء ما أبداً، وأبداً لم يتركز في كتاب أو أغنية أو تناغم. كانت المرأة (الأم بعد ذلك الحين) تحبه في هذه الأمكنة وهو، نفسه، كان يحبها كثيراً هنا بالذات، على الشرفة، تحت ضوء القمر. ولكن قلقاً كان يعذبه دائماً. ذلك أنه كان هناك، كل الوقت، طرف ثالث، نوع من روح، شبح للعالم لم يحمّل نفسه، قط، مشقة تفسيره لذاته، ولكنه كان هناك وكان يربت على كتفه. كان يعاني من ذلك على الرغم من أنه لم ينشغل به. وعندما كانت الهواجس تضايقه، كان يلقي بها عنه بهزة كتف. وعندما كبرت إينيز وبدأت تثغثغ، أحس بنفسه في حال أفضل. في تلك الحقبة، كان النجارون قد انتهوا من إعداد الدكان المزعومة. كان أولاف يجلس وراء الدكة في انتظار الزبائن. وكانت اللافتة قد علقت. كان الاسم يبرز أصفر فوق الخلفية الزرقاء الصافية. كانت أكواب القهوة وسلاسل الساعات معلقة بخيوط أمام النافذة كما يجري في بقالية ريفية. وعلى الأرض، كان يوجد كيس القهوة وبرميل سمك الرنكة المملح، وكانت على الرفوف

الأوعية الزجاجية المليئة بسكاكر بالليمون، وكان في المستودع أكياس دقيق ونخالة وحمص مكسر وفاصولياء إلخ... مبسوطة ومستديرة كمؤخرات قابلات. وكان هناك في سقيفة، بعيداً، برميل النفط المستدير والأزرق كخنزيرة سمينة ذات رائحة قوية. وطبع أولاف على الأكياس الورقية عبارة: متجر ريجينالد سترلينغ. كان هذا الاسم هو الذي عاش به في تسمانيا.

كان ينقل السلع قارب بخاري صغير يدعى سفيا يعبر بحيرة إيلمن مرة في اليوم. كان القبطان الذي لم يمخر مياهاً أخرى شاباً طيباً بلحية صهباء. لم يكن الشيوخ، وحدهم، الملتحين. فقد كان كثير من الفتيان والمراهقين يتباهون بلحى طويلة غريبة. قبطان النيلوفر هذا الذي كان أكثر القباطنة توحداً كان، فوق ذلك، مالكاً لمزرعة صغيرة، كانت زوجته وابنته تهتمان بها. كانت الأسرة تعيش منعزلة قليلاً قرب سور أشجار الصنوبر الهائل الذي كانت الغابة الأميرية تشكله في خليج صغير من النيلوفر كان يمكن للقارب البخاري الصغير أن يدخله بصورة جيدة جداً لأن خدمته لم تكن منتظمة انتظاماً راسخاً. ومع ذلك، فإنه لم يدخل، أبداً، بين النيلوفر. لم يكن يريد الإزعاج نوعاً ما.

كان الخليج الصغير يدعى خليج ترول -ترولفيك. في السابق، كان أولاف قد بحث فيه عن امرأة، ولكن دون نتيجة. ليس اسم ترولفيك نادراً ندرة خاصة، ولكنه كان يناسب هذا المكان جيداً. كان سور أشجار الصنوبر ينتصب كجدار من جلود السمور فوق عين الخليج المخملية، السوداء كالليل. وكانت أزهار النيلوفر تلمع فيها كدموع.

يمكن أن يتساءل المرء عن وسيلة عيش المؤسسة الصغيرة، مالكة

المركب. كانت خلجان البحيرة الصغيرة تغوص في أراضي التاج، وكان التاج يحتفظ هنا، خفية عن بقية السويد، بغابة من أكثر غابات البلاد كثافة واعتاماً، غابة أسطورية حقيقية كانت سيقانها الكثيفة تغني في الريح وتطير منها، كل عشر خطوات، ديوك الحجل. ومن جراء ذلك، كانت الغابة تدوي بضجيج محركات - قبل عصر الطيران بكثير وأكثر من ذلك، أيضاً، بعد حلوله، كان الحمام يقيم في أشجار صنوبر عملاقة تنتصب هناك منذ عهد شارل العاشر[1]، وكانت أكواز الصنوبر تنسحق عند أسفل الأشجار، في الهوات التي حفرتها بينها وهي تكبر.

لم يكن هناك كثير من الهوات الصخرية، ولكن هوات صنوبر كانت توجد على طول أهرامات عالية وقاتمة من الإبر الحية. وكانت هناك، أيضاً، كتل ثقيلة وحزينة، أبراج كآبة.

كانت تسمع، أحياناً، من أعماق هذه الغابات، قرقرة ديوك الحجل نصف الحزينة ونصف الفرحة. يمكن أن يخيل للمرء أنها أطفال أقزام راقدون على ضفة مستنقع، شفاههم تلامس الماء ويتسلون بصنع فقاعات. نعم، كان بلداً خاصاً جداً.

أما بالنسبة إلى القارب البخاري الصغير على هذه البحيرة التي يبلغ طولها عشرين كيلو متراً، فقد كان يعيش في الصيف، خاصة، من نقل السواح الشغوفين بعالم النبات والذين كان يقودهم إلى جونٍ ما. ومن جراء ذلك، اختفت، شيئاً فشيئاً، آخر مستعمرة لكستناء الماء موجودة في السويد.

اختفت كستناء الماء، زهرة بحيرة إيلمن، لتسمح لبعضهم بزيادة بعض النقاط على سعر معشباتهم.

---

(١) شارل العاشر (١٦٢٢ - ١٦٦٠) ملك ، السويد ، خليفة الملكة كريستين .

شيئاً فشيئاً جاء الزبائن، واعتاد أولاف التأخر في الدكان بعد ساعة الإغلاق العادية.

كان هناك، دائماً، زبائن يتسكعون مساء: صانعو السلال المقيمون في أكواخ مبنية على الأرض التي تعود ملكيتها إلى التاج. ومثل كل الذين يمارسون مهنتهم جلوساً، كان هؤلاء الأشخاص حكواتية مجيدين. وكانوا جميعاً، كما هو العرف في مهنتهم وفي هذه المنطقة، قد ذهبوا إلى بومرانيا. وكان كل منهم يحمل لقباً مميزاً كانوا يعونه جيداً. كانوا يفيدون، نوعاً ما، من السمعة التي كانت تضفيها عليهم هذه الألقاب. وكان كل منهم يبذل جهده في تغذية الحكاية التي انتشرت بصدده. وهكذا كان يصل الأمر بهم، دائماً، إلى أن يمثلوا أدوارهم الخاصة وإلى عيش حياة حكائية. أصبحت كل الأرض الأميرية الغربية مسرحاً. وكان العرض يدوم سنوات، حيوات كاملة، وكان شديد التعقيد وكانت سماته صاخبة أحياناً، ضاحكة أحياناً أخرى ومريرة قاتمة في بعض الأحيان. ولكن المرء سوف يرى بوضوح، إذا راقبه خلال سنوات، قبيلة من الهيرولات والفنديات[1] تمثل الدراما الخاصة بها في مجرى الزمن، على أمكنة البلاد.

وهكذا كان أشخاص هذه القبيلة الثرثارة يقضون، منذ ذلك الحين، السهرة جالسين في دكان مؤسسة ريجينالد ستيرلينغ يتحدثون عن مهنتهم وخرافاتهم ومغامراتهم وغرامياتهم. كانوا يتحدثون عن زوجاتهم وعن نساء مغويات وجنيات. ولكن ذلك لم يكن ينسيهم الواقع لأن صنع السلال كان الواقع بالنسبة إليهم. أما كل الباقي، فقد كان ينتمي، بدرجات متفاوتة، إلى الخرافات والقدر.

(١) - شخصيات مسرحية كلاسيكية .

كان أولاف يصغي إليهم راضياً، يضع فوق الدكة علبة التبغ الكبيرة، بل ويضع سكاكر صغيرة عندما تكون هناك نساء. كان يدع نفسه، أحياناً، ينجرف مع موجات رواياتهم الكبيرة ويقابلهم بالحديث عن قرى الصوف وتسمانيا. في هذه البرهات، كانت نظرته تتوقف عند مقصات الصوف الكبيرة التي كانت معلقة على الجدار وهي ما تزال تلمع بشحم خراف الميرينوس السمينة.

إلا أنه كان هناك، مع مرور السنين، شيء آخر أيضاً: الغيرة والدين والكحول. حملت بيتي مرات عديدة، وكان هناك المزيد من الأطفال. لقد كان الأطفال يتجمعون حولهما قبل أن يتاح لهما، إن صح هذا القول، الوقت اللازم لتحقيق توازنهما. كانوا خمسة، فقط، في تلك البرهة، ولكن البيت كان يدوي بالصرخات والألعاب. اضطر أولاف إلى إخفاء مقصات الصوف وإلا لاستولوا عليها لقص الورق. نادراً ما تيسر له الوقت ليعزف على الناي في شرفة التنينات. وكان هناك، دون شك، ما يلي: كانت بيتي وأولاف يتبادلان، الآن، حباً أثقل وطأة مما ينبغي. كان كل منهما يطلب من الآخر أكثر مما ينبغي. وعندما لم يكن الفردوس يأتي إليهما على بساط طائر، كانا يتبادلان الضرب على الوجه. وفي عدة مرات، صوب إليها مسدسه الضخم. وفي خريف ١٩٠٦، رحل بعد أن وضع رسالة على المكتب. كتب يقول إنه هددها بمسدسه منذ زمن طويل. لم يكن يمكن أن يستمر كل هذا الوقت في تهديد من يسميها حبيبته. كان خجلاً من ذلك حقاً. كان ينبغي أن يستعيد توازنه، وسوف يبتعد لمدة سنة أو سنتين. وسوف يستمر في الوفاء بواجباته حيال أسرته.

بكت طويلاً في البدء. كانت تركض عبر غرف البيت الكبير وهي تصرخ باسمه.

وما أن عثرت على مقصات الصوف التسمانية إلطويلة التي خبأها حتى هدأت.. لم يعد إلى تسمانيا. استعادت الأمل وتعزت قائلة لنفسها إنه لم يكن لدى الشيطان في فوفير. وافترضت أنه ربما كان في إنكلترا.

ولمزيد من الطمأنينة، عدت أطفالها. كان هناك ستة، فهو لم يأخذ أياً منهم معه وكانت تعزية أخرى تعيد إليها تذوق الحياة. كانت هذه التعزية هي أن الطفل الأصغر كان صبياً. كان قد بلغ عمر السنتين من قبل، الحمد لله يا صغيري. مارتان، أنت صبي. ناحت وهي تقول ذلك. ثم عطست واستأنفت البكاء.

وصلت رسائل إلى البيت، أخيراً، بعد فترة الانتظار القاسية هذه. كانت تبين أنه على ما يكفي من البعد على الرغم من كل شيء. ومع ذلك، الحمد لله ما داموا قد عرفوا المكان الذي كان يعيش فيه.

عمل خلال سنتين سائقاً للترامواي في مدينة بعيدة على المحيط الهادي. كان علمها بأنه يعيش على هذا القدر من البعد أمراً شاقاً. ولكن، مع ذلك يا إلهي... كانت تقول للأطفال:

- آه! يا إلهي، لو كنا، فقط، نستطيع أن نرحل، جميعاً، على متن سفينة لشركة النجمة البيضاء.

وكان الأطفال يهزون رؤوسهم أو يبكون أو يضحكون حسب أعمارهم وحسب عقولهم. أما إينيز التي كانت البكر، فقد كانت تلزم الصمت وتطرق بأنظارها إلى الأرض.

جاء ويلغوت وهانا لتعزيتها. كانا يبقيان، أحياناً، في البيت يقرآن، بصوت مرتفع، الجريدة لبيتي أو يلعبان الدومينو أو ألعاباً أخرى غالباً ما كانت لعبة النرد، وكان الرهان حبات لوز. هكذا كانت تنقضي السهرات التي كانت يمكن، لولا ذلك، أن تكون بكماء وصامتة منذ أن ينام الأطفال عندما كان الصمت يصرخ بالسنوات والأيام التي انقضت في غرف البيت المفرط في سعته، الغرف المليئة بالأصداء.

كان لدى هانا، كذلك، ما ترويه، كانت ذات طبع دافئ وانبساطي. لم يكن على المرء، معها، أن يلوم نفسه على قتل الوقت، بل كان، بالأحرى، يجعله يتقدم بمماحكته، وبما أنه لم يكن في البيت كتب أو مصادر اهتمام أخرى، فإنها هي التي كانت نوعاً ما، كتاباً بثرثرتها المأثورة جداً عن الطبقة الوسطى السويدية.

هناك أربعة نماذج في الطبقة الوسطى

١ - المثقف مع بيانو

٢ - المثقف دون بيانو

٣ - غير المثقف مع بيانو

٤ - غير المثقف بدون بيانو.

كانت أسرة نيت تنتمي إلى النموذج الرابع.

لم تكن رسـائل بورتلاند نادرة كـثـيـراً. هذا يعني، إذن، أنه لم ينسها.

ما كان يقلق بيتي هي الريبة التي كان يواجه بها المستقبل ووسائل عيشهم إذا كان يجب أن يستمروا في العيش في نيت. كان يتحدث عن مرارته وكراهيته حيال هذا البيت المسخ الذي اشتراه تحت تأثير كأس كونياك شريرة.

«في ذلك اليوم ولد المصرف، يا عزيزتي بيتي، جهيضاً. كان يمكن أن تكون لنا حياة أكثر صفاء في مكان أصغر وأكثر ضياء ويبتلع مقداراً أقل من النقود. ثم أنك، أنت، تصرين على ركوب الدراجة في الحديقة وعلى الوقوف قريباً من البوابة وعرض ثدييك للعيان. هذا شيء يجب أن تتخلي عنه».

أطلعت على الرسالة كاتمة أسرارها الدائمة، هانا.

- أوه! أعرف هذه النبرة، اهدئي، سوف يعود قريباً.

تحققت تنبؤات هانا. كانت، كما يقال، تعرف عالمها. فبعد ما يكاد لا يبلغ الشهرين، كان يقف عند البوابة بشاربين أشقرين طويلين وقبعة عريضة الحواف وضحكة على شفتيه.

عند ذلك، كانا سعيدين من جديد لفترة. ولكن السعادة انكمشت، هشة على مقعدها. خاف من التيارات الهوائية وسهر بشعور مرهف على

ذكرياته. لم يكن يريد أن يلاطف بصورة أقسى مما ينبغي ولا بصورة أرق مما ينبغي. أنه يريد قدراً من النوعية الأولى في وقته تماماً، مع صلوات معتدلة وجعة معتدلة.

وسرعان ما عاد كلاهما إلى رقصتهما المزويعة. كانت بيتي تعرض ثدييها للنظر على البوابة. ثم لجأت إلى زاوية. وبدأ أولاف في تعاطي الكحول، وسرعان ما رأى العالم من خلال عدسة مشوهة للأشكال. كانت الدارة بعيدة جداً عن كل شيء، على ضفة بحيرة إيلمن، في الغابات. ولم يكن غناء العصافير ولا بريق الشمس يساعدان كثيراً.

وفتحت في بوهولت دكان منافسة. لقد بناها شاب كان يجتذب الزبائن بصورة شبه مغناطيسية. وبعد ذلك، كان يمكن للشمس أن تلمع وللعصافير أن تغني على هواها. ذلك أن الأمر يدور، في الحياة، حول اتخاذ المكان المناسب إن أراد المرء أن يتذوق العسل. ونيت كانت حويصلة عقيمة في قطعة حلوى عسل العالم الكبيرة. هذا ما كان ينبغي التفكير فيه، ولكنه لم يكن يحظى بالاهتمام. وسرعان ما لم يعد يمكن أن تدفع ليرة استرلينية واحدة لقاء متجر ريجينالد ستيرلينغ.

مارتان

- ١ -

أول ذكرى له هي مساء صيفي. الطريق الجافة والوعرة تمر أمام بوابتهم. الحديقة تدوي بالأصوات والألعاب. كانت شقيقتان تتقاتلان تحت أشجار الزان، تتبادلان إطلاق الشتائم وشد الشعر. كان، هو، ينطلق راكضاً في الممشى المفروش بالحصى. كان صف مزدوج من الأصداف الضخمة، المتعرجة والمنتهية برؤوس حادة يحف بالممشى حتى البوابة. صرخت الشقيقتان به أن لا يبتعد. ولكنه يطارد فراشة مسائية كبيرة، صفراء، تطير، ترفرف دون راحة. مضت الفراشة كدوامة، مثل ورقة ساقطة عن شجرة في الخريف. كانت ترفض أن يبتلعها جوف النسر الذي كانته قبعة القش. هربت من الحيوان الطفل الذي يملأ جنسها رعباً وخوفاً. الطفل نمر وتمساح بالنسبة للفراشة. واستمرت المطاردة. انحدر الطفل والفراشة على الممشى بسرعة. ووصلا إلى البوابة محاذيين الأصداف المصرية التي كان عمرها مائة وثمانية وتسعين عاماً. وهناك، أفلتت الفراشة من بين القضبان. ووقف الطفل على رؤوس أصابع قدميه. وبسرعة البرق أمسك بالمزلاج الحديدي وتعلق به بكل وزنه. انفتحت البوابة. أصبحت الفراشة والطفل في الجانب الآخر من الطريق. اندفع الطفل من جديد ضاحكاً، ولكنه وقع وجاءت راحتا يديه على الأرض وأصابعه مبسوطة. ظهرت دراجة مرت على أصابع الصبي، عجلة بعد

الأخرى. ثم تابعت الدراجة طريقها مصحوبة بشتائم جاءت من الحديقة. بقي مارتان ممدداً على الطريق يبكي. أصابعه تؤلمه كثيراً وهو يرتعش من الألم. خرجت أمه من الحديقة آتية لتأخذه. كان مارتان يصرخ بشكل يمزق القلب. كانت سماء المساء تتحرك بصورة مشوشة في ملح الدموع، في هذه العدسة الغائمة. بعد نصف ساعة، انتهى كل شيء. نام ويداه ملفوفتان بخرقتين مبللتين. كان عمر مارتان ثلاث سنوات.

أولى ذكرياته تعود إلى ما كان يؤلم. جرح نفسه بين الإبهام والسبابة وهو يلعب بقطعة زجاج من قنينة. كانت الشمس تشع على الحديقة والخلنج حولها. كان ذاك ربيعاً ريّحاً. نظر مارتان إلى عمق السماء ودمه يسيل، وهو يبكي. ثم كان عليه أن ينتقل معصوب اليد بقماشة بيضاء. لاينبغي اللعب بالضماد. كان داخل القماشة حاراً، وكان يتألم. لم يود أن ينزع الضماد ليرى ما الذي يصنع الحرارة وما يؤلمه داخله. اليد الأخرى تريد أن تعرف ما الأمر في اليد الجريحة، ولكنهم كانوا يصرخون به إذ ذاك: أنزل قائمتك لا تلمسها! شفيت اليد شيئاً فشيئاً، وشيئاً فشيئاً عادت إلى النسيان. ثم مرت شهور لا يتذكر مارتان عنها شيئاً. في ذات يوم سقط على السلم. ضربته الدرجات كأدراج شريرة، أصابت ضربة جبينه، سكت، في البدء كان التشنج والصمت، ثم أرخى الخوف قبضته ولم يعد يشل حباله الصوتية، فاندلعت صرخات مارتان كما لو كانت صادرة عن ثلاثة أبواق وملأت البيت. هرع إليه الآخرون. فتحت الأبواب بسرعة. رفعوه وأرجحته سواعد، ونقل. ومن المطبخ، خرشت أنفه رائحة خردل مطحون حديثاً. عطس مارتان وسط الصرخات والدموع. عند ذلك استولى عليه الغضب

وراح يضرب من حوله، وكان يريد، وهو يصرخ، أن يخمش الآخرين.

تكونت، الآن، حدبة على جبينه. اللواتي كن يحطن به للنظر إليه قلن: له حدبة أكبر من أنفه.

كان معتاداً على اللواتي يحطن به للنظر إليه، وجودهن بديهي. وهن اللواتي عليهن القدوم لأخذه وحمله على السواعد عندما يصرخ، فهنّ اللواتي يهرعن إليه. ولكنه لايحس شيئاً مما سوف يسميه، فيما بعد، الحرارة. إنهن ما تستدعيه كلمة «شقيقات». كان يتشبث بأمه بإلحاح محرق وغاضب يطلب منها بنبرة آمرة أن تنشغل به. إذا دندنت إحداهنّ، فإن ذلك يضيف شيئاً لا يجده في مكان آخر ويسره. التي تدندن من أجله هي أكثرهن حناناً. ومنذ أن تتوقف الدندنة، يحس بالبرد. كان مارتان السريع الاستثارة والرقيق يجتاز مرحلة سرعة استثارة الطفل وأنانيته التي لا حدود لها، طفل الثلاث سنوات. انتباه! سوف يصرخ! إنه، الآن، المستبد ذو العينين الفاتحتين الذي يحمل على السواعد. الأسرة عبد له، وكل أفرادها منشغلون به. يطفح الكيل أحياناً، فتكتشف كراهية سرية حيال شخصه الصاخب. سوف يرى، بعد بضع ساعات، الحدبة في المرآة التي سوف تقدم إليه. يرى نفسه ويضرب وجهه في المرآة. لم يعد يتذكر شيئاً عن الزمن الذي كان، فيه، أصغر سناً. وقد عرف سبب ذلك عندما أصبح راشداً. لم يكن، لأنه دون فردية خاصة، طفلاً إلا في الظاهر. كان ملحقاً بأمه، امتداداً ووعداً: بيضة جميلة سمينة مزودة بحركة، بعينين وذراعين. لم يكن سوى ظلمة تملك غريزة حماية عمياء وغريزة غذاء نهمة. لم يكن لديه، آنذاك، ما يمكن أن يولد عادة أو صورة حياة متماسكة. كان الحلزون في عشب الحديقة أكثر منه حكمة واستقلالاً وتمثلاً لذاته.

في عمر الثلاث سنوات، خطرت لمارتان فكرة استطاع أن يتذكرها فيما بعد: المسافة. كان يحس بمسافة في الزمان والمكان. منذ تلك البرهة استولى عليه خوف نصف إنساني، فرح نصف إنساني عقبا الظلمة وغير المنجز والحيوان. زادت الأنانية من جراء ذلك في الوقت نفسه الذي كانت طبيعة ثانية تتشكل، فيه، وتأخذ مكانها مرونة ومسار تكتيكي ومواقف أولى.

كان، في عمر الأربع سنوات، يتنزه على طول الممشى ويقعي ليفاجئ، كشقيقاته، غناء الأصداف المصرية غير المنقطع. كان يستطيع، أيضاً، أن يذهب ليرى، وحده، «الصبي في القارب»، وهي زهرة كانت تنمو في الحاشية، إلى جانب البوابة. عند ذلك خطرت له فكرة من نوع ما، فكرة العشب واستدارة الحاشية وكل المكان فوق الغابة وفي طرفها. ربما كانت هذه أول حالة وجدانية له، تأمله الأول، المبهم. في الوقت نفسه، كان يمتص، بكل خياشيمه، الهواء، رائحة العشب الندية وتربة المساء ويحس، بفعل ذلك، ارتياحاً ثملاً. ثم جاء زمن اغتم، فيه، ووجد في الصوت مقداراً أقل من البهجة. وهذه الحالة الوجدانية تطورت سريعاً وسرعان ما أدت به إلى الامتعاض من سماع الناس يقهقهون دون سبب. ومنذ هذه البرهة، أخضع نفسه لطريقة الكائن البشري في تثقيف نفسه والتأثير في العالم.

- ٢ -

بعد بعض الوقت من ذهابه لرؤية الصبي في القارب، اكتشف إينيز. كانت شقيقته الكبرى. وسرعان ما وجد نفسه ينظر إليها بوصفها

أفضل شقيقاته. كانت ترسم حركة واسعة بيديها لتوضح له كم العالم كبير. كانت ترسم الأفق، وعيناها تريان بعيداً، بعيداً.

كان العشب والحصباء والفراشات تستغرق انتباه مارتان. صنعت إينيز رسماً في الرمل لتبين له أن الأرض مستديرة.

وصل الأمر بمارتان، شيئاً فشيئاً، إلى توجيه كل أسئلته إلى إينيز. كانت تجيب بقدر ما تستطيع وتفسر له. كان مارتان ينام، أحياناً، بين ذراعيها. كانت تروي له قصة أو أخرى لم يكن يفهم منها شيئاً. وكانت، في معظم الوقت، قصصاً مهدئة، قصصاً تنيم.

انقضت أسابيع الصيف، وكان يسعى، بصورة متزايدة، وراء صحبة إينيز. كانت الأكثر صمتاً وتلك الأكثر معرفة. منذ ذلك الحين، كانت إينيز، بالنسبة لمارتان، الأم الحقيقية، تلك التي ترعاه.

- ٣ -

كانت إينيز طويلة، غير متوازنة ونحيلة. كان جبينها بارزاً، شاحباً ولامعاً، وكانت عيناها حولاوين قليلاً، مشدودتين إلى البعيد، وساقاها نحيلتين ولا رشاقة فيهما. ولاشك في أنه يجب، بوصفها الطفل الأول، جنين ما قبل الزواج، أن تكون قد خضعت لمحاولات إجهاض ومنقوعات رديئة. وفضلاً عن ذلك، فإنها قد أتت إلى العالم في فترة قاسية كانت النساء يلبسن فيها المشد وكان ينبغي، حقاً، أن تتبع الأجنة الموضة. كان ظهر إينيز محدودباً وكانت، لهذا السبب، تبذل، دائماً، جهداً، لتقف مستقيمة. ولذلك، كان في تماسكها شيء صنعي. كانت يداها نحيلتين وشفافتين تقريباً، وحتى ماء الجلي والغسيل لم يكونا يتوصلان إلى

صبغهما بالحمرة. كانت يديّ فتاة قبيحة ومريضة. كان عندها غيتار من خشب الزان المعاكس أهدي لها بمناسبة بلوغها العاشرة من عمرها. كانت قد طلبت إلى العامل أن يأتي ليطليه من أجلها. كان غيتارها يلمع عاكساً صورة ورق الجدران ومزيج الضوء والظلمة في الغرفة. لم تكن تدع أحداً يلمسه طواعية. وإذا سمحت لأحد بأن يمسك به بين يديه، فإنها كانت تبقى جانباً تراقب الدخيل بقلق. كانت بقية الأخوات يسخرن منها لهذا السبب. ولكنها صمدت. كانت تريد أن يكون غيتارها جميلاً. كانت تقول: «لقد أعطي لي وربما كنت أقل الجميع تلقياً للهدايا. أريد على الأقل، عندما أصبح كبيرة ووحيدة، أن أستطيع عرض غيتاري على الأنظار». كانت الكبيرة وتلك التي كانت ترى الأمور بأكبر مقدار من الوضوح. ولذلك كانت تعرف أكثر من سواها. كانت شقيقتاها الأصغر سناً تنظران إلى وجهها نصف ذاهلتين ونصف مزهوتين. كانت إينيز تجلس تحت غيتارها، مثل عرافة، كامدة كالموت. كانت شقيقاتها الأخريات يشعرن حيالها بنوع من القلق الشاحب. كن، بسببها، أقل طمأنينة في الحياة. ما الذي لديها لتفكر فيه كل الوقت هكذا؟

دون أن يفهم مارتان ما كان يجري، ها هم يسكنون في مكان آخر. أوضحت إينيز قائلة: «نحن نعيش بكل بساطة الآن». كانت الأرض ترج تحت الأقدام. كانت تقول: «نسكن قرب مقلع حجارة».

- جرى هذا بسبب الإفلاس.

قال مارتان: دليني عليه.

- لايمكن رؤيته، إنه غير موجود.

ولعدم وجود ما هو أفضل، تصور مارتان لولب نزع سدادة القنينة.

كان ذلك، في حياتهم، تسلل عالم جديد مطلقاً: ضجات جديدة، صرخات جديدة، حركات جديدة وأيام جديدة. كان رجال بقبعات ذات حواف عريضة يخرجون من الأرض. وكانت مقالع جديدة تفتح في كل مكان يذهب الأطفال للعب فيه كهاويات تعج بعشير من الرجال السود الذين يحملون الديناميت في أيديهم. كانت على أفواه هؤلاء الرجال شتائم وكلمات مكرورة وتأكيدات هائلة. وكان الرعد يزمجر حول حياة هؤلاء الرجال. كانوا، في الأسفل، يروحون ويجيئون بين الصدوع كقطاع طرق الجبال الصخرية في كتاب إينيز. كانوا يدسون في الصخر قضباناً حديدية يغوصون بها بضربات مطرقة ثم يفجرون الشحنة. كانوا يصرخون: «نار في الجبل»! ويركضون للاحتماء متلاصقين في ممر ضيق. ذلك يحدث تحت الأرض فرقعة مروعة وكانت البلدة تهتزمن جرائها. كان

الأمر كذلك طيلة النهار في كل يوم. كان الذهاب إلى أي مكان ممنوعاً. كان المشهد مهدماً ومبقوراً. كانت المقالع في الغابات تفغر أفواهها. وكان كل ذلك ينشر رائحة الغبار والزيت. كان بخار الملفات يتصاعد حول القمرات كغيوم. وكانوا يصيحون، في كل الأرجاء: انتباه! انتباه!

كانت الأسرة تسكن، الآن، بيتاً كله أصفر قرب مقلع سمي «سيبريا الكبرى» وكان، هو نفسه، في برهة أخطر الانفجارات معرضاً لوابل من الحجارة. ولذلك وضعت مصاريع خشبية على النوافذ المطلة على المقالع.

كان قد جرى كلام كثير حول هذا البيت. قيل إنه ينبغي هدمه وإنه كان في وضع خطر منذ امتد المقلع نحو الغرب إثر الانفجارات والأنقاض. ولكن بعضهم قدروا أن في هذا مبالغة. فالبيت سيصمد بقدر ما سيصمد الخشب الذي صنع منه. والاعتقاد بأن الانفجارات وانخسافات الأرض ستوقعه في المقالع كان اعتقاداً أبله. كان ينبغي أن ينزاح عدة أمتار قبل أن يبلغ الحافة ويسقط في الهوة. لا خوف إذن. أوه كلا! فـ «الخطر الأصفر» كما كان يسمى، لن يتحرك وحق الله! وسوف يبقى هذا الكوخ حيث هو.

ومع ذلك، فإن هذا لم يمنع كون البيت قد اشتهر بأنه مهدد تهديداً خطيراً. ولذلك فقد قيمته وبيع، في نهاية الأمر، بسعر منخفض.

ولقب مارتان باسم «الصيني الصغير». وكيف يسمى خلاف ذلك هذا الصبي المضحك الذي يسكن ذووه «الخطر الأصفر»؟ اصطدم مارتان، للمرة الأولى، بسخريات الأطفال الآخرين. لم يبك بل، على العكس من ذلك، وجد هذا الأمر رائعاً. عاد إلى بيته راكضاً، يشع فرحاً ليسر بالخبر إلى إينيز.

- إنهم يجدوننا مضحكين، وهم يسموننا الصينيين، كلهم يقولون ذلك. نحن صينيون يا إينيز.

- أنت غبي.

كانت إينيز تغسل حوجلة زرقاء صغيرة في ماء الفينيك. وبعد أن غسلته، تركته يغلي. كان مارتان ينظر إليها بانتباه.

- قولي لي يا إينيز لماذا هو أزرق هكذا. ولماذا تغلينه؟

- لاتطرح أسئلة. إنه لوالدنا. اذهب والعب برهة. سوف يقدم لك الطعام بعد قليل.

كانت إينيز، منذ أن سكنوا هناك. مستعجلة دائماً. لماذا كانت تكلمه هكذا؟ لماذا لم تعد تهتم به. مضى متأملاً يبحث عن الأطفال الآخرين. وجدهن مختلطات بمجموعة، جاحظات العيون، إلى جانب قمرة ملفاف كان يحدث كثيراً من الضجة وينفث بخاراً. وكان يسحب، مزمجراً، سلكاً حديدياً ضخماً يغوص في الثقب الكبير. كان الرجال، هناك في الأسفل، يصيحون:

- هوو! ارفع! هوو! ارفع!

وعندما نظر مارتان إلى أسفل، رأى كتلة حجرية مقرنة تزحف في أعماق القاع كلما سحبت الآلة السلك الحديدي. كان الأطفال ينظرون إلى بعضهم بعضاً بابتسامة بلهاء. كان ذلك، بالنسبة إليهم، عالماً جديداً، وكانوا يصدرون افتراضات، ولكن افتراضاتهم لم تكن تستند إلى شيء، كانت شائعات. كان الأمر يدور هنا حول صوان وآلات فولاذية. قال الرجل وهو يخرج من القمرة:

- انتبهوا أيها الأطفال! لاتبقوا هنا! ليس لكم ما تفعلونه هنا. راية

الانذار سترتفع فوق السارية هناك في الأعلى. في هذه اللحظة سينفجر كل شيء.

عاد إلى قمرته وتغلف بسحابة من البخار. انشد السلك ساحباً كتلة حجرية أيضاً. كانت مجموعة أطفال بحيرة إيلمن الوادعة تعيش في الدهشة منذ أسابيع. وكان الأطفال يدورون، خرقاً وفاقدي الاتجاه، حول ثقوب الأرض الكبيرة بحثاً عن مكان لا يصيح أحد بهم: انتبهوا أيها الأطفال! ولكن كلا. كان الأمر هو نفسه في كل مكان، فلم يكن لهم الحق في البقاء هناك. كان يوجد، دائماً، شيء خطر في الجوار كان رجال الصخر يرونهم إياه. هناك أشياء كانت كهربائية، وأخرى كانت ناراً وبخاراً. كانت الرافعات تدور في كل الاتجاهات كما لو كان ذلك لتوزع صفعات ضخمة. فليرحم الله من كان يوجد في طريقها. كان يوجد إلى جانب إحدى أعمق الهوات مرجل بعجلات تحته، كي لا يغوص في الأرض، قطعة سكة قصيرة. كان المرجل يشخر بضجة مخيفة. كان له شكل زجاجة عملاقة. وكان دخان قاتم يتصاعد من الميزاب الحديدي. كان رجل بلحية سوداء طويلة يبقي جنب الزجاجة مفتوحاً ويملؤها فحماً. صاح:

– انتبهوا! الرافعة تدور!

وبالفعل، ما كاد الأطفال يقفزون جانباً حتى أخذت الرافعة المثبتة على الزجاجة تدور وهي تلاحقهم، منجزة دورة كاملة حول نفسها. كان الأمر كما لو أن جسراً حديدياً كاملاً يجري في أعقابهم. امتشق الرجل ذو اللحية السوداء قضيباً حديدياً وصاح:

– أيها الأطفال القذرون!

قالت فيران وهي تعض شفتها:

- إنهم غاضبون منا!

وأضافت بصوت بنت أجش:

- لو اقتربنا أكثر مما ينبغي فسوف يقتلوننا أو يفعلون بنا شيئاً آخر. ولكننا سنقول لكل الناس كيف هم.

ألقوا إلى ورائهم نظرة خوف ليروا ما إذا كان الرجل صاحب لحية السخام سوف يطاردهم أو يفعل بهم شيئاً آخر. انتظروا، وقد قدموا أرجلهم خطوة تحسباً للحالة التي سينقض، فيها، بقضيبه. ولكنه، بدلاً من ذلك، أخذ يغني. كان يقلب في الزجاجة الكبيرة قطعاً طويلة من الحديد كان يحميها. ثم أمسك بالعتلات وأعاد الرافعة. أوه لا لا! لم يكن للميزان أن يطلق من الدخان، مثل سحابات عاصفة.

أعادهم الجوع إلى البيت الأصفر. قاموا بدورة عبر الغابات من أجل أن لايلتقوا زجاجات حديدية أخرى. كان كل شيء هادئاً هناك. لم يكن هناك أحد ليصيح بهم أن ينتبهوا. ولكن الانفجارات كانت قد حطمت كثيراً من الأشجار. وكانت شظايا صوانية زرقاء رقيقة كصحون قد سقطت بين نباتات العناب. كانت شظية قاطعة كسكين وكبيرة كطبق مغروس في جذع شجرة سندر. وكان النسغ يسيل من الجرح وينتشر كلعاب على الصوان الأزرق. كان هناك، من قبل، طفلان آخران يتأملان الظاهرة. سألهما أطفال أسرة أولاف: متى حدث ذلك؟ قالا إنه حدث هذا الصباح نفسه. وجدهما أطفال أولاف لطيفين وتهيؤوا لطرح أسئلة مختلفة عليهما للتعارف. قالوا:

- نحن حديثو العهد هنا. هل هناك كثير من الحجارة تتطاير هكذا في الغابات؟

قال الآخران بنبرة عجوزين صغيرين:

- نعم، كما تستطيعون أن تروا.

ودلاهم على شظايا صوان كانت قد سقطت في كل مكان، في العليق وفي كل مكان. وأضاف أحدهما قائلاً:

- ذات مرة، كان هناك شخص قطع رأسه (التفت نحو الآخر). أنت تعلم، إنه جان غرينبرغ وقد حدث ذلك منذ خمس سنوات.

قال الآخر:

- آه نعم!

وضع قدمه فوق شتلة عناب وأطلق نفثة لعاب طفلي مائل للبياض.

- آه! كانت تلك ضربة قاسية لآل غرينبرغ، تستطيع أن تصدقني.

قال الآخر كشخص عائد من كل مكان:

- أنا أصدقك.

بصق من جديد. ثم أخرج كل منهما من جيبه علبة من صفيح أبيض وراح يمضغ حفنة من التبغ سرعان ما كان يبصقانها خفية.

كان الأطفال أولاف ينظرون إليهما فاغري الأفواه بسبب التبغ جزئياً، وكذلك بسبب الشخص الذي قطع رأسه. فأفأ مارتان قائلاً:

- هل مات؟

نظر ولدا عامل المقلع إليهم بهيئة صبر لا حدود له مقلدة جيداً جداً. قال أحدهما:

- نعم، لقد مات.

رفع عينيه ليرى حالة الطقس. كان يمكن أن يخيل للمرء أنه كان يتوجه إلى الغيوم التي كانت تجري فوق المقالع وتبدو منذرة بالمطر. قال الأطفال أولاف مرتجفين في آهة تعجب تطاولت:

- هذا فظيع

لم تكن دهشتهم تجد لها نهاية. هذه الشظية القاطعة... هنا بالذات؟

استأنف أحد الصبيين كلامه قائلاً:

- نعم، في هذا الموضع الذي نحن فيه. الشظية اجتازت الأجواء. وهوب!

كرر الأطفال أولاف قولهم:

- هذا فظيع.

قال الصبي:

- ياه! هذه الأمور تحدث. ينبغي أن يحسب حسابها.

ونظر إليهم ببرود متعالٍ. مر بظاهر يده على الشاربين اللذين سيكونان له عندما يكبر.

- يجب أن يحسب حسابها دائماً، هل تفهمون؟ ولكنني أعتقد أنه يجب أن نعود يانيلز. والدنا يريد أن نساعده بعد عمله إذا كنت قد فهمت جيداً.

هز الآخر رأسه كما لو كان يريد الاعتذار من الأطفال أولاف. قال:

- نعم، يجب أن نذهب.

ثم ذهبا. قالا:

- إلى اللقاء إذن، سوف نرى بعضنا بعضاً.

فأفأ كل الأطفال أولاف قائلين:

- نعم، إلى اللقاء.

وتابعوا بعيون مدورة الشقيقين اللذين ذهبا. كان الأخ نيلز، خاصة،

هو الذي حظي باهتمامهم. وأثناء العودة، حاول مارتان أن يفعل ما فعله. نظر إلى الغيوم وراح يبصق دون انقطاع مبذراً كل ما كان لديه من لعاب.

قالت فيران:

- سوف يقال إنك تبصق هكذا.

ثم أضافت بعد لحظة:

- إنه لا يفعل سوى تقليد الآخر. هذان الصبيان شخصان مضحكان!

قالت بوديل:

- إنهما متشردان حقيقيان!

واستمرتا في الدمدمة برهة. لم يعد مارتان يبصق. العملية فسدت. وسرعان ما أصبحوا أمام السلم الذي يؤدي إلى البيت، السلم المنخور للبيت الأصفر. كانت تصدر عنه روائح وجبة فقراء: سمك رنكة مملح مع صلصلة بيضاء وبطاطا. جاءت إينيز للقائهم. قالت:

- لقد غسلت الأرض. يجب أن تمسحوا أقدامكم بأغصان الصنوبر التي وضعتها عند المدخل. أنت، يا مارتان، اذهب واغتسل، يجب على الجميع أن يغسلوا أيديهم. وانت، يا بوديل، ستذهبين لإحضار حطب وفيران ستساعدني في صنع الخبز.

استقبلت هذه الأقوال استقبالاً سيئاً. أخذت بوديل وفيران في الصأصأة. ما لهذه الأخرى هي وماؤها وحطبها وخبزها وماؤها وحطبها! مدتا لسانيهما لإينيز، ولكن إينيز ظلت واقفة هناك وقد تلوثت بالدقيق ذراعاها وجذور شعرها وطرف أنفها، محمومة الوجنتين ولامعة العينين

أكثر مما ينبغي. قالت:

- هلا تلطفتم بمحاولة أن تكونوا نظيفين. صحة بابا ليست على ما يرام.

سعلت في منديلها سعلة جافة. دخلوا إلى المطبخ. كانت إينيز تسعل وتتكلم. خرجت الأم من الغرفة ونظرت إلى الأطفال بهيئة فظة.

- يريد ليموناً. قولي يا إينيز، هل لدينا ليمون؟

- كلا، أنت تعلمين جيداً يا أمي أنه ليس لدينا!

نظرت الأم إلى إينيز نظرة شرسة. نبرة ابنتها استفزتها. دخلت الغرفة لتخرج منها سريعاً من جديد. قالت:

- لاتكوني وقحة يا إينيز.

نظرت إليها إينيز طويلاً ولم تقل شيئاً. مع ذلك، كان يرى أنها كانت تستطيع أن تقول شيئاً، وأن في داخلها أشياء كثيرة تقولها. خفضت الأم بصرها. كانت إينيز تتفحصها دون رأفة. قالت:

- إن كان هناك موجب، نستطيع أن نرسل أحداً لشراء ليمون.

صاحت الأم متخذة من جديد هيئة متعالية:

- ياه! ليس الأمر بهذه الخطورة. بوديل، ضعي عليك وزرة نظيفة واذهبي لشراء ثلاث حبات ليمون أو أربعاً.

سارت بوديل وراء أمها عندما دخلت إلى الغرفة وقد أسعدها الإفلات من سخرة الحطب. قالت فيران بحسد:

- هذه العديمة النفع مسرورة أكثر مما ينبغي. وهذا يعفيها من العمل.

رفعت فيران غطاء المعجن المحدب. وربتت، وقد انقطعت عن

الاهتمام، براحة يدها على العجين الذي كان قد انتفخ. دندنت: تابوتي، ترالالي وترالالا. رسمت تكشيرة في اتجاه إينيز التي كانت تنشر دقيقاً على الطاولة. لم تلحظ إينيز التي كانت غارقة في أفكارها شيئاً.

قالت فيران:

- شرسة.

وعند ذلك سمعتها إينيز وقالت بصورة حاسمة:

- طائشة. تتخيلين أن كل شيء هو كما كان. أنت مثل أمك. والآن، انظرن حولكن يا آنساتي الصغيرات. نحن نسكن كوخاً عتيقاً أصفر إلى جانب المقالع: القصر الصيني. وأبونا يموت. فكرن، إذن، قليلاً في حالتنا.

رفعت إينيز رأسها وصمتت. كانت حمرة غير طبيعية قد صبغت وجنتيها. كانت نظرتها محمومة. التفتت نحو فيران بهيئة متهمة، فكفت فيران عن التضاحك وتراجعت. تواجهت نظرات الشقيقتين طويلاً. لم تتواجها، قط، وهما في مثل هذا التقارب. وفي النهاية، امتلأت عينا فيران الكبيرتان بالدموع، كانتا تلمعان كعدستين وراء نظارتين. كان فمها يستعد ليقول شيئاً. ولم يكن هذا الشيء سوى همسة، رجاء.

- إينيز!

- نعم!

- كيف الحال، قولي يا إينيز؟

حدقت إينيز في الطاولة وقالت:

- إنه النهاية ما لم...

جاءت الأم فصمتت إينيز. أخذت الشقيقتان في الدندنة وعادتا إلى

أعمالهما. وقفت الأم أمام الموقد وبدأت تسخن مشواة، وظلت صامتة برهة طويلة. تابعت الشقيقتان الدندنة. عندما سخنت المشواة، خرجت الأم ثانية، والتفتت على عتبة الباب وقالت:

- الخياطة هنا، في الغرفة الأخيرة. اليوم موعد قياسي. هيا يا إينيز! سوف تحملين لنا، بعد قليل، الشاي مع قطع حلوى صغيرة، أليس كذلك يا إينيز؟

كانت تعبر عن نفسها نصف حالمة ونصف غير مبالية.

- ولكن، ليس لدينا شاي يا أمي.

من جديد، احمرت إينيز بعنف. كانت وجنتاها المحمرتان تعطيانها هيئةً ناضجةً.

- ألا يمكن للقهوة، أن تكون مناسبة وقد غدونا، الآن، فقراءً؟

خطت الأم خطوتين في المطبخ ووضعت المشواة التي بدأت تبرد جانباً. وضعت يديها على خصرها مكتئبةً، وسألت برخاوة على طريقة مسرنم:

- من قال إننا فقراء؟

مات في ليل ٣ كانون الأول ١٩١٠. كان المريض وحده في غرفته. الآخرون كانوا قد رأوه يغفو، ثم انسحبوا. ربما استعاد قواه في صباح الغد.

وسرعان ما تبددت الهمسات نفسها وحل الصمت. دقت الساعة الواحدة.

عند ذلك رفع أولاف رأسه عن الوسادة ونظر حوله في الغرفة. لقد تغلب عليهم! كانت نظرته مضطربة ومتعبة، نصف منطفئة وكما لو كانت متكلسة من الحمى. ولكنه تغلب عليهم! كان وحده منذ ذلك الحين. تحول على جنبه. كانت الندبة التي سببتها في وركه إقامته الطويلة في السرير تؤلمه. لقد تألم حتى اللحظة الأخيرة.

ظل بلا حراك يفكر وعيناه على السجادة التي كان الظلام يبتلعها شيئاً فشيئاً. لم يكن المصباح إلى جانب السرير يضيء سوى مساحة ضيقة من الغرفة. كانت دائرة النور تتحول إلى هالة واقعة على الأرض كعين سطحية وعذبة تتأمل السقف. كانت ترسم دائرة حول المنعزل، حول اكتشافه الأخير: الإنسان وحيد. وحتى لو عاش المرء في صحبة أو في أسرة، فإن قدره وحيد ومتجمد.

انقضى ربع ساعة ظلت عيناه، خلاله، مفتوحتين إلى آخرهما وهو ممدد على جنبه في الوضعية نفسها التي اتخذها وهو يتقلب - دون أن يستطيع النوم لدى اقتراب الموت.

اجتهدت نظرته كي تدخل دائرة النور العاتمة. ولكن بصره كان يظلم. كان، حالياً، أقل إبصاراً بكثير.

كان يسمع تكتكة الساعة آتية من هناك، من أقصى الغرفة. مد ذراعيه للإمساك بالرقاص. كلا! هذا يكفي، توقف الآن! وتبدد الصوت. هل صرخ حقاً؟ نعم، كان يظن ذلك. كانت، على كل حال، صرخة قد اخترقت، على عتبة الأبدية، موجهة إلى الساعة. فلتتوقف عن الثرثرة حتى اللحظة الأخيرة، فلندع كل واحد يموت خارج الزمن. ولكن ساعة نيت كانت أقوى من جسده وإرادته الخاصة لدى الاحتضار. كان الرقاص يروح ويجيء خاضعاً لترتيب خاص أقامته قرون من الثقافة، ترتيب صناعة الساعات. وكان يقوده نحو الأبدية ماراً به، إن صح هذا القول، عبر سدود، عبر تيارات متزايدة الضعف، نحو العدم، نحو حقول العجز الأبدي. شعر، دون أن يشكل سلسلة طويلة من الأفكار، أنه ليس للحياة صوت مع الموت - عند ذلك خطرت له، إنما بعد فوات الأوان بكثير، فكرة اللغز، مد ذراعيه وتمتم: يا إلهي! يا إلهي!

ثم كانت الظلمات وقسرت الروح والإرادة الجسد. كان يجب أن يقوم من بين الأموات، أن يهرب من مملكة الأموات.

يجب أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو لأنهم وجدوه مرتدياً ملابسه بصورة مبتسرة، جالساً على الكرسي الهزاز وقد زررت صدارته وسترته بصورة مغلوطة مضحكة، حافي القدمين ويعتمر قبعة سفر. كان مائلاً إلى أمام ويداه على حافة النافذة التي كانت قد بقيت مفتوحة. عندما فتحت بيتي الباب، أطار تيار هواء القبعة. وتدحرجت هذه الأخيرة، وقد علقت في زوبعة، على المنحدر وسقطت في المقلع: ذاك الذي سمي سيبريا الكبرى. أطلقت بيتي صرخة، ولكن زوجها لم يتحرك. كان المطر يسقط على شعره.

عند ذلك اشترت الخياطة ثلاثة أثواب من القماش الأسود، خمسة أمتار من الكريب الأسود، ساتان أسود وأزراراً لها شكل فحمي.

كانت السماء ما تزال تمطر، كان ذلك في شهر كانون الأول. عبر البلدة، كانت تنتشر رائحة أطعمة عيد الميلاد. كانت ترى على الطاولات، قرب النوافذ، كرات من الطحين لصنع خبز أو حلويات تختمر. كان يمكن أن يقال إنها تراب لقولبة أجساد جديدة لو كان هناك إله.

كانت تجرب، في الحانوت، أبواق مبحوحة، من صفيح أو من زجاج.

في ذات يوم، أخذت الأم الأطفال الخمسة تحت المظلات الخمس التي كانت توجد في المنزل. صعدوا الطريق الرئيسية. كانت الأم تحميهم تحت السقوف السوداء الخمسة كما لو كانوا تحت جناحي غراب. كانوا يتقدمون بصمت، ولكنهم غالباً ما كانوا ينظرون حولهم مضطربين بفعل الموت وفعل عيد الميلاد.

وسرعان ما وصلوا. ابتسمت لهم الخياطة ورحبت بهم ورجتهم أن يرتاحوا ويجلسوا. كانت، وهي تأخذ المقاييس، تبدي أسفها لكون الموت قد حل في بيتهم وأنه ضرب بمنجله العادل قبل الأعياد تماماً. وأضافت، بحكمة لا شعورية، أنه لا وقت لله. وفيما بعد، في برهة القياس انتهى بها الأمر بالصمت لكون فمها مليئاً بالدبابيس. كان من المريح أن يجد

المرء نفسه ضمن مثل هذا الصمت. جلس الأطفال وارتاحوا، وكانوا، وهم يرتاحون، يتبادلون النظرات. كان الجميع قد بكوا باستثناء مارتان وهيلدور. كانا مايزالان أصغر وأكثر أنانية من أن يفهما ما كان يفهمه الآخرون. كان يرى أنهم، خلال الليل، قد تضرعوا إلى رب السموات. كانت عينا إينيز منتفختين وأجفانها حمراء. ظلت الأم واقفة تجس القماش الأسود وتنظر إلى أطفالها، كل بدوره، بوقار كان يقول كل شيء ولا يقول شيئاً. كانت تملك صوتاً عميقاً وعذباً، ولكنه مبهم، وتعب يصعب تفسيره، كما هو الأمر دائماً، خاصة بالنسبة لأصغر الأطفال. لم يكونوا يعرفونها كثيراً، كانوا ما يزالون أقرب إليها مما ينبغي، وكانت تبعية الدم تتقدم نحو نهايتها فقط. كانت أكبر الأخوات يفهمنها، بصورة أفضل، وكن يرين الأم بصورة أوضح، دون تسامح. ولكنهن كنّ، هن أنفسهن، مختلفات فيما بينهن.

اثنتان من الكبريات كانتا قد بدأتا بالاهتمام بشأن «لياقة» الملابس. كانتا تهمسان، حولهما، بإشارات للخياطة من أجل الأشكال، وخاصة الأوراك. كانتا تمران بأيديهما على الفستان، خفية، وتدليان بنصائح سراً. ايريس وفيران هما اللتان كانتا تتصرفان بهذه الصورة. أما إينيز، فكانت قبل الأخيرة التي تقدمت. لم تكن تهتم بهذه الأمور وكان يرى، جيداً، أنها لم تأتِ عن طيب خاطر. تركت نفسها للتجربة بصورة متبلدة. ظلت واقفة. ثابتة النظرة تاركةً إياهن يلففن جسدها الهزيل بقماش كراية حداد. كانت الخياطة جاثية، منحنية على أسفل الفستان والدبابيس في فمها كزبد فولاذ علق في الجليد. كانت تتكلم، بين حين وآخر، من أنفها، بجمل متقطعة، مدلية بنصائح فيما يتعلق بالنسيج،

بالأقسام الساتانية، بالأوراك والأثداء، بما تسميه الخياطات «الأشكال». كانت الأم آخر من تقدم. تناولت، بصوت متألم ومبحوح، بالحديث وركيها، وخصرها وردفيها الشبيهين بقبتين ممتلئتين ومسقط الفستان على ربلة الساق والقدم والقماش المتموج على قبة فينوس ونهود ثدييها الثابتين في موقعهما تحت الغلالة السوداء.

كانت الخياطة تهز رأسها، بين حين وآخر، وتدلي ببعض الملاحظات. كانتا متفقتين جداً فيما بينهما. نسيتا المطر والأطفال حولهما والموت. كانتا تائهتين في غابة الترمل وملابس الحداد القاتمة.

عندما انتهت كل التجارب، عادوا إلى بيتهم تحت المطر. كانت المظلات تتأرجح كخمس رايات حداد في ضباب شبيه بدخان العرعر. كانت تصل من المقالع انفجارات كتحية من مدفع انبثق من أحشاء الأرض. كان الدرب يترنح، وكانت الشظايا تنقر على البيت الأصفر المحكوم عليه.

كان الدفن على القدر الممكن من البساطة. فنفقات ملابس الحداد أدت إلى الاقتصاد في الطعام. فلم يقدم لعمال الدفن سوى القهوة وبعض من قطع الحلوى. وقد لزمت، فضلاً عن العربة الجنائزية، ثلاث عربات للأسرة والأصدقاء والمعارف. وفي المقبرة، ظهر عدد كبير من الفضوليين، وخاصة ثرثارات - معتادات على هذه المشاهد. كانت النظرات تتملى النعش وهي تعد الأكاليل الجنائزية الثلاثة المعيارية المصنوعة بالجملة من أغصان النخيل المدهونة كحسكات سمك كبيرة ملتوية وسوداء من السخام.

كان حملة النعش الستة يتقدمون بحذر. وقد كان في تمالكهم لذواتهم في حضور هذا الحشد من الأطفال شيء من البطولة والجمال - الشيء الجميل الوحيد في هذه الجنازة.

عندما أنزل النعش إلى الحفرة، حدث زحام شديد عل حافة القبر. كان يمكن أن يقال إن عجائز شريرات وأقزاماً وعفاريت جنائزية قد نبعت من زوايا العالم الأربع. تلقى مارتان دفعة ووقع، بضجة قوية، على غطاء التابوت. وفسر الحشد، بصوت مرتفع، هذا السقوط كنذير شؤم للصبي. سمعهم مارتان، ومنذ أن نهض، هرب بعيداً عن القبر وهو يصرخ. أدركته إينيز عند باب المقبرة، ولكنه كان يتخبط، يركل هذه الأخت التي كان، مع ذلك، يحبها بصورة حية جداً وحقيقية جداً،

يضربها، يخمشها. وفي النهاية، تمكنت من السيطرة عليه ومضت به على الدرب من أجل أن لا يعود لتعكير ما كان يجري هناك، في جانب الموتى. ولكن الغضب استولى عليها، هي نفسها، وتبعت مارتان إلى البيت وقد انحازت إليه.

ثم جاءت فترة بدأ يعاني، فيها، هلوسات - يرى أشياء لا يراها الآخرون، أو بعض الحركات. كان عيد الميلاد، بالنسبة إليه، فترة شبحية. كانت إينيز هي أفضل من يفهمه. كانت تترك عملها وتتبعه إلى كل مكان. كانت هي، عندما تظهر الرؤى ويصرخ مذعوراً، من يأتي ليعزيه، وكانت تعيده معها. كانت تفسر له. فإذا كانت خيول عملاقة تعدو بسرعة بين الغيوم فهي الظلال في الستائر. لماذا هذه الأفعى السوداء التي تنزلق على الأرض؟ إنها ظل الملقط! وكانت السجادة المبرقشة التي تزحف مدغدغة ومرتعشة نحو مارتان كيرقة عملاقة انعكاساً، من خلال الزجاج، للشمس على الأرضية.

كان تفسير الأصوات التي كانت تصرخ بأكداس من الأشياء لمارتان أكثر صعوبة على إينيز. فعندما كان يبكي، كانت تلعب دورها مدعية أن ذاك كان صوتها:

- ألم تنتبه أن هذا كان صوتي أنا؟

عند ذلك كان يضحكان كلاهما.

دامت فترة «الرؤى» و «الأصوات» هذه كل الشتاء - وبالتالي حوالي ثلاثة أشهر. ذاب الثلج على سطوح المقالع المطلة على الغابة. وكان الصوان الأزرق والأرض السوداء يبدوان، تحت السطوح، كتابوت. استيقظ، في الربيع، المقلع الذي كان عمقه يبلغ ثمانين متراً. كان لحاء

أشجار السندر الفتية محززاً من جراء شظايا مزرقة، ولكن الأغصان كانت تحمر قريباً من الذروة، مطلة على الهوة ومصدرة أصواتاً عند تعرضها لريح آذار.

كان صوان القبور مرتباً كما لو كان ذلك من أجل جولة تفتيش الربيع. كان المهندس يمضي، والمظلة في يده، من كتلة إلى أخرى، من عمود إلى آخر. إنها صالحة للتصدير. كان الصوان يذهب إلى هولاندا أو ألمانيا حيث سيستمر في الحراسة في مدن الأموات.

كان المقلع يعيش من الأموات. كل شيء فيه كان موضوعاً تحت العلامة الجنائزية نفسها.

في أحد تلك الأيام، وفي حين كان جالساً قرب النافذة مع إينيز، ربتت على خده مدة أطول من المعتاد ومررت، مطولاً، يدها في شعره. بدا أنها كانت تريد أن تقول له شيئاً. نظر مارتان في عينيها، وفي نظرته، جاء سؤال جديد ينضاف إلى الألف سؤال التي أغرق بها أذنيها خلال الشتاء.

ورأت نظرته - كانت تعرف، دائماً، أن تقرأ ما في داخله. قالت له وهي تمر بيدها، مرة أخرى، على شعره:

- اعتقدُ أنه يجب على إينيز أنْ تمضي إلى السرير. وإذا قلت لك، الآن، إنه يجب أن تبقى طيلة اليوم مع ايريس فيجب أن تطيعني.

أخذت بيده واجتازا الغرفة إلى حيث لقيا ايريس. تبادلت الشقيقتان النظر وغمزة عين. ابتعدتا قليلاً عن مارتان. قالت إينيز:

- إنه، الآن، في حالة جيدة جداً. سوف تصحبينه يوم الإثنين إلى المدرسة. أمنا... كما تعلمين.. غدت غريبة جداً. و...

توقفت لترى ما إذا كان مارتان يصغي إليهما. وعندما رأت أنه

كان مشغولاً باللعب بشيء وجده - حمل من جص كان قد فقد رأسه - تابعت بصوت منخفض:

- تعلمين يا إيريس أني مريضة جداً: أعتقد أني لن أعود قادرة على النهوض أبداً.

بعد الظهر، رقدت في السرير. كانت العصافير قد بدأت تغرد في الأشجار. كانت تصغي إليها في سريرها مشكلة أمنية فوق أمنية، ثم، في لحظة معينة، أخذت تبكي بصمت في عزلتها. أوه! ماذا لو تسنى لها، مرة واحدة، ربيع حقيقي، نعم، ربيع حقيقي! ثم نامت متخلية عن زمان وجودها الواعي ومكانه لتواجه، دون قوى، الحمى التي كانت تحرق في بلد معادٍ، بلد التحلل.

ثم كان الهبوط. بدأ ما كان باقياً من روح البيت في الانطفاء كما لو كان ذلك بعصا جنية سوداء. امحت النقاط المضيئة الأخيرة وغدا القدر، منذ ذلك الحين، أكثر انسجاماً مع ذاته، أكثر سواداً.

جرت مناولة إيريس الأولى بمنتهى البساطة - بساطة كانت قد غدت ضرورية. وفي ذات يوم، عبأت حوائجها في حقيبة من القصب. وقفت عند عتبة الباب في أفضل ملابسها. تبادلت وأمها بضع كلمات بصوت منخفض.

- فلنأمل أن تستطيع المصحة قبولها قبل فوات الأوان.

ألقتا نظرة على الغرفة التي كانت ترقد فيها، إينيز. ولكن ذهن إينيز كان قد غرق في الظلمة من جراء الحمى (كان السل يعيث فساداً في المقالع عام ١٩١٠ - ١٩١١). دخلت إيريس إلى الغرفة وطبعت على جبينها قبلة وداع. ظلت بسيطة ولم تبك. ثم مضت. لم تكن إيريس قد رفعت جدائلها بشكل كعكة بحيث كانت الشرائط تلمع على قذالها، وعندما غادرت الغرفة، كان الأمر كما لو أن فراشتين كانتا تصحبانها، وداعاً، وداعاً.

رحلت إلى بوميرانيا مع فرقة من عاملات صنع السلال ولم ترجع أبداً.

كان الشباب يهربون من السل.

كان مارتان قد بدأ في الذهاب إلى المدرسة. فيران وبوديل هما اللتان كانتا تهتمان به منذ ذلك الحين. كانت كلتاهما ترتادان المدرسة منذ زمن طويل، وكانت فيران قريبة من الانتهاء منها. كانتا تحيطان بمارتان على درب المدرسة في الصبيحة الربيعية. كانتا تسألانه ضاحكتين:

- هل تعرف أبجديتك، أ، ب، ت، ث؟

كان يقول مزهواً كلياً:

ج، ح، خ، د.

كان يعرفها بالتأكيد.

بقيت هيلدور ونيني في البيت مع أمهما، ولكن أمهما لم تعد كما كانت قبلاً. لم يكن في إمكان أحد أن يقول ماذا كان الأمر في الصميم. ولكن اليد التي كانت تخرب امتدت، منذ ذلك الحين، إلى كل شيء. ربما كان الأمر يدور حول قلق مرضي، حول شجن لم يكن يستطيع أن ينفذ إلى الخارج وكان، على العكس من ذلك، ينزع إلى إلغاء كل شيء. أو ربما كانت ضحية دمها الحامي إلى حد مفرط في تلك الليلة من نيسان حين نهضت وعقدت مشدها وفتحت علبة مسحوق التجميل.

ظلت جالسة أمام مرآتها كالملكة الشريرة، ملكة السقوط. كان وجهها مايزال جميلاً، ولم يكن يمكن رؤية التجاعيد. ولكن هذا الدم الحامي أكثر مما ينبغي... ما من أحد عرف ما فكرت، فيه، حقاً.

مضى قطار الصباح منذ الساعة الرابعة والنصف. استيقظت إينيز وسمعته. كانت المقطورات المتأرجحة تجتاز الغابة المبعثرة وهي تصدر ضجة حديد. كانت نوافذها المائة تمضي في شغف الربيع، تلمع حتى في البيوت.

بعد هرب الأم بيتي الذي لم يكن قابلاً للتفسير، استعادت إينيز قواها لبضعة أيام. أو لعل ذلك كان تأثيراً للإرادة، الإرادة الأخيرة في نفس فتاة في السادسة عشرة - إرادة الحفاظ على شيء من الكرامة. كانت الكارثة قد حلت بالمنزل بصورة باعثة على الاضطراب: لقد أصابه الوهن وغدا بشعاً، وكانت أوراق يابسة تكسو أرضه كما لو كانت نبتة دون زهر.

ربما كانت إينيز، الساذجة والنحيلة والتي تتحرك بخطا عجوز صغيرة مترنحة، قد أرادت أن تصون حياة الأسرة الداخلية من نظرات الجيران. ولكنها كانت تقاتل كشبح ضد أشباح.

وهذه الأيام الربيعية هي التي ماتت، هي نفسها، خلالها. قتلها السل بأفضل ضرباته تسديداً: النزيف الصاعق.

ركضوا عبر المنزل صارخين حول جثتها.

- قولي لنا، قولي لنا إنك لست ميتة!

- ماما! إينيز!

ولكن إينيز ظلت ساكنة ولم تكن تعرف أنها ماتت. لم تكن تعلم أنها قد عاشت.

اهتم أحد أقارب الأم بهم بعض الوقت. كان زمناً مظلماً ترك القليل من الذكريات، زمناً خارج الزمن.

ثم وضعوا في المزاد، أي عهد بهم إلى الذين أرادوهم حقاً والذين لم

يكونوا يطلبون من البلدية، مقابل ذلك، سوى أقل المخصصات. جرى التخلي عن مارتان لمزرعة تسمى فيلناس. سوف تدفع البلدية خمسة كورونات شهريا ، والتزم أصحاب المزرعة، مقابل هذا المبلغ، بتأمين غذائه وكسوته وتربيته، وجعله يذهب إلى المدرسة وتشغيله والسهر على مصيره حتى الاجتماع السنوي المقبل.

أعطته البلدية صرة مزينة بالأزهار كانت تحتوي على جوارب صوف وخفين وقطعة صابون. دلته نفوس محسنة على درب كان يغوص في الغابات.

وبما أنه كان خائفاً من كل الناس، وخاصة من البلدية - التي كان قد تصورها ككائن مخيف - فلم يكن صعباً أن يختفي على الطريق. وسرعان ما انغلقت أشجار الصنوبر عليه وانطفأ صوت خفّيه الخشبيين في هدير الريح.

أرسل الأطفال الآخرون إلى اتجاهات أخرى وكل منهم مزوّد بصرة.

من مزرعة إلى أخرى

إلى فيلناس، إلى فيلناس. كان دونها عشرة كيلو مترات مشياً على الأقدام تقريباً. كانت الغابة الأميرية تفتح له، بقدر ما كان يتقدم، شقوقها الصنوبرية القاتمة ثم تعود إلى انغلاقها عليه. كان الدرب الذي يتبعه مغطى بجذور تلمع كالنحاس الذي أتي على صقله تحت تأثير انزلاق الأقدام وسقوط الإبر وحركات أكوام الثلج. لم يكن الثلج قد هطل وكانت الأرض، في شباط، أكثر جفافاً منها في أيار. ولم تكن السماء تمطر كذلك. كان شتاءً مثالياً. كانت شمس مرحة تنير الغابة بفانوسها صباحاً وتأخذه معها مساء. كانت كتل الصوان تروق للطحلب الأخضر، وكان الطحلب الأبيض، على ضفة المستنقع المنحدر انحداراً خفيفاً، مسروراً بحياته المبقبقة التي كانت الشمس تنيرها. وكانت فطور تنمو على الأرومات، بعضها فوق بعض، كسلم لعفاريت الغابة التي تذكرها الأساطير. كان مارتان يبكي وهو يمشي. نسي سبب بكائه على مر السنين، ولكن الصنوبر كان في حداد، وكان المستنقع صامتاً دون أي عصفور وكان هناك، أخيراً، شيء في العالم لن يعود. كان ينظر إلى صرته المزهرة، ولكن ذلك دون فرح. لم يكن هناك سوى جوارب ومناديل وشالٍ صوفي وخفين وقطعة صابون. كل هذه الأشياء المفيدة للجسم لم تكن تعنيه أبداً. لم يكن واعياً لامتلاكه جسداً. لم يكن سوى طفل بأسنان لبنية ينتعل خفين خشبيين، لا مبالٍ في أساه كما في فرحه،

ولكنه كان، مع ذلك، يخشى المصائد والنار، يخشى أن يطعنه متشرد. كان، في العالم، متشردون. كانت الجريدة تتحدث عنهم. يسكنون بيوتاً كبيرة ويعتمرون قبعات ولديهم مدي. يمكن أن يظهروا في الغابة في أية لحظة. كانوا يصرحون بأنهم يريدون خمسة وعشرين أوراً ويطعنونك بالسكين. انقطع مارتان عن البكاء. كان الخوف يعتصره ويأمره بأن يتربص بأذنيه كي يستطيع أن يغادر الدرب، فجأة، ويهرب بين الصنوبر. كان ينبغي أن ينتبه إلى عدم الصراخ، وأن يركض بصمت ويميل إلى اتجاه، أحياناً، وإلى الآخر أحياناً أخرى. كان مارتان يقول في نفسه، أيضاً، أنه لو كان معه خمسة وعشرون أوراً، فقد كان من شأنه أن يلقي بها في اتجاه المتشرد، ولكن ذلك مع الانتباه جيداً إلى عدم ضربه بالقطع، ثم كان سيصرخ قائلاً: «أيها المتشرد اللطيف! هذه هي الأورات الخمسة والعشرون». ولكن هذا لم يجد فتيلاً. فلا يمكن للمرء أن يثق بشيء، ولاشك في أن المتشرد سيقترب، مع ذلك، بسكينه. سوف يظن، بالتأكيد، أن هناك خمسة وعشرين أوراً أخرى له.

كان لكل المتشردين شوارب. وعندما لايكون هناك للذين يلقاهم المرء على دربهم شوارب، فإنه لا موجب إذ ذاك، للهرب، فهم ليسوا خطرين. أما الذين في وجوههم شوارب، فقد كان معهم سكاكين يطعنونك بها في ظهرك وعنقك.

الذين ليس في وجوههم شوارب كانوا يحملون أمواساً. كانوا يبرون بها أقلاماً وصفارات، وهم يتحدثون إليك، وينحتون قطعة خشبية. كل المتشردين يملكون مدى لا تنطوي.

كان رجال الدرك، أيضاً، خطرين لأنهم يعرفون أشياء كثيرة، ولكن

مارتان كان قد سمع أنهم كانوا يأسرون المتشردين، أحياناً، في مطاردة، وهذا هو الاسم الذي كان يستخدم، وكانوا، إذ ذاك، يقطّعون المتشردين بسيف. كان يمكن الاقتراب من الدرك. كانوا خطرين وأقوياء. ولكن ماذا لو لم يروك؟ وعندما يكونون مشغولين بالقتال، كانوا يقطّعون أجساد الناس بسيوفهم. وكان مارتان قد رأى دركياً مرة.

نظر الدركي إليه وتقدم نحوه. وعند ذلك، تشبث مارتان بأقرب تنورة إليه وأخذ يصرخ. ربما كان رجال الدرك يريدون خمسة وعشرين أوراً، هم أيضاً.

لو امتلك مرة خمسة وعشرين أوراً، فسوف يرسلها إلى «بيت المتشردين». ويكتب على ورقة: «أيها المتشردون الأعزاء، إني أعطيكم خمسة وعشرين أوراً إذا لم تأتوا إلى الغابات، إني أدعى مارتان».

كان يعني بذلك الغابة التي كان يسير فيها، غابة هاراسجو الأميرية. الأمكنة الأخرى هي العالم. ما وراء قرية فيمسجو كان العالم. في مكان آخر، لا يعرف أين هو، كان المحيط، المحيط الأطلسي. كان بحراً كبيراً فيه «أمواج كبيوت». عندما يذهب الناس في سفينة على الأطلسي، ويذهبون بعيداً، خلال زمن طويل، تكون هذه أمريكا. على الأطلسي خط مستقيم وأبيض، كان هناك ولم يعد يختفي، يسمى الخط البحري للنجمة البيضاء. السفن ملزمة بمتابعته وإلا فإنها لم تكن لتصل إلى هدفها. في أمريكا موضعان يسمى أحدهما مينيسوتا والآخر كارليفونيا، والجو حار في كارليفونيا. هناك تنبت سكريات عيد الميلاد. هناك، أيضاً، مكان يدعى تشيكاغو، وهناك كان يوجد العميل الذي كان خائناً رقيقاً أبيض تماماً على اعتبار أنه كان يتاجر بالبيض. وكان

جالساً على كرسي كان كهربائياً. وغير بعيد عن تشيكاغو، يوجد ذهب. من يجد ذهباً كان مرغماً على غسله في نهر.. كان مثل نهر بابل في مدرسة الأحد الذي طهره دم الحمل، يسوع الناصري. لقد ولدت طفلاً لفته ووضعته في مهد. كانت هناك صورة أصغر تمثل الخط البحري للنجمة البيضاء، كانت صورة باخرة. كانت باخرة تنفث دخاناً تسير في وسط خط النجمة البيضاء، «بين السماء والماء»، هذا ما كان يقال.

ذلك كان عالم مارتان في عمر السبع سنوات، عندما دخل إلى المدرسة الابتدائية. إنه عالم كان أوسع بكثير عندما بلغ السنة الخامسة. فقد تقلص لسوء الحظ. قال في نفسه عندما كبر بضع سنوات، وهو يفكر في سنوات طفولته الأولى، إنه كان في السابعة من عمره أغبى مما كان عليه في الخامسة وأكثر جبناً خاصة، أكثر جبناً بصورة لا متناهية.

عندما وصل، في عمر السابعة، إلى فيلناس، تعرف، أولاً، على كلب هرع إلى البوابة وأخذ ينبح. عند ذلك، ترك مارتان المزلاج ولم يجرؤ على فتح البوابة. في داخل المنزل، أزيحت الستائر وميّز مارتان على النافذة ثلاثة وجوه. ثم فتح باب وانتعل أحدهم قبقاباً كان يفرقع. كانت تلك بنتاً أطول من مارتان بمرتين. جاءت إلى البوابة وأسكتت الكلب الذي ابتعد محزوناً. ثم فتحت البوابة. قالت:

– أأنت مارتان؟ كم أنت صغير!

وأخذت تضحك. كان لديها بقاع نمش وجديلتان سوداوان مشقرتان تنحدران حتى خصرها، جديلتان كثيفتان مصنوعتان من ثلاث ضفائر متصالبة. كان أنفها يتخذ شكل بوق إلى حد ما، وكانت لها شفتان كثيفتان وعينان كبيرتان قاتمتان، وليستا سوداوين.

فأفأ مارتان وقد حلت به الرهبة. كان ينظر إلى البنت، ولكنه ظل لا يجرؤ على الدخول. كان يود أن يقول: أبي ميت وأمي في كارليفونيا ». ولكنه لم يقلها لأن الكلب كان يتشممه. صرخت قائلة:

- ما هذا يا عديمة النفع؟ أتريدين أن تذهبي إلى بيتك؟

ثم قالت لمارتان:

- هيا ادخل! هيا ادخل!

كان مقدراً على مارتان أن يسمع، طيلة حياته هذه الصرخة: هيا ادخل! هيا ادخل! كما يسمع جرس. دخل وأغلقت البنت البوابة، قالت:

- اعطني صرتك. أنا أدعى بيرتا. إني هنا منذ عمر الثالثة وعمري الآن، أربع عشرة سنة. إنهم لطفاء هنا!

سأل مارتان الذي بدأ يشعر بالمزيد من الاطمئنان:

- ماذا يدعى الكلب؟

- لونا، إنها كلبة. تسرق البيض أحياناً ولكنها، إذ ذاك، تتلقى علقة ساخنة، صدقني.

ارتعش مارتان. كان يتمنى أن يركض إلى البوابة. كان خائفاً ولا يدري لماذا. كان يرى عصا لا تتوقف عن ضرب الحيوانات والناس. كان يرى الضربات تنهال مدراراً، تحيل لحمك إلى مزق. كان يرى العلقة. سألته بيرتا قائلة:

- ما بك؟ أخائف أنت إلى هذا الحد من لونا؟ ستتفاهمان جيداً، سوف ترى. قال:

- أبي ميت وأمي في كارليفونيا.

كان هذا أسوأ ما جرى له - كانوا قد جعلوه يعتقد أنه كان الأسوأ،

لذلك كان يقول هذا في هذه اللحظة. ولكن بيرتا وضعت يدها على كتفه قائلة:

- نعرف كل شيء عن أبيك وأمك، لكنك لا تحتاج لأن تخاف هنا، في فيلناس. لقد ضربوني مرة واحدة وأنا، الآن، ابنة المنزل.

كانا على عتبة الباب. فتحت وخلعا خفيهما ثم دخلا.

دفعت به أمامها. كانت تتباهى، مزهوة تماماً كما لو كانت قد وجدته قرب نبع.

قال الأب والأم بالتبني، معاً، من داخل الغرفة.

- أهلاً بك!

قالت بيرتا مشيرة إلى المرأة التي كانت تبتسم كاشفة عن فم بلا أسنان:

- هذه هانا، ربة المنزل.

كانت تضع يديها على بطنها، يدين كثيرتي العقد ومغطاتين بالعروق. كان شعرها أسود، ضعيفاً كلبادة عتيقة. وكان في منتصفه خط رمادي مغطى بالقشرة. وكان الأنف الكبير يشكل جزءاً مهماً من الجمجمة. كانت الكآبة تسكن روحها، وكان ذلك يرى على اليدين اللتين كانت تدعهما تستريحان على سرتها المخبوءة تحت نسيج ثوبها التعب. كانت وزرة مقلمة تشد على وسطها وتزرد أسفل الجسم الذي كانت تحتوي عليه التنورة. كان أسفل الوزرة ينتهي بلون فلاحي ضاحك ومدغدغ. كانت تتمايل كما لو كانت توشك أن تنحني، وكانت تبتسم لمارتان. قالت بيرتا:

- وهذا هو سفن، رب المنزل.

كان مارتان ما يزال أمام بيرتا كما لو كان لها نوعاً ما. كانت قد وضعت يديها على كتفيه. ابتسم سفن ومد يده لمارتان، يداً يابسة كالقرميد، حارة كالصوف، يداً بأصابع كثيفة وعريضة. مدت له هانا، أيضاً، يدها - يداً كانت تتعرق من قلق قديم. كانت الأظافر تلمع كبياض العينين. قال الرجل:

- أهلاً بك في بيتنا. تعال واجلس.

عبر مارتان الحجرة على السجادات المقلمة التي كانت تبدو كأنها تستطيل بوزرة هانا على صورة ذيل. كان يقف متربصاً، صغيراً تماماً، وسط الدكة، وكان الآخرون وقوفاً حوله ينظرون إليه وهو جالس.

قالت هانا:

- ستعتاد علينا سريعاً، وهذه الدكة ستكون سريرك أيضاً.

كانوا واقفين هناك، أمامه كما لو كانوا ينظرون كيف كان على هذه الدكة. ثم تقدم سفن وجلس عليها بدوره. جلس بتحفظ ولطف، كان ردفاه يريدان أن يجلسا بتحفظ بالغ، بلطف بالغ كما لو كان ذلك من أجل تجنب الإخافة وقال:

- هو ذا صبي صغير.

وكان ينظر إلى مارتان بابتسامة عريضة.

مر بيده على شاربيه السوداوين الطويلين وابتسم من جديد.

كان مارتان جالساً وهو متشنج تماماً. كان يبتسم، هو أيضاً، ولكن من الخوف. كان الخوف مستولياً عليه في رأسه وفي بطنه. هل سيموت في هذه اللحظة؟ كان جرس الكنيسة يقرع فيه، في بطنه. كان يجب أن يبتسم، أن يبقى ساكناً تماماً. آه لو كان معه خمسة وعشرون أوراً! ربما

كان سفن متشرد غابات جاء ليأسر بيرتا وهانا ويسجنهما.

تحرك الشاربان. ابتسم سفن من جديد، ثم وضع يده بلطف على كتف مارتان. أطلق مارتان صرخة سرعان ما احتواها. لم يكن يجرؤ على الخوف. كان الخوف يقطع صرخته، يشد خناقه ويجبره على الصمت. ظل جالساً، صامتاً ومشلولاً من الخوف وكان يبتسم للفلاح. سحب سفن يده نصف متنهد ونصف مبتسم. كان يبدو متفاجئاً، حائراً. خطت هانا بضع خطوات إلى الأمام كما لو كانت تخشى أن تفلت صرخة أخرى من مارتان. رفعت يدها عن بطنها. كان للوزرة شكل تلة. إذا كانت المزرعة صغيرة، فقد كانت هي ضخمة.

تقدمت بيرتا وانضمت إلى هانا. امرأتان - إلا أنه لم يكن تجاههما رجلان. هناك، فقط، فلاح أخرق وحسن النية وعقدة القلق هذه التي لم تكن، بعد، صبياً.

اختار الصمت بيرتا. كان عليها، هي أن تتكلم. تقدمت خطوتين على السجادة. رفعت إحدى جديلتيها الكثيفتين السوداوين المشقرتين وأخذت تروزها كانطلاقة لمباحثات. رأى مارتان على يدها إبزيم الجديلة. أمتعه ذلك وأسره وتربص كقط.. صنعت بيرتا بطرف الجديلة قوقعة شعر كبيرة، رفعتها على راحة يدها كمعجنات شعر

- هيا، إذن، يا مارتان! لا ينبغي أن تخاف.

أصغى إلى هذا الصوت. كان عذباً، مهدهداً ومقنعاً، كما على البوابة: هيا ادخل! هيا ادخل! كانت بيرتا ماتزال تمسك بقوقعة الشعر في يدها. قالت:

- نحن قوم طيبون.

وبصوتها سمع مارتان، الآن، أنهم قوم طيبون. تجرأ على تحريك يديه ولمس الدكة بأطراف أصابعه، وتجرأ على أن يدير رأسه وينظر إلى رسم ورق الجدران: ثلاثة صيصان تحت شجرة نخيل، ومسته مساً خفيفاً فكرة هي أنه ربما كان الفلاح، بعد كل شيء، رجلاً طيباً.

خفض عينيه فجأة واستغرق في شق في الأرضية تابعته نظرته حتى النقطة التي ضاع، فيها، تحت السجادة. عند ذلك رفع رأسه ولم تعد عيناه خائفتين. نظر إلى ثلاثتهم - وضحك.

تلك كانت، إذن، فيلناس. كانت شجرة قبقب تنمو في الباحة. اعتادت عليه الكلبة وجعلته بيرتا يزور الأمكنة ويرى كتلاً صخرية وأشجاراً غريبة. حاول سماع الصدى الذي كان يعكسه مرتفع قريب جداً. كان يخطر له، أحياناً، أنه وحيد في العالم: «أبي ميت وأمي في كارليفونيا» ولكن بيرتا كانت هناك، وكانت تمسح دموعه وتمخطه. ذات يوم، شعر أن هذا «لم يكن جيداً»، وأراد أن يتمخط بنفسه، فأبعد يد بيرتا ضارباً إياها. عند ذلك خبأت رأسها بين يديها وراحت تميل من اليمين إلى الشمال وتظاهرت بالبكاء. ظل برهة ساكناً ينظر إليها، ثم تقدم وربت على ظهرها. وسرعان ما رفعت يديها عن وجهها وضحكت. عند ذلك وجد أنها خدعته بصورة فظة، فألقى حجراً صغيراً في اتجاهها. تظاهرت بالألم وراحت تئن. عند ذلك، صدق دموعها حقاً وراح يبكي بدوره. وجاء دورها لتعزيته.

مع مرور الأيام، علمته أشياء مختلفة، وتوسعت آفاقه من جراء ذلك، وكان «يفكر». كانا يلعبان على ضفة البحيرة عند ذلك، حاولت أن تفسر له المد والجزر قالت:

- إنهما موجودان في البحر، في المحيط الأطلسي. قال:

- هناك، حيث يوجد الخط الأبيض، خط النجمة البيضاء؟

قالت وهي تجلس على أرومة:

- القمر هو الذي يصنع المد والجزر. القمر يجتذب الماء، والماء يغادر الأرض، لا يعود يوجد منه سوى ما هو في القاع. يمكن التقاط أصداف ونجوم صغيرة تزحف تسمى نجوم البحر. أحياناً، تكون هناك سفينة غارقة واقفة على قاع البحر. الناس يخرجون من السفينة، ويكونون سعداء بسبب الجزر. كانوا قد ظلوا في السفينة ينظرون. تقدم لهم القهوة في المنارة ويرتلون نشيداً لأنهم نجوا. وفي البرهة التي ينشدون، فيها، بالضبط، يرخي القمر قبضته، كما يجري عندما يقبل المرء لوحاً زجاجياً ثم يسحب شفتيه، إن هذا يحدث صوتاً لأن الزجاج يكون قد التصق بالفم قليلاً (قدمت بيرتا بياناً عن القبلة على الزجاج مقبلة مارتان على وجهه). ايه حسناً! هذا ما يفعله القمر عندما يترك الماء.. القمر يرتعش والماء يسقط على الأرض. الأصداف تمتلئ ماء، والماء يرتفع عالياً، عالياً. في هولندا، يبنون سدوداً عالية، عالية (بينت ذلك بحركة من يدها) من أجل أن لا يصل الماء إلى الشعير. نعم، هناك أشياء كثيرة في العالم.

- للحرف B بطنان

وضحك كلاهما لأنهما كانا في العمر الذي يسلي، فيه، أدنى الأشياء.

كان مارتان يعرف، كل مساء، أكداساً من الأمور. في فيلناس، يضاء المصباح متأخراً، ولذلك، كان سفن يتكلم في الغسق وهانا جالسة على كرسيها، تتأرجح من الشمال إلى اليمين، ومن اليمين إلى الشمال. كان سفن يؤمن بالأقزام - لأننا بعيدون عن كل شيء في هذه المنطقة، في جزيرة خرافات، مع المدنية التي تتقدم حولها - وكانت هانا تؤمن بهم

أيضاً. ولم تكن بيرتا تؤمن بوجود الأقزام إلا نصف إيمان، وفي بعض الأمسيات، كانت تستبعد فكرتهم تماماً قائلة: لم يعد هناك، بالتأكيد، أقزام، ربما كان هناك أقزام في أزمنة الأزمنة.

سلم سفن بأنهم أصبحوا أكثر ندرة، وفضلاً عن ذلك يتنكرون، يتحولون. ويروي سفن كيف جاء إليه قزمان، ذات مرة، وهو يحرث التربة. كان يخيل للمرء أنهما امرأتان جميلتان جمالاً مذهلاً وكانت معهما دراجتان تتظاهران بأن شيئاً لم يحدث. كانت المرأتان تتكلمان أنقى سويدية يمكن تخيلها، أجمل التعابير.

لم يكن مارتان يؤمن بذلك سوى نصف إيمان، مثل بيرتا. كان يثق ببيرتا. فمعها، كان يحس بالطمأنينة، بحرارة حقيقية. عندما كانت تشك تماماً، كان الأمر هو نفسه معه. كانت هناك أمسيات تجري الأمور، فيها، كما لو أن الأقزام غير موجودين أبداً. كانت الكلبة لونا قد سرقت بيضاً من جديد، وذاقت طعم عصا شجرة جوز هانا. كانت لونا تبقى مختبئة في مكان ما في الملحقات، ولم تكن تجرؤ على الظهور. قالت هانا:

- إذا كررت ذلك مرة أخرى، فيجب قتلها، هناك حد لكل شيء.

قال سفن:

- نعم، إذا عاودت، تكون هناك طلقة بندقية جيدة.

بعد ذلك بكثير، كان لدى مارتان، وهو يستعيد ذكريات هذه السنوات من طفولته التي كان، فيها، ربيب البلدية، كان لديه الانطباع بأنه عاش فترة كان فيها في حالة استماع. لم يكن يتذكر أبداً أنه قال شيئاً هو نفسه. وبالمقابل، كان، بعد ذلك بقليل، يسمّع في المدرسة

دروسه بكثير من البراعة، عن ظهر قلب دون أن يخطئ في فاصلة. لم يحس، قط، بالعداء حيال دروسه. كان مختلف المعلمين والمعلمات في المدارس العديدة التي ارتادها طيلة طفولته الجوالة يقدمونه، دائماً، مثلاً. كان الصخرة الراسخة والمطيعة التي كانت تسمّع دروسها بصورة لا غبار عليها، وكان المعلمون يصنعون منه نموذجاً: انظروا إليه. وكان الأطفال ينظرون إليه. وكان معظمهم يكرهه.

كان، هو نفسه، غالباً ما يحس بعدم الارتياح عندما يتبين أن الدرس كان يجري من شفتيه كالكتاب تماماً. كان يود أن يكون تلميذاً أقل جودة، تضامناً مع الآخرين. ولكنه كان يطيع الدرس. كان خادمه الصغير.

لم يكن يجري شيء كثير في فيلناس. كان العمل في النهار والمحادثة في المساء. كان سفن وهانا وبيرتا يتدبرون أمورهم، والحياة كانت تقوم، خاصة، على هذه الواقعة نفسها - كونهم يتدبرون أمورهم. منذ ذلك الحين، كان هناك، أيضاً، مارتان.

كانوا يتحدثون عن حيواناتهم، عن البقر. كانت لديهم بقرتان وعنزة. كان لكل منهم حيوانه المفضل. كانوا، بصورة مشتركة، يعبدون الجواد. كانوا أناساً محدودين ولطفاء، يؤمنون بالخرافات. لم يكن لديهم شيء كبير سوى شجرة القبقب الهائلة التي كانت أوراقها تهتز في الريح.

صحيح أنه كان لديهم الله أيضاً. كانوا يؤمنون بالله دون طرح أسئلة بخصوصه. كان موجوداً. ولكن الأمر كان، فيما يتعلق به، كما بالنسبة للأقزام أحياناً. لم يكن موجوداً وجوداً قوياً جداً.

ولتبديد بعض النقاط السوداء في ضميرهم، كانوا يبدون لطفاء مع المتشردين والأغراب النادرين، مع ذلك، في هذه المنطقة. كانوا يستقبلون استقبالاً ودياً بائعين جوالين كانا، بفواصل منتظمة، يزوران مزارع أراضي الخلنج. وفيلناس كانت على أرض خلنج.

أحد هذين الجوالين كان يأتي من فاستر غونيلا. كان يسمى المبهرج. كان يأتي في الخريف والربيع. كان كل الناس يحبونه جداً. كان مروره كنور صغير، وكانت نكاته تبدد هموم الناس. كان لديه للجميع كل أنواع الضحكات. كان يسحب من تحت قبعته حكايات لاتحصى، من كل الألوان، ملفقة وغير صادقة تماماً، بذاءات للخدم، بعض الهذر الذي يدغدغ البنات في الصيف، دعابات للفلاحات الحوامل اللواتي لا يستحين. كان المبهرج للجميع. كان يبدو حزيناً إذا أداروا له ظهورهم. لم يكن لديه ما يرويه لنفسه. «ليست الحياة موجودة كي نغتم»: هذا ما كان معتاداً على قوله، شعاره، جملة البداية وجملة النهاية.

كان يبيع أقمشة مقلمة أو مزهرة. كان ينشر على الأرض أثواب أقمشته، وكان ذلك، إلى حد ما، طريقة لبعث الخجل في سجادات المكان. كانت لديه أدوات زينة رخيصة وقطع قماش مدغدغة كأذيال الطواويس وقطع نسيج مثل الحقول المزهرة. كان يبيع أصنافاً متنوعة: دانتيلات محتشمة مكرسة لسراويل المسنات، أربطة سيقان مبقعة كالفهود مكرسة لأفخاذ الخادمات البيضاء. كان المبهرج. كان يوفر لممثلي لعبة الحياة ما كان في مقدوره: مفرقعات للكوميديا وسكاكين للدراما.

كان هناك، أيضاً، بائع سلال. كانوا يسمونه «اطلب دائماً». في كل مرة يظهر فيها، كان يقول:

ماذا يا أرنبي؟
كان ذلك يعني: أتريد سلالاً صغيرة، لطيفة جداً وكبيرة متينة حقاً؟
كانت هناك، إذا قيل له لا، لازمة أخرى: ايه حسناً يا مهرجي!
اطلب دائماً!

كانت تلك طريقته في التصرف، ولم يكن أحد يستاء منه، لم يكن يخيف أحداً. عندما كان يصل مع السلال الصفراء المصنوعة من شرائح خشب منحوتة جيداً كان يعلقها حول جسمه من الكتفين إلى الركبتين، كان يبدو مثل عنقود. أرض الخلنج البراح هي التي كان يرى، فيها، أفضل ما يرى، وهو يبرز على خلفية عشب الهضاب القاتم مع معروضاته من السلال، يتقدم على الدروب ويلمع بكل أصنافه كتجسيد للحماسة الحرفية والبؤس. كان، بين حين وآخر، يدع بضع سلال تقع على الأرض. كان يعبد موسم العناب. كان يبيع فيه. كان يعبد الآس والعناب، وخاصة العناب - عندما يكون وفيراً.

كان، في الشتاء، يبقى في بيته في لجونغتافان، يصنع قباقيب (كان يصنع السلال في الربيع)، قباقيب حمراء من خشب المغث كان يحفرها مثل حبات البطيخ. كانت تشبه القوارب الفقيرة التي تقوم على الأنهار الصينية وتستخدم مساكن. وكان، مقابل عشرة أورات إضافية، يثبت على عنق القدم عصابة من صفيح. اطلب دائماً. هل تريد أم لا تريد؟ كان يسكن كوخاً فقيراً في وهاد هضبة خلنج، مثل واحدة من هذه العلب التي تحتوي، في المعارض، على طالعك.

كانت زوجته تسمى كارين الزرقاء. كانت رديئة كالبَرَد، وكان قلبها ذاوياً كحبة عناب حامضة. فكانت أسعد برهة في حياة «اطلب الآن»

هي تلك التي كان يستطيع، فيها، أن ينشغل بسلاله في القرى. كان يمضي، في الصيف، حتى هالاند وكالاند. كانت، بالنسبة إليه وإلى كارين، مسافة هائلة. لقد وصلا إلى بومرانيا في الماضي، كان ذلك صحيحاً حقاً، لتعلم صنع السلال. ولكن بومرانيا كانت على حدة، كانت بلد عملهما. كان يعدان فاكسجو نهاية العالم.

أما بالنسبة لمدينة ستوكهولم، فكانا يكادان أن لا يتجاسرا على التفكير فيها. أمريكا، نفسها، الخط البحري للنجمة البيضاء معلقة على جدران بيتهما. وكانت على الصورة باخرة هائلة، التوتونيك، تدخل ميناء نيويورك تماماً كما لو كانت تريد أن تختبئ تحت تنورة عذراء الحرية التي كانت تنتظرها، وفي يدها مشعل لتصعد بها النهر الهندي. وكانت صورة أخرى تظهر التوتونيك على المحيط. كانت سفينة تشبه عملاقاً، وكان البحر يبدو صغيراً ومسطحاً، وكان، فيه، قليل من الماء، فقط، رعشة ماء خفيفة لم تكن تخيف. كان خط النجمة البيضاء يعلم أنه لا ينبغي إخافة الفتيات بإظهار موجات مفرطة الارتفاع، وإلا ربما بقين في البيت. كان يجب ترويض البحر، أن يحافظ على الهدوء. إذا كان الأمر يدور حول اجتذاب الخادمات الصبايا اللواتي كن يستحممن عاريات في بحيرة روم من أجل أن يذهبن إلى بلد تجارة الرقيق الأبيض والمورمون، فيجب أن تظهر الصورة بحراً لطيفاً ومريحاً للمهاجرين. كانت الألسنة الخبيثة تقول إن الفتيات اللواتي كن يخرجن من حمام كسلهن ويرشرشن ماء الكولونيا على أجسادهن كن جاهزات لليوتاه وللحريم. لم يكن أحد يفلت من الألسنة الخبيثة.

في فيلناس، كانت هانا قانطة. فها هو قد هرب، كما فعل يوم دفن أولاف، ولكنهم لم يكونوا يعرفون هذه القصة. مضى إلى العالم الواسع يبحث عن «بيتي الكبيرة» في كارليفونيا.

كانت بيرتا تصرخ في فيلناس: مارتان! مارتان! ولكنه كان قد رحل وكانت تبكي على البوابة.

مضى مارتان طويلاً عبر الغابة، ولكنه، عندما حل الغسق، أخذ يبكي أمام الليل الهائل بكل نجومه التي كانت تغمز فوقه، كحيوانات سماوية، تنينات مبقعة.

في منتصف الليل، تملكه الخوف. دخل، صارخاً، أول مزرعة رآها:

بابا! ماما!

ماما! ماما!

عند ذلك، قفز كلب مدرب خارج بيته وقلبه على ظهره. في السماء، تطاير القمر شظايا كطبق من خزف. كل شيء كان أسود. أغمي عليه. خرج فلاح مسعف وأخذه بين ذراعيه وحمله إلى المنزل.سقي عصير الليمون. قال الفلاح:

– اسمي بيرغ. أليس لك بيت؟

أنّ الصبي قائلاً:

– كلا، كلا. أمي في كارليفونيا. لا تريد أن تعود، تعـ... و...

ضحك الفلاح بلطف.

- آه! أنت تعني بيتي، آه! أنت ذلك الغلام... (أخذ يمثل كما لو كان يندب الحظ هو نفسه). إيه نعم! إيه نعم! إيه نعم! لقد رحلت، إيه نعم... سوف نكتب إليها.. سوف نكتب إليها.. يجب أن تأتي، يجب أن تأتي، (كان الفلاح يتمايل بكل جسده من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال). أوه! أوه! أوه! كم نحن حزانى جميعاً. نحن حزينون، نعم. ولكننا سوف نوبخها، أنت تعلم، سوف نقول لها إنها لا تستطيع التصرف هكذا حيال صبيها الصغير. أوه كلا! أوه كلا!

وصدق مارتان، في الليل الكبير الشرير، هذا الممثل الكبير، وأنامه الفلاح ذو القلب الكبير الذي لم يكن لديه، هو نفسه، أطفال على دكة، دكة أخرى أيضاً في العالم الواسع، لأن مارتان كان قد نام بين ذراعيه.

ولكنه، في الصباح التالي، اختفى من جديد في اتجاه كارليفونيا. لم يستطع أحد إيقافه. كان سوف يثابر حتى لو تجمع كل ممثلي العالم كظلال على الأرض البراح لتعزيته. كان يريد أن يصل إلى بلد كارليفونيا.

وفي هذه المرة، حدث أنه، من أجل بلوغ بلد كارليفونيا البعيد، سلك الدرب الخاطئ. ركض كل الصباح وكل بعد الظهر مستريحاً، أحياناً، على حجارة. وعلى الرغم من هذا، سمع، عندما حل المساء، صوت بيرتا:

- مارتان! مارتان! يا صغيري مارتان! يا صغيري مارتان!

- تعال، تعال، كن لطيفاً!

- تعال، تعال، كن لطيفاً!

عند ذلك، مضى إليها، كفَّ عن البكاء، أصبح «لطيفاً» هرع إليها مستجيباً لصرختها التي امتزجت، فيها، دموعه. مدت ذراعيها كدوارة تتفتح على العالم. وارتمى في ذراعيها اللتين كانتا في نحول ذراعي إينيز كما لو كان في كارليفونيا.

- يا إلهي، يا صغيري! هيا لتأكل!

كانت فيلناس مزرعة فقيرة لفلاح صغير جداً، ولكن قطعة من الجنة كانت، على الرغم من كل شيء، ملحقة بها. كانت هانا تملك حديقة أو، كما كان يقال في المنطقة، مسورة نباتات. كانت محاطة بسياج يرتفع متراً ونصف المتر، عمره حوالي ستين سنة كان الطحلب وأوكسيد الخشب وحزاز الصخر تنشر ألوف الرسوم المختلفة. وما وراءه كانت الغابة التي تفوح منها الروائح والدرب الضيق الذي حفرته العجلات. داخل السياج، كان هناك مهد للزهور كان غليانه السحري يشغل كل أصبع من الأرض. كانت الزهور تغمر السور كرغوة صابون تفيض عن طشت. وكانت هناك، فضلاً عن كل النباتات العادية، أنواع أكثر ندرة. وكان الهواء ممتلئاً بروائح تبعث النشوة. وفي المساء، كانت الحديقة تطلق أبخرة لا تحتمل.

كانت هانا تروح وتجيء وسط هذا اللغز كما في صلاة عطور. كانت عشر خلايا نحل تقوم بوظيفة آلات الأرغن. كانت هانا حبلى، وكان الطفل يتحرك في بطنها. كانت، في لا شعورها الفلاحي، تبقى جالسة تهدهد طفلها، ولكن الزهور أخذت، في برهة معينة، تزوبع تحت بصرها، وأحست ألماً كان يصعد على طول ظهرها كمشواة من أجل أن يفتحها.

وصل مارتان مجتازاً الحديقة. كانت بيرتا قد ذهبت للحظة إلى الجيران. أراد مارتان أن يتقدم قريباً من الخلايا، وصاحت به هانا أن ينتبه، ولكنه لم يكن قد ذاق، أبداً، طعم قرصات النحل، فلم يعرها

انتباهاً. كان الرعد، وحده، يستطيع أن يجعله يتراجع إلى المكان، في الطرف الآخر من الممشى، حيث كان قد لعب، مع بيرتا، في وقت سابق، لعبة اكتشاف منابع الكونغو. عند ذلك، تخلى الملاك الحارس عن رعايته، ولذع مارتان ثلاث مرات: وخزة في ربلة ساقه، وواحدة في الجبين، وواحدة في القذال وتحت الجلد، اتجه نحو هانا صارخاً. ولكن هانا ظلت صامتة بصورة غريبة. تشوهت ملامحها. ودون أن تتوقف عن التكشير، أمسكت بيد مارتان وسحبته إلى داخل المنزل. وهناك تلوّت إلى الأمام والوراء ثم وقفت متشنجة. كف مارتان عن البكاء ونظر إلى هانا بفضول. كان الحرق يؤلمه في ربلة الساق والجبين والقذال. كان ذلك أكثر مما يطيق. عاد إلى البكاء، أنانياً وغبياً إلى ما لا نهاية في طيشه. ألقت هانا عليه نظرة حاقدة تقريباً. اجتازت الحجرة ببطء جارة قدميها ثم تمددت، وقد تملكها قلق، على السرير وفتحت أزرار ملابسها. كانت عيناها قد خرجتا من محجريهما كالذين يعانون مرض بازيداو، وانتفخت عروق يديها.

دخل سفن. راح، مذعوراً ومرتبكاً، يذرع أرض الغرفة بالجوربين. وضع هانا، مغمغماً، في وضعية أريح. دفع بمارتان الذي كان يصرخ وهو جالس على مرقاة، مقتنعاً بأن كل هذا الانفعال كان بسبب قرصات النحل. بعد لحظة، كانت العربة ذات النوابض وقضبان العجلات المطلية باللون الأصفر تعدو بكل سرعة، في هذه الأمسية الصيفية الجميلة، فوق الطريق المعشوشبة. كان السوط يطبع خطوطه على ظهر الحصان وينتزع أوراقاً من أشجار الدردار التي كانت الريح تهزها. في الطريق، صادف سفن بيرتا. صرخ بها، فأسرعت إلى البيت. ولأنها كانت لاهثة، خائفة

ومحترقة الوجنتين، فقد تعثرت بالسجادة، ولكنها وصلت إلى السرير، رطبت جبين هانا وغسلت مارتان بالماء المعقم ووضعت قدور ماء على النار وذهبت لتأتي ببياضات للسرير. دندنت الساعة وارتعشت: كوكو كوكو. كائن بشري سيأتي إلى العالم.

جاء الليل. كان مارتان نائماً على الدكة. لم تعد الوخزات تحرقه. كان الليل صافياً كالفضة واللؤلؤ، شفافاً كفرح لا يوصف. كان مارتان غارقاً في عالمه الأناني والصبياني. أصغى إلى الصرخات دون أن يتأثر حتى اللحظة التي نام فيها.

وفي الجوار، كانت القابلة تروح وتجيء. كان لها محيط خصر كشجرة سنديان، كانت تهدىء، تطمئن، كأم للأمهات. كان سفن ينزلق بجوربيه على أرض الغرفة في الطول والعرض مليئاً بقلق أبوي.

تابع الصيف مجراه، وكان كل واحد يكبر. تزايد ارتفاع صراخ سفن الصغير. وفي الوقت نفسه، أصبح مارتان أكثر هدوءاً وتيقظاً. كان يتفق له أن ينظر إلى نفسه ويخجل. فجأة، عرف كيف يرى نفسه على الهامش. هذا دوار التركز على الذات، إن صح هذا القول. وارتد الأسف والرغبة نحو الداخل، نحو مزيد من الهدوء والتركيز، لمصلحة الروح احتمالاً. وفي الوقت نفسه الذي كان، فيه، كل هذا يجري في الداخل، كان يصبح أكثر وحدة. لقد حصل كل واحد حسب توقعه وانسحب إلى ذاته. أصبح سفن، منذ ذلك الحين، أباً. كل شيء مر جيداً والحمد لله. لم يعد مارتان، بالنسبة إليه، ما كان قبلاً. وتبدلت هانا من أم بالتبني إلى زوجة أب. كان وجود مارتان يثيرها، غريزة أم؟ لم يعد لديها ملاذ إلا لمن يتغذى من حليبها.

بيرتا كانت قد تغيرت بدورها. كان النضج الجنسي يقترب، وكانت تعيش مشاعر أخرى، كانت قد اكتشفت «الحلم» الخاص بها.

في شهرين، أصبح كل شيء مختلفاً جداً. وفي ليلة واحدة، تبين مارتان، وهو مستلقٍ على دكته، أنه كان، هو نفسه، فريسة قلق جديد. كانت لديه رغبة لم يكن قد أحس بها حتى ذلك الحين. كانت حمى غريبة تبدو وكأنها تسكن نبضه وأفكاره وروحه وكل وجوده. وتقدمت، وهي ما تزال ضعيفة البداية، تدريجياً، مثيرة تصورات جديدة ومنتشرة في أعضائه.

بعد عدة ليال من التفكير، بدأ ذات يوم، بهدوء، وصبر، السير. سوف يعبر الأرض البراح ويصل على هذا النحو، على مهل، إلى كارليفونيا.

هذه المرة، لم تنطلق بيرتا للبحث عنه، ولما رأى أنها لم تأت، التفت ليرى ويسمع.

وفجأة، نحو المساء، بعد أن التفت للمرة المائة ليسمع، أراد أن يسمع نداءها. أراد أن يجلس ويستريح على حجر وينتظر. وعندما رأى أنها، على الرغم من كل شيء، لم تكن تناديه - ومع ذلك، بدأت النجوم تلمع في السماء - ضم قبضته وصرخ في اتجاه أمه: «آه أنت! تفوه!» وبصق غاضباً في اتجاه كارليفونيا.

عند ذلك تذكر قاتلاً كان قرأ قصته وكانت الكلاب الذئبية قد لاحقته على الأرض البراح. أصاب مارتان هلع صبياني، فأخذ يركض - ظهره في اتجاه بصقته. ركض وركض وقد استولى عليه خوف أعمى وباعث على الدوار حتى البرهة التي انهار فيها، منهكاً، في الخلنج وأغمي عليه. عندما استعاد وعيه، سمع من يناديه. انتصب في جلسته وأصغى.

وأخيراً مع ذلك!

كان أشرس صوت لبيرتا هو الذي يرتفع في الليل، صوت فتاة مبحوحاً. ركض مسرعاً، وبصرخة فرح رد على نداءات بيرتا. اقتربت. كانت ملامحها مزرقة غضباً. فقد ضربتها، هي نفسها، هانا لأنه هرب.

أمسكت به وضربته. ضرب كقط صغير. وترك العاصفة تمر وهو ممتلئ عرفاناً. كان، من جديد، في «البيت».

في الربيع، جرت مناولة بيرتا الأولى. منذ ذلك الحين، كانت تقول عن نفسها إنها راشدة. وعندما جاء الصيف، اتخذت تصرفات سيدة. كانت تمشط شعرها وتنظر إلى نفسها في المرآة، ثابتة النظرة، مائلة الرأس في اتجاه ثم في الآخر، ثم منتصبة تماماً، وذلك خلال ساعات كانت تنظر إلى نفسها في أعماق عينيها، تتظاهر بأنها صبي وهي تنظر إلى نفسها.

- أيتها الفتاة في المرآة، أحبك! وكانت تقبل فمها في المرآة بلطف. وعندما كانت تهمس، كان زجاج المرآة يغطى بالبخار الذي كانت القبلات تحفر ثقباً فيه.

هتفت، وهي تدفع مارتان، قائلة:

- أنت تتجسس علي! هيا، اخرج!

دخلت هانا من الباب الآخر.

- مالك تنظرين إلى نفسك طيلة اليوم في المرآة؟ أنت مغرورة كقزم. ما هذان البكّاءان؟ اخرجا، أنتما الاثنان، واذهبا لتقطفا لفتاً.

كان مارتان وبيرتا يزحفان ويقطفان صفاً بعد آخر. كانا يقولان فيما بينهما إنهما سرعان ما سيغطيان حوالي مائة كيلو متر. لم تكن هذه الفكرة تبعث فيهما أي فرح، وكانا قد تعبا من الشمس. وللحظة، وجدا ذاتيهما متفقين. فقد كانت هانا امرأة شريرة قطعاً. هذا ما قالاه فيما بينهما بصوت مرتفع، أولاً، ثم هامسين عندما لمحاسفن في حقل البطاطا المجاور يعلق المعزقة بالحصان.

أمضيا بضع لحظات أيضاً، ثم نودي عليهما للغداء. أكلوا. كان الطعام مؤلفاً من شحم الخنزير والبطاطا وخبز الشعير واللبن الرائب. كان

للجميع شهية جيدة. كان مارتان يزجر عندما يصدر صوتاً وهو يأكل. كان القدر موضوعاً في وسط المائدة على حامل من الأسلاك الحديدية. وكان في القدر شحم خنزير ودهن، وكانت تغوص في الدهن قطع من البطاطا وخبز الشعير يستعيدونها بطرف السكين. ثم كان اللبن الرائب يقدم في الطبق المشترك وكل منهم يلتزم جانبه منه. وعلى هذه الصورة، أيضاً، كانوا يأكلون العصيدة مساءً.

كانت بيرتا معتادة على ذلك منذ سنوات، ولكن مارتان كان يقرف من أدنى أثر لمضغة التبغ حول ملعقة سفن. كان يظهر، أحياناً، في اللبن. كان يفضل أن يأكل مسحوق البطاطا. في هذه الحالة، كان كل واحد يحفر من جانبه مغارات صغيرة بملعقته. وعندما يكون الطبق ممتلئاً تماماً، لم تكن السراديب تتواصل فيما بينها حالاً. كان لكل منهم مغارته الخاصة، وكان مذاق مسحوق البطاطا أفضل.

وعندما كانت ثمار العرعر تنضج، كانوا يصنعون منها جعة، جعة رائعة تصالحك مع كل ما هناك، كالقربان المقدس. كانت الروح تتركز لتتحد بالجسد بمذاق المشروب العميق. كان الأمر كما لو أن المرء يشرب من ابريق الكلي القوة. ففي هذه اللحظات، كان العرعر، بهار المستنقعات الشمالية، يعظ في أعمق أعماق البشر.

كانت الأحداث الخارجية نادرة. أما بالنسبة لنهاية الصيف، فقد أرسلت بيرتا إلى مدرسة نسيج، وأصبحت الأحداث أكثر ندرة.

اشتاق مارتان إلى صحبتها على الرغم من أنها بدت مغرورة غروراً غبياً وقاسية قليلاً من وجهة نظره.

ونظراً لعدم وجود رفيق من عمره، أصبح حالماً. كان مقصوراً على

موارده الخاصة وفريسة للإشفاق على نفسه وللكآبة. كان «يفكر» أكثر مما ينبغي مع عدم امتلاكه لما يكفيُ من العقل.

ولذلك كان ترك بيرتا كتابها «أليس في بلاد العجائب» له مصيبة تقريباً. كان خياله على ما يكفي من التشويش من قبل. كان يحتاج إلى قليل من الرفقة والحب أكثر منه إلى حكايات.

يريح الراشدين جداً أن يضعوا كتاب حكايات بين أيد متوسلة تتسول قليلاً من الحنان. «أليس» كتاب لأطفال وراشدين متخمين حناناً. كان مارتان، من قبل، أكثر قابلية للتأثر مما ينبغي، أكثر استعداداً للأحلام بالضبط. إعطاؤه حكايات دارت في بلدان العجائب كان يعني، إلى حد ما، اهداءه قليلاً من الديناميت المعطر بعطر لطيف. قرأ الكتاب، ثم تاه في الأرض البراح لأنه لم يكن هناك من يتحدث إليه. وكانت هانا تبدو، بصورة متزايدة، على صورة زوجة أب، كما كان سفن يبدو على صورة زوج أم. قالا له، دون مداورة، أنه كان، في رأيهما، يقرأ حماقات ويروي «ولدنات». لم يكونا يفهمان أن «الولدنات» كانت لديه محاولات للخروج من مأزق، مأزق قصص الجنيات التي لم يكن في حاجة إليها. لم يكونا يفهمانه.

كانا يجهلان أن رؤى قد راودته قبل أن يعرف القراءة بكثير، رؤى لم يكن أحد غيره يراها: سجادات تعيش، أقمشة تتحول إلى أفاع. لم يكونا يعلمان أنه كان على إينيز أن تدافع عنه ضد التخيلات التي كانت تزحف قرب ساقيه لدى أدنى بقعة نور ترقص على الأرض. كان، حتى في هذه الساعة، يستطيع أن يسمع إينيز تقول: «هذه أنا التي كنت أتكلم، لم تكن أصواتاً، لا تخف».

نعم، كان ما يزال يسمعها. وغالباً ما كان يرى صورة الموت الكبيرة البكماء. وفي اليوم الذي رقدت، فيه، إينيز باردة وبكماء، ظهرت هذه الصورة، من جديد، أمام عينيه. كانت تستريح في أبدية نوم جليدي ويداها متصالبتان على الكفن.

كان سفن يقول لهانا:

- إنه غريب. لا أدري ما إذا كنت سأحتفظ به بعد رأس، السنة.

كانت هانا تهز رأسها. كانت، قطعاً، من الرأي نفسه. كانت تقول:

- كلا. وفضلاً عن ذلك، فهو لا يكبر. إن كونه قصيراً ونحيلاً سيجعلهم يظنون أننا لا نطعمه بصورة كافية.

- قلنا، إذن، في رأس السنة؟

همست تقول:

- هو ذاك. البلدية ستجد له مكاناً جديداً. قال سفن:

- إنه يعمل جيداً، ولكنه ظل طفلاً أكثر مما ينبغي بكثير.

وهكذا اتخذ القرار. لقد ظل الطفل طفلاً أكثر مما ينبغي بكثير.

في وقت متأخر من الخريف، وصلت أول رسالة من الأم. كانت خليطاً عاطفياً مع تعبيرات مشكوك فيها عن تبكيت الضمير ومقتطفات من الصلاة الربانية هنا وهناك. كان القسم الأكبر من هذه الرسالة غير قابل لأن يفهمه طفل. كان الأمر كما لو أنها قد طلبت إلى ابنها أن يأخذ مكان الكاهن المعرّف.

زادت الرسالة في بلبلة مارتان ووحدته، وزاد إشفاقاً على نفسه. لحسن الحظ، لم تعد أمه، أبداً، إلى فتح قلبها له بهذه الصورة. وبالمقابل، أرسلت له، مرتين أو ثلاثاً، طروداً تحتوي على ملابس. هذه الأشياء هي التي جلبت، في بكمها، الدفء إلى قلبه، جعلته يحس بصلة لم تكن الأقوال والرسائل قد أحيتها.

جرت العودة إلى المدرسة في الخريف كالمعتاد.

كان أطفال المدرسة الابتدائية قد كبروا خلال الصيف. كان كل منهم، صبياً صغيراً كان أم بنتاً، قد اكتسب صورة وجود جديدة. كانوا، كلهم، قد خطوا، منذ الربيع، خطوة صغيرة إلى الأمام، نحو سن الرشد.

كان الصيف قد انضجهم وقلص أجنحتهم. أو أنه، بالأحرى، انتزع منهم ريشة. ومع ذلك، كانوا أقدر على التعارف. تقاربوا قليلاً، أحسوا بحاجة إلى أن يكونوا في صحبة وإلى أن يثيروا اهتمام الآخرين. وبعبارة موجزة، كانوا قد تأنسنوا. عملت الطبيعة معدلة أنانيتهم. كانوا سعداء لالتقاء وجوه الرفاق، وكانوا قد انتزعوا قليلاً من تهيبهم وانخفضت

خشيتهم من المدرسة. كان مارتان، وحده، الاستثناء. كان عمله أقل جودة مما كان عليه في الربيع، وكان يبقى مقطب الجبين على مقعده، هادئاً، وفي الوقت نفسه ماكراً كثعلب. سألته المعلمة عما إذا كان يشكو من أذنيه. كلا، لا شكوى من الأذنين.

- أسناني تؤلمني.

- أما زلت تحتفظ بأسنان الحليب؟

- بدأت أفقدها.

كانت المعلمة مسرورة لأنه كان يجيب عن كل الأسئلة بصورة واضحة ودقيقة مخرجاً حروفه بشكل مناسب، دون اهمال. ولكنه كان يتكلم بصوت خشن لم يكن يتعرف عليه، لا هو ولا المعلمة. كان يطلق ردوده كسهام، كما لو كان يقول: خذي التقطي! أستطيع أن أجيب عن كل ما تريدين.

كان ذلك أول يوم.

استرخى شيئاً فشيئاً من جراء اتصاله بالأطفال الآخرين. كان هناك، بالنسبة إليهم جميعاً، لغز: لغز المجموعة. كان تعلق عميق يوحد بينهم. لم يكن هذا صريحاً، كان مثل معجزة: شيئاً حياً. في اللحظة نفسها، كان يمكن أن يبدوا قسوة حيال بعضهم بعضاً، ولكنهم كانوا، على مرّ الساعات، وطيلة اليوم، متحابين. لم يكونوا يستطيعون الاستغناء عن بعضهم. كان الصبيان الصغار والبنات الصغيرات يحسون، عندما يعودون إلى بيوتهم مساء، بالعزلة تأتي، ولكنهم كانوا يلقون في وجهها بكل ذكرياتهم عن النهار الذي أمضوه في صحبة، وكانوا يحسون أنهم قد كبروا أو أنه كان من شأنهم أن يرغبوا في أخذ قياساتهم ليروا ما إذا كانت أجسادهم قد كبرت، هي أيضاً، كالباقي - كالفرح والحب اللذين

لم يكونا، بعد، في القاموس، هذا الفرح لم يكونوا، هم أنفسهم، يعطونه اسماً، قط، ولم يكونوا يلطخونه بأفكارهم.

هكذا كان يتعلق بعضهم ببعضٍ بهذه الحرارة التي كانوا يستطيعون، بصورة مشتركة، أن يصونوها، هم أنفسهم، في الآخرين. ولكنهم لم يلاحظوا هذه المعجزة قبل أن يزيدوا تقدماً في العمر. عند ذلك، رأوا ما كانوا عليه ذات مرة: شراكة قلبية لم تكن تحمل اسماً - حتى لو كان كل منهم، في حد ذاته، مضحكاً صغيراً أو بكاءة صغيرة أو ذهناً صغيراً معقداً.

آه! المدرسة الابتدائية! فترة نعمة، مقاربة للأرض. من الذي سوف يستطيع، فيما بعد، وهذه الومضات الغريبة تحت أنظار الذكرى، أن لا يحس بأعمق الايمان بموارد الحياة التي هي، كذلك، موارد النفس؟ وهذا على الرغم مما كان عليه.

حتى عيد الميلاد، لم يعد مارتان، أبداً، ما كان عليه قبلاً. كان آخر. كان مع الآخرين. عندما كان مع الآخرين، وعندما كان وحده، كان يحمل معه شيئاً من الآخرين. كان سفن يستطيع أن يبقى كما هو، كهانا تماماً. كان سفن الصغير يستطيع أن يصرخ في السقف حتى يسدوا فمه بإعطائه الثدي. كان مارتان يفكر في اللعب الجماعية في الغد، في الذي سيحدث في الغد. كان، خلال سهرات فيلناس المنعزلة، يعيش، في فكره، مع الآخرين، مع المضحكين الصغار، البكائين الصغار، الأذهان الصغيرة المعقدة المتفرقين، الآن، في ثلاثين مزرعة، الجالسين تحت المصباح يكتبون وظائفهم.

كان مارتان يحب، أيضاً، كتب المدرسة والوظائف وساعات الحساب والطبشور وكتابة الصبيان على اللوح الأسود والمعلمة، ألما. من المؤكد

أنه يعبد المدرسة. وعندما أصبح أكبر عمراً، كان يحس بهذا الحب بالقوة نفسها، وكان يحس، بمزيد من الوضوح، بما كانت المدرسة: عالم نور، المدرسة التي تبدد ظلمات الكهوف، المدرسة الشبيهة بمكمن البومة، طائر المعرفة المهيأ، دائماً، لتجارب جديدة والذي يخرج جرذان الظلام من مكامنها حامياً، على هذا النحو، جنس موبوئي الغباوة. آه! لو لم يكن المستبدون الذين يتاجرون بالبشر والدجالون يعمون نظرة هذا الطائر لانتصر في النهاية.

كانت المدرسة الابتدائية شبيهة ببومة صلعاء صغيرة في ظل البومة وصيادي الجرذان الكبار من فوق تماماً. هل سيستطيع أن ينسى، قط، الملاذ الذي كانته المدرسة الابتدائية بالنسبة إليه؟ كلا! وإذا عادت الأيام الرديئة الموبوءة بالجرذان، عند ذلك سيدور الأمر، بالنسبة إليه، حول معرفة قدره والدخول إلى المجتمع الحقيقي الحامي للحيوانات، المجتمع المركزي الذي يرتب رجاله عند أسفل شجرة البومة، ووجهه و رمحه مصوبان إلى الطاعون.

كـان سفن يقرأ، كل صبـاح، بصوت مـرتفع، مـقـتطفاً مـن كـتـاب «التـأمـلات». كان في هذا الكتـاب مـقطع لكل يوم، قـصيـر أو طويل، حـسب أهـمـيـة اليـوم مـأخـوذة من عـدة وجـهـات نظر: الأسطورة، عـمل الأرض، الدين. وكان الأمر يدور، في معظم الأحيان، حول مقاطع قصيرة جداً: شطيرة دينية صغيرة قبل الشروع في العمل.

كان كل واحد يعرف، عندما كان سفن يمضي لأخذ الكتاب من على الرف، أنه يجب التزام الصمت. لم تكن هناك حاجة إلى التنبيـه. كانت هانا تجلس، تملس وزرتها الملونـة، تعيـد شـال أيام الأسبوع الفـاتح اللون إلى مكانه وتثبت نظراتها على يديها المضمومتين والقلقتين اللتين كانتا تلعبان بخيوط الوزرة. كانت تنقر بالأصابع الصغيرة عليها طيلة الوقت الذي كانت تستغرقه القراءة. كانت عـرة تافهـة كان مارتان يلاحظها كل مرة من مكانـه على الدكة التي كان يجلس عليها مضموم اليدين، يحك راحة يده بالسبابة. كانت تلك طريقته الخاصة في العصبية.

كـان سـفـن يجلس دائمـاً، وهو يقـرأ، على الكرسي الهـزاز. كـان الكتاب يوضع مفتوحاً على يديه، أمامه. وهكذا كان يظهر على الصورة الكبيـرة سمعـان العـجوز يحمل الطفل يسوع. كان سفن يقرأ ببطء لا يصدق. كانت أصابع قدميه تستريح، في نهاية كل جملة على الأرض، وكان الكرسي الهزاز يتأرجح من جديد. إلا أن سفن كان يضيع السطر،

عندما كان يضرب الأرض بصورة قوية قليلاً، ويقفز، إذ ذاك، مقطعاً أو يعيد قراءة ما كان قد قرأه. وعندما كان يلاحظ ذلك، كان يقول كما لو كان ذلك ليعتذر: «آه، نعم، هذا صحيح». كان يتوجه بهذه الكلمات إلى القوة الكلية الحاضرة في الغرفة وتبدي هذا الحضور بتكتكة الساعة خاصة. كان يعبر، فيها، عن نفسه كبير القياس الذي كان يدور حول الكرسي الذي كان سفن يجلس عليه، يدور ويقيس روحه، ضميره، كليتيه، أعضاء الأبدية فيه، وكذلك أعضاء هانا، وفي هذه البرهة، كانت الأبدية تأتي لتضبط اليوم والساعة.

كان مارتان يكتفي بالحضور، فلم يكن راشداً. ودوره في الأبدية، في هذه البرهة، كان أن يصغي: أن يصغي في صمت وانتباه إلى كيفية تأمل الأبدية لحظة التأمل هذه. كان يجلس ساكناً سكوناً تاماً. كان ذلك ضرورياً للصمت. فلو تنفس، فقط، تنفساً قوياً قليلاً، فإنه سوف يسبب صرير الدكة وازعاج الأبدية. كان يجلس على دكة ضميره. وعندما يغلق كتاب سفن، كانوا يكفون عن الشعور بالضيق كشخص يعاني من الربو. كانت زفرة هانا تضع نقطة على السطر فيمضي الثلاثة لتناول قهوة الصباح في حين كان «الواقع» يرتد إليهم. كانوا يبدؤون في الثرثرة ببساطة وحرارة تقريباً. كانت القهوة تنشر، على الأقل، حرارتها في هواء الخريف البارد والبلوري. وفوق الأكواب، وعلى ضوء النوافذ، كان بخار القهوة يرتفع في حلزونات زرقاء. كان درب المدرسة يلمع. وكان ندى آخر الفصل الفضي يتوضع على ألوف أنسجة عنكبوت العشب الذي كانت أشعة الشمس تلعب عليه في صمت وحيث كانت القباقيب تطبع آثاراً خضراً تلمع كالقصدير في الظل. وكان الطفل يدهش دهشة قوية للظل

الساقط من الشجر، نعم من كرات الأوراق هذه ذات الأضواء الحارة، هذه الغيوم المذهبة.

كان مارتان، وقد أصبح في الخارج أخيراً، وكتبه تحت ذراعه، وشعور بالخلاص، بكونه رد، على هذ النحو، إلى نفسه وإلى جماعته. كان يجتاز الغابات ذات ألوان الخريف الصهباء. كانت توجد أوراق مذهبة في كل مكان، وكانت باقات العشب تلمع كشرائط شجرة ميلاد. انبثقت لديه رؤى سنواته الأولى. رجل أشقر وعار يقف في غرفة مشمسة وشعره وكل وبر جسمه يلمعان كالنار، من ذاتها أو بسبب الشمس. أين وكيف؟ لم يكن مارتان يعلم عن ذلك شيئاً. ولكنه سمع من باب ظهر في ذكرياته، أحدهم ينادي. هانا! هانا! ثم عاد باب الذكرى إلى الانغلاق. الله يعلم أين حدث هذا ومتى.

تطاول الخريف الجميل مشابهاً لذاته حتى منتصف تشرين الثاني. ثم حل جليد قاس. أحرق الجليد آخر الأوراق وتحولت إلى اللون الرمادي.

وقعت، في البدء، بضعة أيام جليد دون نسمة. ولكن، سرعان ما هبت ريح جليدية وتدفقت على الأرض البراح. كان الخلنج الذي انتزعت أزهاره يرتعش في الريح كجزة هائلة. وكانت الريح تصرخ في المدافئ ككلاب تجلد. كانت المدافئ تستمد نوطاتها الغليظة من أعماق البيوت وتغني بالصوت الجهير في حفلة موسيقية كان كل ما فيها يزمجر. كانت أبواب الاهراءات تنفتح تحت ضغط الريح، وكانت هذه الأخيرة تندس تحت القش بقبضتها الباردة والفارغة. وفي هذه الأثناء، كانت شقوق كل المخازن تئن وتصوصئ، شبحية ويائسة، بكل أوتار قلقها. كانت أرومات منتزعة من على السقوف تتطاير مثل نبال. تقصف دوارة عتيقة وتقع وسط الردهة كفأس سحري.

ولكن المكان الذي كان للعاصفة، فيه، أكبر التأثير كان داخل البيوت. كان الناس يتمترسون ويصغون بريبة إلى كل أصوات الخارج. كانوا يظلون جالسين، يحاولون أن يفهموا من أين كانت تأتي مختلف أصوات الريح، وكانوا يحاولون، بكل عيونهم، أن يخترقوا هذا الليل الذي يشبه مدخنة مزمجرة وسوداء.

كان أحدهم يقول:

- ماذا كان ذلك؟

وكان الجميع يصغون.

- لاشك في أن شيئاً ما قد سقط من على السقف.

عند ذلك، كانوا يطمئنون لبرهة. ولكنهم كانوا، لدى كل ضجة جديدة، يعودون إلى طرح أسئلة ونصب آذانهم. كانوا يستمرون في الإصغاء على هذا النحو إلى أن يكوّنوا فكرة مرضية عن كل الأصوات.

كان حذر موروث عن الأجداد يعود إلى الظهور على السطح. كان يعود إلى الانبثاق بصورة طبيعية، وجميعهم متفقون حوله، كان ذلك نوعاً من الغريزة.

في الماضي، في أوقات كهذه، كان قطاع الطرق معتادين على التسلل إلى البيوت ليقتلوا. ومنذ ذلك الحين، كان نصب الآذان عادة تقريباً، لمعرفة ما إذا كانت العاصفة تخفي قاطع طريق أو غيره تحت معطفها، معطف الريح والظلمات. عيونهم مثبتة على الساعة. وكانت هذه الأخيرة تمضي دافعة عقاربها بأناقة. هيا، لاشك في أن أحداً لن يأتي لقتلهم هذه الليلة..

كانوا، كما لو كان ذلك لإعطاء مصداقية لمشاعرهم الكئيبة،

يتجمعون ويعيدون رواية حكاياتهم. كانوا يذكرون أشباح القرية وأطياف المنطقة على طول ثلاثة أجيال أو أربعة. كانت تذكر أسماء كل الأشباح وتواريخ وفياتهم، وهذه الأمور كانت تقتضي دقة قصوى. فلا مجال للكلام دون أن يقال شيء.

بالنسبة للأشباح، كانت هناك عجوز، ملعونة، تظهر على صورة يد واحدة فقط. كانت هذه اليد نحيلة وشاحبة ومليئة بثمرات العناب الحمراء. كان التفسير بسيطاً. فقد باعت نفسها للشيطان. كان يجب أن يأتي لأخذها في السنة السبعين من عمرها.

جاء في اليوم الموعود. لم تكن في البيت، ولكنه ذهب ليلقاها على الأرض البراح حيث كانت تقطف عناباً. أوضح سفن قائلاً:

- في ذلك العهد، لم يكن قد زرع شيء على هذه الأرض.

كان يروي الحكاية كما سمعها من صانعي السلال.

جاء الشيطان إذن. كان يمسك في يده عصا مصر السوداء. هذه أسوأ العصي. ولا يتغلب على هذه العصا أي كتاب طلاسم، أسود أو أبيض. قال:

- سيسا، فكري جيداً لأنني قد جئت. ولكن سيسا أخذت تتأوه قائلة:

- أليس هناك أي استئناف يا سيدي؟

انفجر الشيطان ضاحكاً وقال:

- نعم، هناك استئناف.

قالت سيسا:

- ما هو؟

حك الشيطان أقفاله وقال:

- سأعد حتى ثلاثة. قبل أن أقول ثلاثة، يجب أن تكوني مغمورة بالعناب.

أخذت سيسا تجمع ثمار العناب، إلا أنه لم يكن يوجد منها إلا القليل. ومهما أبطأ الشيطان في العد، فلم تكن لتحصل على الزمن اللازم.

عندما قال الرجيم ثلاثة، كانت تمسك بثمار عناب في يدها واختفت. كانت هذه اليد هي اليمنى، وكانت كل ما بقي منها. في السنوات التي يكثر، فيها، العناب، يمكن أن ترى مارة من غيضة إلى أخرى، تقطف عناباً تنثره، بعد ذلك، على الأرض، قالت هانا:

- ياله من شيء بشع.

صرحت بيرتا التي كانت عائدة من مدرسة النسيج قائلة:

- أنا سمعت قصة في مدرسة النسيج.

وعندما روى كل منهم حكايته، شعروا بأنهم مختلفون. كانت الجثث والقبور قد جعلتهم يقضون سهرة عاصفة. كانوا قد عرفوا الرعشة المطلوبة للحصول على الطمأنينة في هذه الغرفة، إلى جانب النار. في الليل، تبول مارتان في الفراش. لم يكن قد تجرأ على الخروج. عندما استيقظ، كانت الأشباح قد دخلت إلى البيت. كانت تقف وسط الغرفة وعيونها مثبتة عليه. كانت إينيز معها. تجمد مارتان من الدهشة. ولكن إينيز تقدمت نحوه، إذ رأت أنه كان خائفاً، وقالت:

- لاتخف. هذه أنا التي كنت أصرخ (ثم مشيرة إلى الأشباح) هذه ليست سوى ستائر، ستائر.

ثم انتهى كل شيء واستيقظ.

ومع ذلك، كان قد حلم بأنه استيقظ. في هذه اللحظة، كان يرى ما كان الأمر عليه. هذه هي اللحظة التي كان، فيها، قد استيقظ حقاً.

تملكه الخوف وهو يفكر في حلمه، وفي الوقت نفسه، كان يحس بغطاء جليدي على جسده ككل الذين ليسوا محبوبين. كانت حياته في فيلناس تجعله يرتعد اشمئزازاً.

لم تعد بيرتا تهتم به أبداً. كانت تزجره كلما طرح عليها سؤالاً. لم يكن يعرف أنها كانت عاشقة، وعلى هذا النحو لم يعد لديها حب.

لم يكن مارتان يعرف، كذلك، أن سفن كان أكثر قصوراً من أن يحس بمشاعر أخرى، مشاعر بدائية، مشاعر بيير وبول وجاك، مشاعر الحيوانات. كان يملك حرارة الدب الفظة. كان ينقص شيء.

لم يكن مارتان يعرف، كذلك، شيئاً كثيراً عن هانا. من المؤكد أن الناس غالباً ما يكشفون عن أقنعتهم. ويمكن، حتى لطفل، في قبة التأكيدات والأوامر هذه المعلقة فوق حياة الناس، أن يلاحظ ثغرات منفرجة. يمكن، حتى لطفل، أن يفاجئ الناس يبصقون في آبارهم الخاصة. ومع ذلك، يبقى كل شيء، تقريباً، مخبوءاً إذا لم توضح إرادات البشر المبهمة. الردود التي كان يمكن أن تفسر أشياء كثيرة (والتي تعزى، عامة، إلى شخصيات الكتب الرائعة)، هذه الردود لا تذكر أبداً. هنا، يتنزه المرء، بكل بساطة، يقول أول ما يخطر له من عبارات ويحس بالبرد. الأطفال وغريبو الأطوار ومجانين القرى هم، وحدهم، يتوصلون، أحياناً، إلى سحب هؤلاء الناس من هريرهم، من حرارتهم البدائية والناعسة. كان الأمر كذلك في معظم المزارع التي كان مارتان يحتفظ

بذكراها. ومع ذلك، كانت هناك درجات. ومارتان عاشها جميعها بإبهام نفس طفل ومرونتها.

وبما أنه لم يكن يجري شيء في المزارع أبداً، فقد كان لديه المتسع من الوقت ليلاحظ ما لم يكن يجري فيها، الطريقة التي كان يقدم، بها، غياب الأحداث.

كان عقله الذي مازال رقيقاً يتهجأ ويجمع، يتهجأ الإنسان في الإنسان، والذكرى في الذكرى، والليل في النهار، مركباً بين الأسئلة التي كانت تتجاوزه والإجابات المؤقتة.

كان هناك، ربيب البلدية، في مزارع الفلاحين، يصغي إليهم وهو أبله، في بادئ الأمر، ومفرط الأنانية، ثم تهذبت أذنه، تدريجياً وشحذ انتباهه وأصبح أكثر عناداً. كانا، الواحد منهما في الآخر، أقرب إلى أن يستحق الرثاء.

«ابكوا على نفسكم وأبنائكم».

في نهاية تشرين الثاني، قتلوا الخنزير، خنزيراً مسمناً يعاني عسر الهضم وضخم البطن. قطع إلى أرباع ووضع الرأس والأحشاء على حدة.

مارتان كان هناك، أيضاً، ليقدم مساعدة. كان ممتلئاً رعباً.

كان قد أطلق، خلال الصيف، على الخنزير اسماً: روف، وكان، عندما لم يكن هناك من يراه، يذهب ليعطي روف بعض الطعام الجيد.

وربما كان الوحيد في المزرعة الذي أحس بشيء من الحنان حيال الخنزير. وكان قتله، الآن، يبدو له غير لائق.

مضوا يحكون ظهره. وكان الخنزير الذي تأثر، بغباء، بهذه اللفتات ينخر. كانوا يقولون له: بس! بس! وهو ينخر، فقد أصبح أبله قليلاً. ربما تساءل لماذا جاء هؤلاء الناس لزيارته في الخريف بهذا اللطف. وعندما قدروا، لطول ما حكوا ظهره، أنه قضى من الأيام السعيدة ما يكفي لقتله، أمسكوا به وسحبوه خارجاً. عند ذلك فهم الخيانة وأخذ يصرخ كقاطرة.

جروا، مستثارين والبسمة على شفاههم، الحيوان الذي كان يطلق صرخات ثاقبة حتى الدكة. وهناك غرزوا سكيناً في روف. سال الدم دافئاً في الدلو المليء دقيقاً. وكانت هانا تحرك بقطعة خشب الدم الذي كان يلطخها حتى مرفقيها. كان مارتان يمسك بالحيوان. كان هذا ما يفعله وهو متجمد من الرعب. سكت الخنزير حالياً، ولكنه كان يسدد

ركلات مخيفة. وعندما مات حقاً، وضعوه في حوض ثم سكبوا عليه ماء مغلياً. سحب وأعيد وضعه على الدكة. كان الخنزير الضخم حاراً ويطلق بخاراً أبيض. كشط شعره بحواف علب صفيح. كان ينبغي الإسراع وإلا برد الماء. كان مارتان، أيضاً، يكشط الشعر. كان يفعل ذلك بعجلة ليغرق خوفه في العمل إلى حد امتدحه، معه، سفن وقال:

- يمكن أن يقال إنك ولدت لتكون جزاراً.

كشر مارتان وعاد إلى الكشط.

تناولوا، بعد ذلك، القهوة مع خبز طازج طيب الرائحة. كان يقوم بين الذين قتلوا روف نوع من التواطؤ. فهم مارتان، متأخراً، أنه برهن عن جدارته. كان خوفه قد انقضى، ولكن ضميره لم يكن مرتاحاً. لم يكن الآخرون يرتابون في ذلك، ولكنه كان يحاول التفكير. وبما أن ذلك لم يكن يعطي نتيجة، فقد عدل عنه.

كان عيد الميلاد يقترب ضمن الانهماك والهمسات التقليدية. كالعادة، كانت التحضيرات محاطة بشيء من السرية. كان كل واحد يخفي شيئاً. ربما كان ذلك زوج جوارب صوفية. كان الأطفال يعرفون عموماً، ماذا يتوقعون، ولكنهم، مع ذلك، كانوا يشاركون في اللعبة: لعبة استغماية موسم الميلاد المصطنعة إلى حد كافٍ.

بيرتا التي كانت، كمعظم البنات، تعبد العيش في الأسرار التافهة، كانت تقول:

- أنا سأحصل على ياقة ريش، أعلم ذلك. أنت ستحصل على جوارب ومناديل.

كانت تنفذ أدواراً تمثيلية، تداعب عنقها الذي ستلفه الياقة محركة

ردفيها كسيدة تماماً. كان مارتان يجدها حمقاء، كان، هو نفسه، يرغب في هارمونيكا. ولكن، لماذا هذه الاستعدادات؟ كان عيد الميلاد يقترب، وسوف يحصل، هو، على جوارب صوفية.

هطل بعض الثلج وذاب. كانت الأيام تمضي. عشية العيد، تجمد الوحل على الطرقات والحقول والردهات. تجمد الهواء وكانت السماء الجليدية والخبازية تلمع. أخذت هانا فترة راحة للمرة الأولى منذ خمسة عشر يوماً دون شك. تنشقت بضع نفحات من الهواء الجليدي. كانت رائحة صنوبرات الحرج الفتية تنتشر في المنطقة حتى عندما لا تكون هناك ريح. تنشقتها هانا ووصلت إلى «التفكير» في أنه ينبغي أن تأتي بأغصان صنوبر. انتعلت قبقابها متنهدة ونزلت بخطا صغيرة نحو الأيكة. وعندما وصلت إلى هناك، بين ذرى أشجار الصنوبر الفتية، النضرة، والكئيبة، كانت تستطيع أن ترى الأرض البراح والبحيرات. كانت الأكمات الجبلية مغطاة بغابات مزرقة تطل كل واحدة منها على بحيرتها. كان كل شيء هادئاً وبارداً، ولم تكن هناك سحابة تعلن عن ثلج الميلاد. يمكن لشتاء دون ثلج، بالذات، أن يكون في قلب النهار جميلاً. بقيت هانا في حرج الصنوبر حتى بدأت ترتعش برداً. عند ذلك عادت إلى عملها. ظلت هناك، ناسية لبرهة، وقد أمتعها المكان، وكانت سعيدة لبضع ثوانٍ لكون النداوة حررتها، وقد حملتها الأساطير بعيداً، من المقانق والاحتفالات الدسمة.

ذلك أن الميلاد كان، بالنسبة إليها، عبودية، نير عيد. كانت تحمل هذا النير لأنها لم تكن تجرؤ على التصرف بطريقة أخرى، لم تكن تعلم أنه يمكن التصرف والتفكير خلافاً لذلك. لو كانت، فقط، قد تجرأت،

فإنها كانت ستكره هذه النظرات الملتمسة والشرهة للأطفال تحت نجمة الميلاد (الغارقة في الطعام). لو كانت، فقط، قد تجرأت على التفكير، فإنها كانت ستبصق على أعياد الميلاد التي هي، بالنسبة للنساء، زمن عبودية. ولكنها لم تكن تجرؤ.

عندما تقدمت بأغصان الصنوبر اللامعة والزرقاء المخضرة في الباحة، تعثرت بأحد الأغصان الكبيرة ووقعت وصدمت بركبتها حجراً. نسيت، غاضبة من الألم، السكينة التي كانت قد حلت فيها.

- أيها الحجر اللعين!

وركلت بالقبقاب كومة الأغصان التي كانت قد تعثرت بها. بقي الحجر ساكناً. لم تكن تستطيع حيال ذلك، شيئاً.

حوالي نهاية الليل، ذهبوا إلى الكنيسة. مضوا بالعربة. كانت هذه تتقدم تحت الأشجار مترنحة على درب كانت أخاديده مغطاة بجليد جاف، رقيق، بلون الخزف الصيني الأبيض وكان يتكسر تحت العجلات مصدراً موسيقا غريبة.

كان مارتان الناعس يصغي بصحبة الآخرين، نصف حالم، إلى لحن قيثارة الطريق هذا الذي دام، مع انقطاعات قصيرة، خمسة كيلو مترات. كانت هذه الموسيقا تجعله يفكر في الملائكة. كان الآخرون يستمعون أيضاً. قالت هانا:

- يالها من ضجة! سوف يستيقظ الصغير. كانت هانا جالسة مع الصغير المدثر بشالات، كرزمة عديمة الشكل.

وسرعان ما وصلوا إلى الطريق العام. لم تعد هناك أخاديد. وكفت فوانيس العربة المضاءة عن التأرجح وإطلاق الدخان. بدأت العربة تجري على نحو منتظم.عند ذلك، نام مارتان ورأسه مستند إلى بيرتا. كانت

تلفه بين ذراعيها وكان، في اغفاءته، يحس بحرارتها. لم يستيقظ قبل الوصول إلى الكنيسة. قالت بيرتا:

- ها نحن قد وصلنا.

وأوقفته على ألواح العربة. استيقظ فزعاً، وكان ذاهلاً تماماً وكانت ساقاه خدرتين.

حل سفن العربة وقاد الحصان إلى الاصطبل المجاور للكنيسة. كان مليئاً بجياد متعرقة، أثار الليل أعصابها، وكانت تؤرجح رؤوسها محاولة أن يعضّ بعضُها بعضاً.

أنبها سفن قائلاً:

- ألا تخجلين! كوني مسالمة في صباح الميلاد هذا على الأقل.

وأضاف قائلاً وهو يسدد لها ضربة سوط:

- مهور نوردا هذه مخلوقات شريرة حقاً! كيف الصغير؟ هل أصابه البرد؟

مضت هانا إلى إحدى زوايا الاصطبل. فكت أزرار ملابسها وأعطت ثديها لابنها. وقالت بصوت أم منتشٍ:

- كلا، ليس بردانَ.

كانت واقفة وراء حاجز لاينفذ منه ضوء الفانوس. قال سفن:

- سنذهب عندما تصبحين مستعدة. سوف تبدأ الصلاة بين لحظة وأخرى.

قالت هانا من زاويتها:

- أنا قادمة، أنا قادمة.

كانت الكنيسة تنتصب بجلال فوق حقول منحدرة انحداراً خفيفاً. كانت نوافذ عالية مقببة تشع من جانبي قاعة الكنيسة كأصابع الله

العشرة. كانت الردهة تغص بالناس، بفلاحين، بمعاطف وقبعات مستديرة، خدم بلداء ببزاتهم غير المحكمة يعتمرون عمرات قبيحة ثمانيّة الأضلاع. كانت النساء يغطين شعورهن بخمار أو بقبعة. كان ذلك عام ١٩١٣. لم يعد الفلاحون حشداً يرتدي ثياباً خشنة. أصبحوا، منذ ذلك الحين، عامة الأرياف السويدية.

جهزت هانا والصغير أخيراً وامتزجت أسرة فيلناس المختلطة بالجمهور وصعدت ثانية إلى الباحة.

عبروا المدخل. كان الفلاحون الحاليون أنصاف المتعلمين يكتفون بنزع قبعاتهم المستديرة بخشوع هناك حيث كان أجدادهم يودعون سيوفهم أثناء القداس. كانت أرض المكان قد فرشت بالاسمنت حديثاً. كانت لوحة أو اثنتان جف طلاؤهما معلقتين على الجدار كذكرى لأسرة دانماركية نبيلة، وعلى مسافة خمس عشرة خطوة، كان باب السنديان الذي يؤدي إلى الكنيسة نفسها لا ينى ينفتح ويعود إلى الانغلاق. تمتمت هانا قائلة:

- فلنذهب إلى المنصة. الأورغات ستغطي، هناك، على صوت الطفل إذا أخذ يصرخ.

وافق سفن قائلاً:

- نعم، فلنذهب إلى هناك حيث لن يزعج القس.

وهكذا فعلوا. صعدوا، متلمسين طريقهم، السلم الحلزوني الذي كانت رائحة الأقدام تفوح منه. التقوا عليه أشخاصاً بدا عليهم الشعور بالحر وفاحت منهم رائحة التعرق كانوا قد غيروا رأيهم وعادوا إلى النزول. كانت الكنيسة تدوي بأصوات السقطات وبهمسات وسعال من الناس الذين كانوا يأخذون أمكنتهم.

صعد سفن وهانا أولاً. تبعتهما بيرتا التي كان مارتان يتشبث بتنورتها. كان خائفاً قليلاً. كانت بيرتا، في ذلك اليوم، على لطف رائع. تركته يتشبث، وكانت تنحني إلى الأمام للمحافظة على توازنهما معاً. فقد كان السلم صعباً.

أصبحوا، الآن، أمام باب المنصة. التفت سفن وسأل قائلاً:

- هل كلنا هنا؟

قالوا وعيونهم تغمز تحت الضوء المفاجئ المترنح:

- نعم، نحن هنا.

كانت هناك شموع مشتعلة حولهم، ولكن السقف كان عالياً. وكانت هناك، في كل مكان، عوارض وحواجز وأعمدة تشطر الضوء. كان قد بقي، هنا وهناك، على الرغم من الشموع، غسق أحمر مسود ثقيل.

كانت شمعة صغيرة تشع في النقطة التي كانت مقاعد المنصة تنحدر، عندها، نحو قاعدة الكنيسة. بالقرب منها، كان يجلس عازف الأورغ منحنياً على نتوء في جبل الأورغ الهائل. كان أصلع ويمسح، بعصبية، جمجمته بمنديل كبير مزهر كما لو كان يريد إخفاء صلعته تحت هذه الزهور. كان له عنق نحيل وأنف طويل، وكانت عيناه الكبيرتان تلمعان. وكانت أنابيب الأورغ منتصبة أمامه كظهر كهف بازلتي. وعلى الرغم من أنه كان عصياً على كل صوفية، فقد كان يبدو كأنه يرفرف بجناحيه في سفح جبل يغني.

وفي كل مرة كان يضغط، فيها، على دواسة في الكور، كان ذلك ليغوص حوالي خمسين سنتمتراً في الأرضية. لم يكن مارتان يستطيع

أن يحول عينيه عن هذا الرجل. كان يرى أنه يشبه طحاناً. ومن هنا، من وراء الأورغ، كانت الكنيسة تبدو طاحونة بقدر ما كانت تبدو كنيسة. لم يكن ينقص إلا الدقيق. ولكن طواحين الله تطحن ببطء.

أصدر جبل الله نغمة مرتعشة. أراد العازف أن يختبر، قبل الافتتاحية، نغمة أنبوب مائل كان يخلق له صعوبات. لابد أنه قال هيا، تبدو نغمة الرب في حالة جيدة اليوم. فلنأمل في أن تؤدي مهمتها.

ثم غاص بيديه في غابة مفاتيح الصوت وشرع، بيديه وروحه، في صنع صعود الافتتاحية. وشيئاً فشيئاً، أخذت الموسيقا المتلمسة والمشعة تتضخم حتى اللحظة التي تفتحت، فيها، كذيل طاووس وملأت كل الكنيسة. اكتسح خوف مبهم، مزمجر ومسكر روح مارتان من الكتفين إلى العقبين واختلج بطنه. كانت كرة تتكون في بطنه، كرة خوف خالص.

لم يكن، قط، قد أحس بشيء على هذا القدر من الغرابة. الكنيسة هي هذا إذن. أحس مارتان بأنه يختنق أو ينفجر تحت تأثير سبعة إحساسات متزامنة. كاد لقاؤه بالأورغ أن ينتهي إلى مغامرة عاصفة. ذلك أن فكرة مخيفة خطرت في ذهنه قبل أن ينتبه إلى ذلك وهو جالس هناك، عند ذلك أطلق صرخة. كان بكاؤه الثاقب والمرعوب يدوي كصوت دنس في عاصفة الأورغ. تملكته فكرة كونه جالساً، حقاً، أمام البلدية. كل هذا كان البلدية الحقيقية.

كان يصرخ بدرجة من القوة سمعه معها، على الرغم من الأورغ، فلاحان أو ثلاثة. نظروا إليه حانقين. وجه إليه سفن وهانا، أيضاً، نظرات غاضبة، وأمسكت بيرتا التي كان يمكن تبين كونها غاضبة برأسه وصرخت في أذنه:

- اسكت، ماذا أصابك؟

وأدارت نحوه أذناً حمراء من الغضب منتظرة رده. صاح قائلاً:

- هنا البلدية، ساعديني! ساعديني!

مالت عليه وصاحت:

- كلا، لن أساعدك أبداً أيها البكّاء!

وأحس، من جراء ذلك، مثلها، قدراً من الغضب سكت معه.

بعد الافتتاحية جاء نشيد الميلاد: «سلاماً أيها الفجر المقدس!». وقف الجميع لينشدوا وفعل مارتان مثل الجميع. ولما كان قد وجه ركلة إلى بيرتا انتقاماً منها، فقد نهض ووجد الأمن بين الجمهور. كان الجمهور ينشد أو يتظاهر بالانشاد. كان الناس واقفين كغابة، وهو عند أسفل الأشجار وكان ينظر إلى بيرتا ويتظاهر بأنه ينشد.

عند المقطع الثالث، بدأ يأسف لأنه ركلها. قال في نفسه:

- يجب أن يكون ذلك قد أوجعها.

حل العام الجديد.

كان مارتان قد بدأ يعتاد على فيلناس، يجد فيها، مزيداً من الحرارة. والآن، كانوا يعلمونه أنه سوف ينتقل. الحياة غريبة.

كان الأمر كما لو أنه قد رقد في سرير تصعب تدفئته. والآن، عندما اعتاد عليه وجد، فيه، الهدوء والحرارة، ينزعون عنه الأغطية.

كان سفن جالساً إلى جانبه كما لدى وصوله. أصبحت الدكة، منذ ذلك الحين، دكة الضمير الليلي، وكان كل شيء قد تغير كثيراً، كل شيء ما عدا قامته. قالت هانا متظارفة: ياله من رجل صغير. لقد جاء في الكتاب المقدس: «لا أحد يستطيع أن يضيف إلى قامته اصبعا». قال سفن:

- ولكنك امتلأت قليلاً.

كان ينظر، من فوق، باللطف المتوجب للوداع، إلى جسد مارتان النحيل الذي لم تكن، فيه، سوى رغبة واحدة: الذهاب إلى كارليفونيا.

تابع سفن قائلاً:

- ستذهب، إن صح القول، لدى أناس من الطبقة العليا.

وكانت هانا، ويداها على بطنها، تتصنع أوضاعاً، كما في البداية، عندما بدأت، بالنسبة لمارتان، البلدية، عندما كان العالم مقفراً وفارغاً.

كانت بيرتا جالسة على الكرسي الهزاز تتأرجح، تتأرجح لتطرد الانطباع الشاق الذي كان تحسه في نفسها الفتية. كان يمكن أن يقال

إنها كانت غائبة وحاضرة في الوقت نفسه. كانت جدائلها الطويلة معقودة، الآن، على رأسها. كان لها قذال سيدة في وسطه تجويف بنت صغيرة. قالت:

- سمعت أنهم طيبون

سأل سفن الغارق، كلياً، في أفكار الوداع:

- من هؤلاء إذن؟

- هؤلاء الناس، بالطبع، أهل تولين.

عندما تلفظت بكلمة «تولين» رفع مارتان عينيه. كان ينظر إلى الرسم على ورق الجدران: ثلاثة صيصان تحت شجرة نخيل لا تنتهي من نقر الحب ولا تكبر أبداً. ثم انصبت نظرته على نقش بافاري ملون. كان صياد رومنطيقي وردي الوجه يداعب وعلاً أتى على قتله. وكان يلمع، وراءه، حقل جليدي ليلكي اللون. ثم نظر إلى هانا التي كانت تقول متظارفة إن الأمر كان شاقاً، وتتراجع إلى الزاوية التي كان، فيها، سفن الصغير. قالت:

- أوه، نعم! سيكون الوضع، بالتأكيد، جيداً هناك.

وغاصت بنظراتها في المهد الذي كان ينام، فيه، سفن الصغير مغلفاً بأغطية وحب أم... قال سفن:

- سيكون الوضع جيداً، سيكون، بالتأكيد، جيداً.

وتابعوا على هذا النحو مكررين كم سيكون الوضع جيداً في تولين. دبقت أفكارهم ولم تعد تستطيع أن تنفصل عن جودة الحياة في تولين. قالت بيرتا من أعماق الكرسي الهزاز:

- الحياة تبتسم لك بعد الآن. أنت محظوظ. آه! ياله من مكان! يا إلهي، يا إلهي، كم سوف يدللونك!

وزايد سفن قائلاً:

- هذا صحيح، ليس هناك ما تخشاه.

لم تكن هانا تقول شيئاً. كانت تكتفي بالاشعاع بحب الأم. كانت تستمتع به، الحب الأمي كان مفيداً لها. في الصميم إنها، هي نفسها، التي كانت في المهد.

بعد الظهر، رحل مارتان. صحبته بيرتا أكثر من خمسة كيلو مترات. وعندما لمحا، من مرتفع، بيت المزرعة الجميلة الأبيض في المشهد المزرق، ودعته.

ظلا برهة متدثرين بالصوف (لم يكن قد برد في فيلناس على الأقل) وأيدي الوداع ماتزال في القفازات ينظران في اتجاه تولين، في اتجاه المكان الذي كان سيذهب إليه. كان البيت المتميز المطلي بالبياض يبدو بعيداً إلى حد كان يلمع، معه، كبيضة. قالت:

- أنت ترى كم هو جميل.

قال:

- نعم، نعم.

كان يحس بالامتنان حيال الثلاثة، بيرتا وسفن وهانا. لقد بذلوا، بالتأكيد، جهوداً. لقد فكروا، بالتأكيد، في مستقبله في العالم الواسع. أحس حالاً، وهو يتذكر الماضي، أنه أكبر عمراً. استمد من أعماق الذاكرة شيئاً من الشجاعة يمكن أن يحتاج إليه.

أخيراً، مدت له بيرتا قفازها الذي كانت يدها مازالت فيه. كانت عيناها العاقلتان تبرقان بإشعاع عنيد، بتجرد طفلي تقريباً. كانتا، أيضاً، قبل الأوان، مشحونتين بالعقل. بماذا كانت تفكر ابنة الخمسة عشر هذه التي كانت، هي نفسها، ابنة البلدية؟

ذات مرة، اجتازت به البوابة إلى فيلناس. والآن هي التي كانت تخرج به منها. كان شعرها معقوداً على رأسها، ولم تعد عقدة شعرها، الآن، تستريح في يدها. كانت، اليوم، مبعوثة ضمير فيلناس، ومهمتها كانت أن تستبعده بقوة المحاكمات، على اعتبار أنها هي التي كانت تفهمه، وهكذا دواليك. هذا ما كان عليه الأمر تقريباً. كانت ابنة الأعلى، وكان ابن الأسفل.

- ايه نعم.

نظر إليها، وتبادلا الوداع طويلاً. لم يكن هناك ما يقال. ولكنها من حيث أنها مازالت طفلة تقريباً، كانت تفهمه بوصفه طفلاً، خاصة في برهة الوداع هذه.

فجأة، قالت:

ذات يوم سنصبح كبيرين، أليس كذلك؟ وعند ذلك، ماذا؟ في تلك البرهة سيكون هناك شيء آخر! سنذهب إلى العالم الحقيقي، إلى مينيسوتا، إلى بوميرانيا. السنوات ستمضي سريعاً: هوب، هوب، هوبلا!

خطت بضع خطوات حول مارتان طاوية ركبتيها لتريه السنوات التي كانت تمر ثم صفقت بيديها.

- وهوب! ها أنت بحار في البحرية... أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أنجزت دورة كاملة في اتجاهه، كما لو كان يملك ما يكفي من العقل ليقدر، ليصيح. أحسنت، وعلى الرغم من كل شيء، سرت عندما رأت فمه ينفتح ليضحك كاشفاً عن الثقوب الوردية التي خلفتها أسنان اللبن.

كان يميل إلى الأمام وينقلب إلى الوراء ليضحك، وضحك طويلاً،

كعفريت في الأساطير. كان يضحك من الطريقة التي قلدت، بها، بيرتا السنوات التي تمر، هوب، هوب، هوبلا! حتى البحرية. قال وهو يبتسم في الهواء الجليدي:

- ايه نعم، ذات يوم سأكون بحاراً في البحرية.

ضمن هذه الحالة النفسية تبادلا الوداع. ربتت على ظهره بقفازيها بسرعة من أجل أن لا يغير مجرى فكره، من أجل أن لا يعود القهقرى. شرعا في السير ضاحكين، كل منهما في اتجاهه. هل كان الأمر يجري جيداً؟ من وقت إلى آخر، كانت تلتفت لترى ما إذا كانت الأمور جيدة. نعم، نعم، كانت الأمور على ما يرام. من قمة الهضبة، كان أمام كل منهما انحدار. وبصرخة عالية، سلاماً، سلاماً، رأته يختفي وراء الذروة.

عند ذلك بكت، بكت من أجل نفسها، من أجل نفسها فقط. كان تمثيلها الايمائي قد نجح.

في الساعة نفسها، بدأ الشتاء، الشتاء الحقيقي. ارتعش الخلنج في الريح وبدأ الثلج في الهطول.

وفي السماء، كانت ينابيع الوحدة الصامتة تلقي على الغابة والأرض البراح صوفاً جليدياً لطيفاً.

مزرعة تولين

كانت تولين مزرعة مدارة جيداً، مغطاة بالشهادات. كان الابن قد أتم دراسته في معهد زراعي، وكان يدعى ولهلم. كان في رأي الجميع، ظاهرة. كان ولهلم رجل تقدم ورجلاً عملياً. وكان، بفضل منحة، قد أمضى تدريباً لمدة سنة في ملكية كبيرة في شليسفيغ. كان يعبد استدعاء ذكرى هذه الفترة. كان يتحدث، على المائدة، عن الأرض، وعن الأرض وطرائق الزراعة وأنواع البذور المختلفة. وفي حين كان الطعام يبرد في طبقه، كان ينطلق في شروح نصفها غير مفهوم ومرصعة بمصطلحات تقنية. كانت هذه الشروح المنقولة، غالباً، عن محاضرات المدرسة الزراعية موجهة إلى غونار، أبيه، ودائماً الأب المطيع لابنه.

– ماذا تقول لو أخذت، هذه السنة، من بتكوز بدلاً من بروبستاير؟

كان الأب يبطىء في الجواب محاولاً أن يتابعه. ثم يقول بصوت رقيق:

– ألا نتدبر الأمور مع بذور النجوم للشعير؟

وكان ولهلم يؤكد قائلاً:

– لايمكن، أبداً، المبالغة في مزايا بروبستاير. ثم يدلي بخطاب. كان هذا الأخير يبدو موجهاً للأب حصراً، ولكن المرء يحس بأنه لو لم يكن هناك شخص آخر يصغي إليه بصمت لكانت محادثتهما أشد اقتضاباً. كانت الابنتان غونفور وهيلفيغ، وهذه الأخيرة كانت تتولى

شؤون البيت منذ وفاة الأم، تلتزمان الصمت دائماً. ولدى أدنى ضجة للصحون، كانت نظرة ولهلم المستاءة تنقض عليهما. على طرف الطاولة، كان هناك صعلوك غبي وساذج: مارتان، ربيب البلدية. كان مارتان يأكل في صمت فأر. الناس في تولين كانوا «متميزين» فينبغي أن يكون، في كل لحظة، «متميزاً» إلى أقصى حد.

مضى عليه، الآن، خمسة أشهر في تولين تحت وصاية الزراعة والتقوية* المزدوجة. كان عالماً جديداً تماماً على مارتان – صافياً، عملياً، وذا مسيحية على الطريقة الأمريكية. لم يكن يفهم بالطبع، وكان يحس، فيه، بعدم الارتياح. كانت الروح «الزراعية»، مجسدة في ولهلم، تنتشر فيه كتعقيد لا نهاية له تحت شمس الصيف وكانت التقوية تتوافق معها جيداً: الزراعة على الأرض والتقوية من أجل السماء. كانت تسقط من السماء، أحياناً، حبات برد تقوية كبيرة تحمل على التفكير في الخزف.

كان كل شيء نظيفاً في تولين. لم يوفروا الطلاء الأبيض والملاط الكلسي. كانت الساعة نفسها، وهي ضيقة وعالية، مطلية بالأبيض. كانت واردة من داليكارليا، ولكنها لم تكن تذكر بفلاحة من هذه المقاطعة بقدر ما كانت تذكر بسيدة ممشوقة القوام.. كان الرقاص يلمع في بطن الساعة الضيق والمتميز. وكانت الساعة، من أجل الإشارة إلى الساعات، تضع يداً على ثديها وتسمع أنة لطيفة ومترجرجة، دين غيلنغ، دينغ – دونغ. في الحجرة نفسها، كان هناك بيانو. كان ينعكس بابنوسه الأسود على الساعة. كانت هذه تقول: شاهدوني! شاهدوني!

وهكذا، وفي مزرعة تولين التي كان غياب الحب يلمع، فيها، أبيض

* مذهب ديني بروتستانتي ظهر في القرن السابع عشر يلح على قراءة الكتاب المقدس والتجربة الدينية الشخصية.

كالثلج، وسط هذا القدر من النظافة والتميز، بحث مارتان عن ملاذ في الأساطير، على نقيض حالته الذهنية في فيلناس. كان سيسر باستعادة رؤاه، كان سيحب كثيراً أن يداعب قامة سيدة الساعة، سيدة بيضاء كحلم.

ولكنهم لم يكونوا يدعونه، أبداً، يدخل إلى الغرفة. كانت غونفور تقول له:

- هذه غرفة الضيوف. مارتان يجب أن يلزم مكانه. لاتنسَ ذلك.

أوه! كلا! إنه لم ينسه أبداً. لم ينس، أبداً، هذا الانعدام للحب المرتب جيداً، النظيف والوقور والذي يأمر دون انقطاع، هذه الغرفة التي كانت، دائماً، مضيئة، مطلية، حديثاً، بالأبيض. كانت تلك في طفولة مارتان أكثر الذكريات ضياء.

لم يعودوا يرفعون الكلفة معه. كانوا يقولون «مارتان»، «مارتان يجب أن يلزم مكانه. هذه هي القاعدة هنا، لاتنس ذلك».

ذات مرة، سمعهم يسمّون، مازحين، غرفة الضيوف «البحر الأبيض» من الاسم الذي يطلق على صالة قصر ستوكهولم. كان ذلك على المائدة ذات يوم حين قطع ولهلم، أمام دهشة الجميع، لبرهة طويلة، الخطاب الذي كان يوجهه إلى أبيه عن مختلف أنواع القمح والشوفان والحمص والشمندر واللفت والملفوف.

ضحكوا، جميعهم، بأناقة، على هذه النكتة. ضحك مارتان أيضاً. كان يفيد من البرهة التي كان مسموحاً له، فيها، بأن يضحك حتى الشبع.

نظروا إليه، وكانت نظراتهم تضمر سؤالاً واحداً. هل كان من اللائق

أن يضحك مارتان إلى درجة الشبع من هذا «البحر الأبيض»؟ رسم ولهلم أجمل ابتساماته كرجل مهذب ومثقف.

- هل وجد مارتان، إذن، هذا مضحكاً إلى هذا الحد؟

سكت مارتان وهو ينضح عرقاً، لقد عاد التوازن.

كان يمكن أن يفترض أنهم لم يكونوا يؤون ربيب البلدية هذا حباً به، بل لأسباب اقتصادية. كان يمكن أن يظن، أيضاً، أنهم كانوا قد أحبوه عن بعد، قبل أن يروه. ويمكن، أيضاً، احتمالاً، أن يجري التفكير كما يلي:

يمكن أن يكونوا قد جلسوا حول النار في نهاية الخريف، ويمكن أن تكون الكلمات قد خرجت من فم هيلفيغ، مثلاً، تقول:

- كم سيكون مسلياً أن يكون هناك صبي صغير يركض حولنا ضاحكاً ولاعباً. وفضلاً عن ذلك، يمكن أن يكون مفيداً.

ويمكن أن تكون غونفور قد قالت:

- نعم، ليست هذه فكرة سيئة. آه، نعم! بل أنها، حقاً، فكرة جيدة عندما أفكر فيها.

ويمكن، حقاً، أن يكون غونار قد قال:

- وأيم الحق! هناك صبي ربيب للبلدية. لقد تحدثوا عنه في المجلس. سيكون شاغراً في أول السنة الجديدة.

عند ذلك، يمكن، جيداً جداً، أن يكون ولهلم قد قال وهو يتثاءب لأن الوقت كان متأخراً:

- نعم، لمَ لا؟ يمكن أن نجرب دائماً.

كل شيء كان، إذن، قد بدأ - هذا ما كان يمكن افتراضه - في جو

دافئ وأمي نسبياً برد، بعد ذلك، لدى غونار ليهبط، سريعاً، لدى ولهلم، إلى درجة الصفر. كل ذلك يمكن أن يكون قد جرى، شيء وضع موضع العمل في حين كانت النار تهر: لحظة عاطفية صغيرة أمام المدفأة، تحت صورة الواعظ التقوي والدنستروم.

كـانت مـهـمـات مـارتان من كل الأنواع. فـفـضـلاً عن الاعـتنا ء بالاصطبل، كـان عليـه أن يقطع الحطب للشتـا ء. كـان يتـعـرق لدى شق خشب البلوط الذي صنع منه ثلاث كـومـات عـالية في باحة الاصطبل، عالية إلى حد لزم، معه، سلم لتتويج القمة. وكان الحطب يلمع خلال عدة أسابيع كالخبز الأبيض قبل أن يبدأ في التأكسد.

بيّن غونار لمارتان كيفية العمل بالنسبة للكومة الأولى. بعد ذلك، عرف كيف يعمل. كان ذلك جميلاً جداً. كان كبنا ء بيت.

كان يفضل ذلك على عمل العلف. وبالطبع، فإن ما كان يحبه أو لا يحبـه كـان أدنى همومـهم. هنا لايمكن سوى تبين ذلك: لم يكن عـمل العلف يعنيه كثيراً.

يتحدثون في كتاب القرا ءة، في المدرسة عن فتنة اعتلاء كومة علف في العربة. ولكن ذلك يجري في الكتاب. الواقع هو أنه لم يكن يجري الذهاب بعـيداً مع العلف، بل كان يؤخذ أقصر الطرق لحمل العلف إلى الأهرا ء؛ كان العمل يستغرق سبعة أضعاف المسافة. كان مارتان يكره هذا النظام، ويكره الملمس المدغدغ للعلف الجاف على جسمه في حرارة الشـمس. وكـان الإلقـا ء بالعلف فـي العـربة يشـبـه القـتـال ضـد عناكب عـمـلاقـة. لم يكن هناك، في العـالم، مـا يعـادل العلف في يـبوسـتـه والتصاقه وكآبته.

ذات مرة، شاركت بنت في العاشرة من عـمرها ، من مزرعة مجاورة،

في العمليات. كان عليها، هي ومارتان، تكويم العلف داخل الأهراء. كانت رزم العلف تمر إليهما، داخل الأهراء، بالمذراة، فتقع بكل شوكها وتخمش سيقانهما العارية. كان مارتان يدوس حزم العلف بنوع من الفرح الحاقد. كان العلف محزوماً جيداً، وكان يمقت العلف.

كانت كومة العلف تلمس سقف الأهراء تقريباً. وخزت البنت شوكة وتطوع مارتان لإخراجها. اقترب بعينيه من أسفل قدميها - ولكن الزحام كان قد اكتمل، من قبل، عند القمرة. وعلى الفور، هتف أحدهم قائلاً:

- قولا، أنتما هناك، في العالي، ما عبثكما هذا؟

كان هذا ولهلم. ومن جديد صرخ قائلاً:

- هيا، هيا، ماذا تفعلان في العلف؟

في اللحظة نفسها، سد القمرة. لم تعد رؤية الشوكة ممكنة.

كان الأمر هكذا. فالأطفال كانوا مشبوهين في أي شيء تقريباً. أما كون الوصول إلى ما كان مضمراً قبل قليل يقتضي زمناً هائلاً وتحضيرات كثيرة، فهذا ما لم يكن يخطر في بال الراشدين. كان الأطفال موضوعين تحت الرقابة كالجرذان التي كان يمكن لها، في زواياها السرية، أن تقرض الأخلاق حقاً.

جرت، بعد ذلك، أشياء كثيرة، ولكن مارتان انتقم - في شخص هيلفيغ - ذات يوم، فيما بعد خلال الصيف. تظاهر بأن شيئاً دخل في عينيه وألقى بحزمة في وجهها، مع العيدان القاطعة موجهة نحوها. قال:

- أوه! عفواً، عفواً.

ولكنه لم يكن يعني كلمة مما يقول.

في ذات يوم، جاءت شقيقته فيران - كان قد نسي أن له شقيقات. لم تفعل زيارة فيران شيئاً خلاف المزيد من التعتيم على نظرته. زاد مارتان اشفاقاً على نفسه أيضاً. كانت تلوّح له بأمل في أيام أفضل ولعب.

كانت قد احتفلت، أخيراً، بمناولتها الأولى، كما قالت، وسوف تذهب إلى كارليفونيا. فأمهم كانت قد أرسلت إليها بطاقة السفر. وقالت:

- سوف تساعدنا، جميعاً، في الانتقال إلى الجانب الآخر.

إلا أنه ها هو الأمر الذي بدأت أهميته تنخفض بالنسبة لمارتان. ما كان يريد، منذ ذلك الحين، أن يراه هو الهنود الحمر أكثر مما يود أن يراها، هي.

دعيت فيران، بالطبع، إلى تناول القهوة. سمح لمارتان بأن يقضي نصف يوم مع شقيقته. كانوا جالسين في غرفة الضيوف. كان بحر تولين الأبيض يلمع في الشمس الربيعية. كانت إحدى النوافذ مفتوحة، والستائر تخفق في تيار الهواء، كمناديل وداع لدى إقلاع إحدى السفن. قدمت هيلفيغ القهوة وجلست مع غونفور حول الطاولة الجميلة الصغيرة. كانت فيران تعامل كند، كسيدة صغيرة ستسافر بعيداً. لقد تحررت، منذ ذلك الحين، من لعنة البلدية، نعم. وكان مارتان، بوصفه أخاها الصغير

يتمتع بالحظوة نفسها، ملكاً لنصف يوم، وهو ما لم يمنع فيران المشغولة بالتباهي أمام هيلفيغ وغونفور من أن تهمل أن تكرس له ولو دقيقة واحدة.

كان ينبغي أن يكون قد ورث سمات الطبع نفسه لأنه، هو نفسه، أخذ في التباهي. وها هو، الآن، في قلب بؤسه الكادح والمقعد، يتصرف تصرف «طفل مدلل». ومضى إلى البيانو ونقر عليه بغباء لأن هذا كان يعني «الأناقة».

ما الذي ستقوله فيران عن مثل هذه الوقاحة. كانت هيلفيغ تبدو مرتبكة إلى حد مقبول، ولكنها لن توبخه وسط مراسم الوداع.

كان ينقر على البيانو ويلقي، بين حين وآخر، نظرة على فيران ليرى ما إذا كانت تتبين إلى أي حد كان «مدللاً». وفي النهاية، مل من هذه الموسيقا المثيرة للأعصاب، وأخذ يتزحلق وهو جالس على مقعد البيانو. كان يتصرف بصورة دنسة في «البحر الأبيض» الذي لم يكن يحق له، عادة، أن يلقي عليه ولو نظرة. كانت هيلفيغ محمرة كالودح، وهو ما كان يبرز، بصورة طريفة، شعرها الأشقر كالشعير. كانت غونفور جالسة متشنجة كجثة. قالت متوجهة إلى فيران، كما لو كان ذلك لتحويل الانتباه:

– أتريدين مزيداً من القهوة؟

وشربن كوباً آخر..

أخيراً، نهضت فيران لتستأذن. كانت في السنة الخامسة عشرة من عمرها، وكانت تبذل جهوداً غير واثقة لتتصرف كسيدة. كانت، وقد أصابها الدوار وتحمست تماماً لرحلتها إلى كاليفورنيا، لطيفة ومضحكة

في الوقت نفسه. كل هذه الأقوال التي أدلت بها بـ «لياقة» كانت قد نسيتها بمجرد أن قالتها. لم تكن لتستطيع، قط، أن تقولها ثانية لأنها كانت أكاذيب. كانت قد كذبت حين تحدثت عن بيتهم «المتميز» كثيراً جداً، وجملت الأشياء استرجاعياً.

ركض مارتان الذي كان قد توقف عن الدوران على مقعد البيانو، عبر القاعة، نحو مجموعة الوداع. ولما كان قد تخيل أنه فعل كل شيء بأفضل صورة، فقد ابتسم ببلاهة.

عندما كبر مارتان، لم يتذكر، طواعية، المهزلة التي مثلوها في غرفة الضيوف في تولين. وإذا اتفق له أن يتذكر، فإن ذلك كان ليخجل من نفسه. بقي هذا المشهد والتصنع الأخرق الذي ميزه إحدى أشق الذكريات في حياته.

وجد مارتان وفيران نفسيهما غريبين تماماً، وافترقا، كما كان ينبغي، بمصافحة متبوعة بوداعات، وبتفاخر أخير من جانب فيران بالطبع. كانت آخر كلمات سمعها تتلفظها:

– سوف أرسل لك ألعابا، جياداً، علب ألعاب إنشائية وكل ما سوف تريد. سأرسل لك كتباً وسوف أكتب إليك.

وها هي قد رحلت. لوحوا بأيديهم، وداعاً وداعاً.

وما أن لوحوا بأيديهم تلويحاً كافياً وأصبحت خارج متناول البصر، حتى بدأت هيلفيغ وغونفور توبخانه. بينتا له، ثانية، أن عزفه على البيانو بهذا الشكل وتحركه بهذه الصورة على مقعد البيانو كان خارج الحدود المقبولة.

هيا، إذن، ألم يكن هذا ما توقعه؟ لقد جعل من نفسه أضحوكةً.

ولكن هذا لم يكن كل شيء. كان يبدو محتالاً في نظر ذاته، وهذا ما كان قد تبينه منذ ما قبل توبيخاتهما. لم يكن الأمر يدور، في نظره، حول ترهات، حول معرفة ما هو «مناسب». وبعد ذلك، كان يفضل أن يتلقى مائة صفعة على زيارة أخرى لفيران من النوع نفسه.

لم ترسل، أبداً، ألعاباً ولم تكتب، قط، رسائل. أخت بوميرانيا وجهت، مرتين «أطيب ذكرياتها». وكانت آخر رسالة للأم هي تلك التي كان قد تلقاها في شهر تشرين الأول في فيلناس. كانت إينيز تظهر له، أحياناً، في الحلم. وعلى الرغم من كونها ميتة، فقد كانت الوحيدة التي اهتمت به.

على هضبة غاستا، كانت تنتصب طاحونة هواء وسط أشجار سنديان معمرة. كانت أشجاراً قديمة بدا أنها تريد أن تصبح في ضخامة الطاحونة.. ذات مرة، شنق على أغصانها «أوغاد»، بصفوف كاملة كأسماك الرنكة المملحة. كان ذلك في الأزمنة القاسية. ولكن الأزمنة القاسية قد ألغيت، كلها تقريباً، في القارة. لقد بقيت، بعد الآن، في الصين وسيبريا ومقدونيا والمكسيك والكونغو. كان الطحان يستطيع أن يلزم طاحونته ويقرأ قصتهم مرتعشاً وحاكاً ظهره بيديه الطويلتين المعتادتين على عجن الدقيق، منحنياً فوق كتب غرفة الجلوس الحسنة الترتيب العديدة. كان أرملاً منذ سنوات عديدة. احترق بيته، ولكن الريح كانت قد حولت اللهب عن الطاحونة. كانت بضع شرارات، فقط، قد لحست جدرانها. وما عدا ذلك، فقد وفرتها. فقد استطاع أوغست، إذن، أن يحافظ على طاحونته ويسكن فيها لأنه لم يكن يملك ما يستطيع، به، أن يبني بيتاً آخر.

في ذات مرة، وفي وقت متأخر مساء، وفي حين كانت الطاحونة تبرز على خلفية السماء التي كان القمر يميزها، جاء إليها مارتان يحمل رسالة من المزارع. كان هذا الأخير يطلب من الطحان أن يأتي ليقوم بعمل يوم. كانت مبادلة قد عقدت بين مزرعة تولين ورجل الطاحونة الطيب: حاجات أوغست السنوية من البطاطا والحليب لقاء خمسة أيام

عمل. لم يكن هذا الترتيب تعسفياً، ولم يكن أوغست ينفر من العمل. كانت لهمومه ومخاوفه أسباب أخرى حقاً.

وكي نبدأ، فإن الناس لم يعودوا، أبداً، يطحنون حبوبهم في الطاحونة. فقد كانوا يمرون ويحيون بود ويذهبون إلى الطاحونة الممكننة: منشأة بست عشرة نافذة في الواجهة، وأربع عشرة في الخلف، وثمان على الجانب الشمالي وست على الجانب الجنوبي. لم يعد يمكن، في مثل هذه الحالة، حتى الكلام عن منافسة. كان يمكن، فقط، أن يقال إن الله، في نعمته الكهربائية، قد استدعى إليه طاحونة الهواء القديمة، وتحولت الطاحونة الغربية إلى نصبها الجنائزي الخاص فوق الهضبة.

لم يعد لأوغست سوى ستة أو سبعة زبائن، أي ستة أو سبعة كانوا يشفقون عليه. كان من النادر، منذ ذلك الحين، أن يرى طائر أوغست العملاق يخفق بجناحيه في العالي، ولكن مالك الطاحونة ذات المحرك كان يسمن، وكان جلده يلمع كما لو كان قد صقل بالحليب. كان يدعى المعلم الطحان، وكان يجسد الأزمنة الجديدة.

كانت هناك ثلاثة أبراج في المنطقة:

الأول، الطاحونة الغربية، وكانت برجاً محتضراً.

الثاني، برج تولين الهوائي المصنوع من الصفيح المغطى بطبقة زنك، وكان نموذج برج انتشر من مصنع ميسوري إلى كل سهول العالم القابلة للزراعة.

الثالث، كان برج محوّل - تيار عالي التوتر، خطر الموت - ينتصب في حقل، مطلياً بالأحمر، برجاً عالياً، سراً حديثاً يصهل كمهر ويحمل، في جبينه، تاج عوازل من الخزف الأبيض. كان مهندسو العالم بأسره

ينقلون إليه القوة بأسلاك هاتفية. كانوا زمام البرج.

وها هو مارتان يأتي إلى الطحان. قال:

- مساء الخير. جئت من طرف...

قال الطحان:

- فهمت. يطلبون مني القيام بيوم عمل، قل لهم إني قادم. أنا دون عمل، دون عمل واحد. فليأذن الله بأن تقرر الرابطة الإقليمية أن تشتري كل طاحونتي كما قالوا. سبعمائة نقداً وتعقد الصفقة.

كانت عيناه مثبتتين على الأرض كما لو كان يتساءل عما إذا كان يجب أن يفضي إلى الصبي الصغير بجحيم حياته. وفي النهاية حزم أمره:

- إنها الطاحونة الآلية الشيطانية هذه، أنت تفهم، هذا الوغد هراس العصيدة هناك، هذا النذل الصناعي. كان الشيطان سيأخذه لو كانت هناك عدالة في العالم.

حاول مارتان، بالقليل من المحاكمة الذي كان لديه، أن يرثي لعدم وجود مثل هذه العدالة. وعبر عن ذلك كما يلي:

- نعم، أجد أن هذه الطاحونة الآلية لا تطحن دقيقاً جيداً كما ينبغي.

كان هذا شيئاً لم يكن يعرف عنه شيئاً أبداً. كان يفترض.. قال أوغست:

- نعم، أعترف بأنها الشيطان.

قال مارتان بتهيب:

- نعم، هو ذاك حقاً.

دفع أوغست أمامه كرسياً قديماً وقال:

- اجلس يا صغيري، أنا لم أمت بعد. أتريد شريحة؟ لدي خبز ومارغارين.

قال مارتان:

- شكراً، أكلت منذ قليل.

قال أوغست:

- كما تريد. ولكنك تستطيع الجلوس لأقول لك من هم أوغاد الأوغاد هؤلاء.

جلس مارتان. لم يكن خائفاً من أوغست. فلم يكن هناك من هو أقل إثارة للخوف من أوغست اليائس في طاحونته المفلسة. قال أوغست بلهجة من يفضي بسر، هامساً تقريباً:

- هل تفهم؟ هذا الوغد لعب بالبورصة.

كان يتحدث بلهجة فيها من الغموض ما جعل مارتان يتراجع على كرسيه. لعب بخصيته ؟ وماذا كان يفعل هو نفسه أحياناً؟ اجتازته رعشة أخفاها وراء ابتسامة: اللعب بالخصية*.

كان الطحان جالساً أمامه وينظر إلى مارتان من خلال نظارتيه. كانت إحدى البلورتين مشروخة. هل لاحظ أن مارتان قد فزع؟ كان مارتان خجلاً إلى حد شعر، معه، برجفة في ظهره.

أوضح الطحان بلطف:

- أنت تفهم، هذا الوغد لعب وضارب بأسهم، بأوراق، وسرق الفقراء. هذه هي الطريقة التي اغتنى بها.

---

* في هذه العبارة لعبة على الألفاظ . فكلمة Bourse تعني السوق المالية كما تعني الخصية . وواضح أن مارتان فهمها بالمعنى الثاني . (المترجم) .

تمالك مارتان نفسه حالاً. فهم، الآن، أن الأمر لم يكن يدور حول هذا. سعل وقال:

- حقا! آه نعم! الأغنياء مخيفون.

في الحقيقة، كان ذلك نفاقاً. فلم يكن يجد الأغنياء مخيفين بالمرة. على العكس من ذلك، كان يرى الأشخاص الأغنياء لبقين ومتميزين، كان يرى أنهم وحدهم النبلاء حقاً. فهم نظيفون، طيبو الرائحة، بأجمل الملابس، يركبون العربات دائماً. ربما استطاع ذات يوم أن يركب عربة مع الأغنياء.

لم يكونوا في تولين أغنياء إلى هذا الحد. ولكنه كان يقال إنهم إذا استمروا فيما شرعوا به، فسوف يصبحون أغنياء. هذا ما كان قد سمعه يقال.

أوه نعم! كان يحب الأغنياء.

قال الطحان:

- أوغاد! هذا ما هم عليه.

كان يتابع مجرى أفكاره. قال مارتان:

- نعم، يجب شنقهم.

كان قد سمع هذا الاقتراح من فم فقير. في هذه اللحظة، كان مناسباً. كان ينظر إلى الطحان بانتباه على أمل أن يكون محبباً إليه. ولكن الطحان الشريف والحانق هز رأسه وقال:

- كلا، لسنا في حاجة إلى المضي حتى شنقهم. كلا، بحق الله، يكفي وضع صاحب المحرك هذا في السجن.

اتفقا، في النهاية، على هذا الحل: في الخيال. ثم افترقا.

سار مارتان، في ضوء القمر المترنح، «نحو البيت». عندما اجتاز بضعة أمتار، سمع صوت الطحان يقول:

- هل تقرأ؟

- نعم.

سمع صدى إجابته يتردد في الطاحونة المحكوم عليها.

- في هذه الحالة، تعال ذات مساء لتختار كتاباً.

- شكراً.

هكذا بدأ مارتان يقرأ: معسكرات الموت في سيبريا، رواية إخبارية (١٢٠٠ صفحة)، زوجته الثانية (٢٠٠٠ صفحة)، حياة خوان موريرا الشجاع ومعاركه (مترجمة عن الاسبانية ومزودة بصور غنية) والزوجة الشرقية، وهي رواية إخبارية (١٤٠٠ صفحة).

وفي الشهر نفسه بلغ العاشرة من العمر. بطبيعة الحال لم يكن يجري شيء أبداً.

بلى، كان يجري العمل والروتين وانعدام الحب، وكان مارتان يظن نفسه، دائماً، مركز العالم، اشفاقه على ذاته أصبح أسوأ مستبد به، وغدا تركز الآخرين على ذواتهم مشكلتهم الخاصة.

كان يبكي برتابة لا متناهية كمطر الليل، وكان يسمع دموعه تسيل في حين لم يكن المطر، وراء النافذة، ينتهي.

هكذا أضاءت ليال عديدة بين أشجار الزيزفون، وهي أشجار رائعة، ذات جمال إلهي كان يمكنها، هي وحدها، أن تولد الدين والحب.

ولكن الأمر كان كما لو أن غبار علف قد دخل في عيني مارتان. لم يكن يستطيع أن يرى شيئاً إذا لم يبين له الآخرون أنهم يرونه، هم أيضاً.

كانت تلزمه الصحبة كي يرى. كانت كلمة واحدة يوجهها إليه ولهلم تكفيه، ولكن هذه المحادثة الخاصة، رفع الكلفة هذا الذي ينصب على أمور صغيرة مثل «كيف حالك اليوم؟» أو «ماذا تقول، أنت، في شقائق النعمان، لماذا لا نزرع لفتاً من نوع بور تفيلدر؟»

هذه الأشيـاء لم تقل. لم يكن ذلك من طبع ولهلم. كان صادقاً ومهذباً، ولم يكن يأخذ بعين الاعتبار الأمور الصغيرة ولا الكبيرة إلى حد مبالغ فيه. كان يأخذ في حسابه الآرات والأيام والنظام والضرورة العملية. لم يكن هناك ما يدهش لو علم أنه كان لديه، بالضبط، خمسة آلاف متر مربع من الصدق وثلاثة أرات ونصف الآر من الإيمان. كان لديه متر يقيس به أباه ومقياس قدم يقيس به شقيقتيه وسنتمتر للخدم وبوصة للخادمات، وكان يقيس بالميلمتر ربيبي البلدية.

ما الذي كان يفهمه مارتان من كل هذا؟ لاشيء. كان يحس بكل بساطة، كان يحس إلى درجة الإشباع بأنه كان هنا، في تولين، ملكاً لهم. كان شيئهم، دون أن يعنيهم ذلك، بسبب نزوة كتيمة بشكل مطلق. ولم يكونوا يفهمونه. لم يكونوا يفهمونه أكثر مما يفهم الصفر الصفر.

كان، خلال ليالي الصيف، يقرأ في السرير روايات الطحان: قصص قطاع طرق وأبطال مرئيين من خلال أكثر المناظير ابتذالاً. كانت الزوجة الشرقية محاطة بغابة كاملة من الفسق. أوه! هذه الألوف من صفحات المغامرات المثيرة، كان يلتهمها بسرعة. كان ينام ورأسه مثقل بانفعالات متكوماً في سريره كشقي أصابته رصاصة. ثم كانت الكوابيس تستولي على نفسه الخائفة.

في ليالٍ أخرى، كان يبكي. كان يلتف بالاشفاق كما لو كان يلتف

بغطاء سمي «مارتان المسكين». عند ذلك، كان يرى النجوم. كانت أوريون تلمع في السماء كشهادة ولهلم الزراعية. وكان المحرك الهوائي يمد عنقه ويقطع الهواء، دون كلل، بشفراته المصنوعة من الصفيح المطلي بالزنك. ولو مرت بجعات من هنا، فإنها كانت ستقطع أعناقها.

بائع السلال الذي كانوا يسمونه «اطلب دائماً»، وصل، ذات يوم، إلى المزرعة. كان قادماً من أرض الخلنج. سمح له بقضاء الليل في مخزن داخل الأهراء. قال مارتان، في داخله، إنه كان يجب ترك الرجل الطيب في بيت السكن. ولكن الأمر كان ما كان، وكان مارتان يرى أن كل شيء كان أقل جودة منه في فيلناس. منذ ذلك الحين، أصبحت لدى مارتان مادة للمقارنة. فيلناس، يا إلهي، كم كانت جيدة! آه لو يذهب...؟

وفي المساء، بعد انتهاء العمل، اجتاز البوابة، ومضى في الدرب بخطا مترددة. كان ذاهباً للقاء بيرتا.

كان ولهلم في الباحة. صاح به:

- أين أنت ذاهب؟

قال مارتان:

- لقطف بعض الزهور.

انحنى على العشب على حافة الطريق وأخذ يقطف بضع نبتات مغبرة. كان سريع الاستعداد للكذب. قال ولهلم بلهجة ودية تقريباً:

- تستطيع أن تفعل هذا يوم الأحد. الآن سوف نأكل، ثم إلى السرير.

عاد مارتان على خطاه بتثاقل. كان يمسك في يده ببعض سيقان

الهندباء القبيحة التي انهكتها الريح. وعند البوابة، تركها تعود إلى الوقوع في الغبار واحدة بعد الأخرى. كان ولهلم ينتظره على سلم المدخل. تقدم مارتان نحوه، تحت بصره. ثم دخل. كان الطحان، من قبل، على المائدة مع الآخرين. دخل ولهلم، بدوره، إلى المطبخ وأعطاهم أوامر من أجل الغد. هز الطحان رأسه، وهو يمضغ، ليبين أنه قد فهم. جلس مارتان وأخذ يتظاهر بالأكل.

في نهاية الصيف، حصل مارتان على عطلة في أحد أيام الأحد.

اقترحوا عليه أن يذهب ليرى المكان الجديد الذي سيعيش فيه: مزرعة نوردا التي كانت توجد منعزلة وراء بحيرتين، في غابات مفتوحة على الزراعات.

كانوا قد حضروا له إفطاراً صغيراً ومضى باكراً جداً، قبل أن يفيق أحد. سمح له باستعارة قارب المزرعة ليعبر أولى هاتين البحيرتين. لم يكن قد أغمض عينيه في الليل خوفاً من أن لا يستيقظ في الوقت المحدد، وظل راقداً «يفكر» حتى اللحظة التي بدأ، فيها، هذا الفجر من أيلول يولد في الشرق. في هذه اللحظة راودته رغبة شديدة في النوم. ولكنه نهض مسرعاً ثم - بصمت وخلسة - أشعل الموقد وسخن إبريق القهوة. شرب القهوة فاترة من أجل أن لا يضيع الوقت، ثم بدأ المسير على دربه. كان قد أخذ معه الهارمونيكا التي لم تكن نغماتها، بعد، نشازاً كاملاً ليهديها إلى شقيقته. لم يكن يريد أن يتقدم فارغ اليدين. وفوق ذلك، كان ينوي أن يعزف قليلاً عندما سيصبح فوق البحيرة.

كان الضباب يمتد فوق العشب كطبقة من صوف رمادي وغير سليم. كان يلتف في أسفل الأشجار وينتشر على البحيرة كرصيف رملي. ثم

كان يبقى معلقاً كعفونة هائلة فوق المياه في انتظار القارب.

قال مارتان في نفسه: لحسن حظي، اعطوني جوارب صوفية. كان يقف في القارب يغرف الماء بقطعة محدبة من الصفيح. كان يرى ركبتيه مغطاتين بصوف أسود ومقلم، كان لركبتيه شكل قطعتين من المقانق. كان الصوف يدغدغه، يضايقه، ولكنه يدفئه، وهو ما كان شيئاً لطيفاً.

تذكر فيران. قال في نفسه إنهم دفعوا، هنا، بالقارب إلى الماء، وأنا كنت هناك، على البر وكنت انتحب.

كان ذلك كما لو كانوا أبحروا إلى أمريكا. دفع مارتان، وهو يحرك هذه الفكرة في رأسه، بالقارب إلى البحيرة مسرعاً، وقفز إلى داخله، ثم بدأ يجذف. قال للقارب:

- سنذهب إلى أمريكا. لن نشيخ هنا.

أبقى المجذافين خارج الماء لأن فكرة قد راودته، فكرة أن يقول كلمات بذيئة، سيقول كلمات بذيئة ويسمعها. نظر حوله. كان الوقت نهاراً إلى درجة كافية، نهاراً تماماً. عند ذلك، أخذ يقول كلمات بذيئة:

- خراء وخرا... ء، وخرا.... ء.

حسناً، فليقلها بصوت أقوى. يا للعنة، كان يستطيع أن يصرخ بصوت أقوى من ذلك بكثير.

مط الخـ... راء عدة أمتار في رأيه. أصبح خراء - أكورديون، كان يمكن الصراخ هكذا حتى انقطاع التنفس، ثم التشديد إلى ما لا نهاية. أجرى مارتان وقفة قصيرة وسط آ... كان اللفظ مازال قصيراً قليلاً، كان يجب الوقوف عند المقطع الأول فترة أطول قبل التلفظ بالثاني: آ..... ثم، بعد ذلك، تأتي الهمزة كساطور. وهكذا كان يمكن للخراء أن

يدوم نصف دقيقة كاملاً دون انقطاع. جعله مارتان يربح كل هذا الوقت مرتين أو ثلاثاً. ثم عاد يجذف من جديد. كان يشعر بالبرد. في البداية، جذف بسرعة ليدفئ نفسه، ثم أخذ يلهو بالتجذيف دون صوت. كان يحس كأنه ينزلق في صمت كقطعة قطن أو كالضباب. ضرب بضع ضربات مجذاف عنيفة ليدخل في البحيرة تماماً. وسرعان ما لم يعد يرى البر. لم يعد يرى «بيته» - الذي لن يعود، عما قريب، «بيته»: مزرعة تولين. لدى هذه الفكرة، انقض على الاسم، تولين، وشنّع فيه كما تنتزع قوائم ذبابة وجناحاها إلى أن لا تعود إلا شبه حبة بن، مسمرة ساكنة، بعينين تتحركان فقط.

- أنت مجنونة يا تولين. هذا ما أنت عليه يا تولين. عصابة مهرجين! سئمتكم!

سكت لحظة وقد خجل قليلاً. وفكر بصوت منخفض تماماً، عصابة. مهرجين ما عدا هيلفيغ.

ثم أخذ يغني دون لحن، كان، فقط، يدع الكلمات تغني.

- هيلفيغ لطيفة! إنها جميلة، هيلفيغ هذه! ولطيفة! نعم، لطيفة، لطيفة!

ترك الكلمة الأخيرة تصعد وتصعد، وصرخ بكلمة «لطيفة» وغناها بصوت نشاز. ثم تكسر الصوت كما يحدث عندما ينفخ المرء في صفارة دبقة باللعاب. كان، إلى نقطة معينة، يميز غونفور، أيضاً، عن عصبة المهرجين. ولكنه لم يكن واثقاً تماماً. ربما كان ذلك لأنها جميلة فقط. أن هذا لم يكن يمنعها من أن تكون شريرة، متعجرفة ومدعية، ومن أن تكون لها نظرة قاسية. صرخ، فجأة، وقد عاد الغضب يستولي عليه مائلاً

الضباب المحمر بصرخاته: ولا حتى هيلفيغ.

كانت هي التي وبخته لأنه جلس إلى البيانو عندما جاءت فيران للوداع.

- شكراً جزيلاً! تولين، عصبة مهرجين، كومة أوغاد!

أشرقت الشمس وأخذ الضباب المائل إلى اللون القرمزي في التحرك، وبقدر ما كانت الشمس تتقدم في السماء، كان الضباب يتبدد، وفجأة تبخر. تابع مارتان التجذيف لفترة طويلة. كان مرحاً تقريباً. كانت الشمس تبعث الحرارة في ظهره. تذكر مارتان أشياء مضحكة كان قد سمعها أو كان قد اخترعها هو نفسه. العمل جيد للبذار وبظهور الخدم الأخيار*. قال الخادم:

السروال يخضّر والسماء تزرقّ، وذهب الى نويورك. قال الغبي وهو يسمع العصافير: قلبي يخفق كوي، كوي، ثم مضى إلى تصميمه الخاص، التصميم الذي اخترعه هو نفسه: سأل السرطان في القدر: أين تذهب الموجة التي تمخر البحر. وباختصار، كان يهرج.

التفت نحو المقدمة. عما قريب سيكون على الضفة الأخرى.

أخرج الهارمونيكا تاركاً المجذافين يسحبان في الماء، وعزف لحن النشيد:

- على الضفة الأخرى
على الضفة الأخرى
سوف أنزل قريباً، ياللفرحة!
يسوعي العذب، السيد الملك

---

* تصرفنا هنا بإضافة «الأخيار» للمحافظة على السجع في النص الأصلي (المترجم).

سيعطيني، فيها، المعطف الأبيض
المغسول في دمه الثمين.

ونزع الهارمونيكا من فمه، وغنى الكلمات التي كان، هو نفسه، قد ألفها بكثير من المشقة:

على الضفة الأخرى
على الضفة الأخرى
لن ينزل أبداً
الفلاح القذر، معلمي
وسط الأعشاب الرديئة
سوف يأكل خراء.

احتك أسفل القارب بأرض البحيرة. قفز مارتان إلى البر. لف السلسلة حول شجرة. ثم مضى في درب كان يضيع في الغابات، درب ديس على طول القرون. ولذلك كان يمكن الحديث عن حفرة، حفرة عمقها أون حدبتها، في بعض المواضع، حجارة بيضها وصقلها المطر والأحذية. وفي مواضع أخرى، كان الدرب مسدوداً بجذور سحيقة القدم، سوداء ولامعة كالحديد المصنّع. كان مارتان يتقدم بسرعة وركبتاه تبلغان حافة جانب الطريق تقريباً. وكانت تلمع، من جانب وآخر، فطور بداية الخريف - خدود حمر مغطاة بانتفاخات بيضاء ورطبة حفرها البزاق ليلاً. لم تكن فطور فقع الذئب قد نضجت بعد، وكانت واحدة أو اثنتان، فقط، تطلقان دخاناً تحت واقيتي الحذائين اللذين انتعلهما مارتان في هذا اليوم الرسمي بدلاً من قبقاب كل الأيام. كانت فطور فقع الذئب الأخرى ماتزال بيضاء كالثلج ومزغبة وتقف مجموعات منتفخة كأعضاء المجلس البلدي عندما يوزعون، بعد صلاة الأحد، ربيبي البلدية.

كـانت هناك، إلى جـانب أرومـة، قـواقع صـفـراء، وهي حلوى للأشخاص المتميزين. نظر مارتان إلى مجموعة القواقع، ولكنها كانت تشير إليه بأن لا يقترب. تابع طريقك! كانت القواقع تنتظر أناساً محترمين وليس يتامى على نفقة البلدية، وكانت تنتحب: ألن يأتي سكان هذه القصور المحترمة، هؤلاء السيدات والسادة الذين سيقبّلوننا على فمنا القرمزي.

ثم أخذت القواقع تتشاجر وتتدافع خلال عدة أيام - لأن أحداً متميزاً ويتكلم الفرنسية من أنفه لم يظهر في هذه الغابة - وفي النهاية، كانت تتعفن. وجاء البزاق ليستولي عليها كعربة موتى سوداء.

قال صاحب نوردا وأنفه على الزجاج:

- هو ذا الغلام يأتي.

أسرع الجميع إلى النافذة. غادر كلب هزيل كانت ترى أضلاعه بيته الرطب. كان يحرك ذيله بود، ذيلاً صلباً كعصا، قصير الشعر ولطيفاً كقائمة أرنب. الكلب اهتم بالإفطار الذي كان مارتان يحمله تحت ذراعه وتبعه، وهو يئن، حتى العتبة. غمغم مارتان قائلاً:

- يا صديقي المسكين يبدو عليك، من لونك، أنك كلب صيد. ولا تعطى كلاب الصيد طعاماً أبداً من أجل أن تصيد جيداً. ولكن خذ يا توتو الشجاع، هذه لك لأنك لم تعضني أيها التوتو اللطيف.

وأعطى كل شطائره للكلب. وقال في نفسه: سوف يقدمون لي الطعام. إنه يوم الأحد.

ارتمى الكلب على الشطائر ارتماء أعمى ولعابه يسيل. اختفت الشطائر التي خطفها اللسان وابتلعت دفعة واحدة في النفق الطويل الذي كانه الكلب الضامر - مثل أوراق الخريف.

قال مارتان في نفسه: إذا لم أكن في الجانب الآخر من الباب قبل أن ينهي وجبته، فسوف أكون أنا من سينقض عليه. فالأفضل، إذن، هو أن أسارع إلى الدخول. وعلى الفور نفذ ما قاله.

قرع الباب، وعندما صاح أحدهم بنحنحة من حنجرته: «ادخل» رفع المزلاج. أفلتت رائحة مطبخ من الباب ثم تبددت في العالم الواسع. في تولين، كان لروائع المطبخ قوام أفضل. لم تكن رائحة شحم المكان الخفرة فألاً حسناً. إلا أنه ليس لربيبي البلدية الخيار. إنهم خاضعون لمشيئة المجلس الطيبة حتى لو حددت لهم مكان خادم لدى البارون الرجيم.

قال مارتان:

- طاب يومكم (لاحظ أنهم جالسون وأنهم يأكلون قليلاً) شهية طيبة!

- طاب يومك، شكراً. أنت مارتان. الغلام الجديد إذا فهمت جيداً؟

- نعم!

قال جويل وهو يتابع المضغ:

- خذ كرسياً.

قدم الكرسي. قال مارتان في نفسه: بيض مخفوق. افرغ الطبق بنظرته. قال أيضاً: إنه الإفطار، يجب أن أكون قد بكرت.

قال جويل:

- شقيقتك في الاصطبل ترفع السماد. لن تتأخر.

بذل مارتان جهده ليبتسم. قال:

- جئت لأرى بيتي الجديد. حصلت على يوم أحد حر ففكرت، إذن، أنه سيكون جميلاً لو أتيت لأراكم.

كان مارتان يعني ما يقوله بالضبط. في الحقيقة، لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه.

قال جويل وهو يبتلع لقمة أخرى:

- نعم هو ذاك. أنت قادم إلى هنا. لقد تقرر الأمر يوم الأحد الماضي.

قال مارتان:

- هو ذاك.

عند ذلك، انتبه إلى أنه دخل من الباب الكبير بدلاً من الدخول من المطبخ. شعر فجأة، بأنه أقل ثقة بنفسه، ابتلع لعابه عدة مرات. كان يحب البيض المخفوق كثيراً. ربما مازال يوجد منه في القدر، وهو ما فكر به وهو يرى الطبق يفرغ بصورة مقلقة. كانوا يحكون أسفل الطبق ويكشطون الحواف بالملعقة، وكان بول، الفلاح، يأكل ويتنهد بارتياح. لم يكن جويل، ابنه، بدوره، يحتاج إلى رجاء. كانت البنتان تتصرفان بقدر أكبر من اللياقة. كانتا، وهما تطعمان الأطفال الجالسين على ركبهما، تلقيان على مارتان القريب من الباب نظرات نصف أمية ونصف فاحصة. الأبلد كانت زوجة بول، غونيلا. كان يمكن أن يقال إنها، بلحمها الثقيل ونظرتها إلى الداخل، غجرية سمينة. كان شعرها أسود بانعكاسات مزرقة ومجمعاً في جديلتين من العرض بحيث كان يمكنهما، جنباً إلى جنب، تغطية يد رجل بكل عرضها تقريباً. لم يرَ مارتان قط، شعراً في هذه الغزارة. وكانت غونيلا تعيد رفع رأسها بسبب ثقل الجديلتين، لأن هذا يجب أن يكون السبب حقاً. لهذا، كانت النظرة السوداء الناعسة تعطي انطباعاً طريفاً: كانطباع اعتداد نائم. كانت نظرة ماكرة متجهة

إلى أعلى. لاحظ مارتان أنها لم تكن تأكل بيضاً. كانت تدفع بالطبق كلما قربته ابنتاها منها. ولكنها كانت تبتلع كميات من الخبز المغطس، من قبل، في القهوة السوداء، قهوة مصنوعة انطلاقاً من الشعير. خلال كل هذا الوقت لم تكن ترفع عينيها عن الطفل الجالس قرب الباب. ولكن الطفل كان يحول نظره الذي كان يصبه على الأوعية النحاسية المعلقة على الجدار ليتثبت، نهائياً، على طبق سمك قصديري قديم كان يستخدم في الأعراس وكان كبيراً إلى حد كان يمكن، معه، أن يتسع لسمكة جري كاملة. خطر لمارتان أنه كان لغونيلا هيئة سمكة جري. كانت عيناها سوداوين كوجه طبق لا عمق له، وكان يختفي وراء النظرة اللامبالية خبث مغناطيسي إلى درجة كان مارتان، معها، يتلوى على كرسيه. وحتى حين كان يحدق في طبق القصدير، كانت هذه النظرة تبقى لاصقة بذاكرته كبقعة قطران، وهكذا كانت هذه هي غونيلا نوردا - التي كان الجميع قد تحدثوا عنها، التي حذره الجميع منها كما لو كانت مستنقعاً عميقاً في الغابة. كانت هناك تأكل خبزاً.

شعر بالمزيد من الارتياح عندما وجد في نفسه ما يكفي من الشجاعة للنظر إليها مرتين أو ثلاثاً. لاشك في أن التقولات بالغت قليلاً. لو كان المرء متيقظاً وإذا كان ينجز عمله كما ينبغي، فربما كانت، هي نفسها، تبدو إنسانية تقريباً. ما الذي لم يتم تناقله بصدد أمه نفسها! وبصدد أبيه! نعم، وبصدد كل الذين كان مارتان يعرفهم. كان مايزال في أذنيه ما كان قد سمعه خلال وليمة في فيلناس:

- يا إلهي! يمكن أن يقال إنها امرأة من شحم وسخام.

- نعم، إنها في سواد قعر مرجل وماكرة كأفعى، متملقة مع

الأشخاص المهمين إلى أن يديروا ظهورهم، ولكنها سيئة كالجرب مع بول. الأمر واضح، في السابق، كان بول فلاحاً متمكناً، أستطيع أن أقسم على ذلك.

- باه! بول ضربها بدوره. لقد رأيت ذلك بعيني أيضاً.

ثم تلت ذلك، بالطبع، حكاية كانت تدور، حصراً، على طريقة الفلاحين، حول حجر غونيلا. تذكر مارتان، خجلاً ومحموماً، الأقوال التي كان قد سمعها.

وها هو جالس في بيت غونيلا ويستعرض، عقلياً، كل مخزون الأقاويل والحكايات التي سمعها في موضوع غونيلا هذه. كان الفلاح الذي روى هذه القصص معروفاً بحذلقاته. إذا أعطيته كأساً فسوف يروي أنك قدمت له دلواً، وإذا وجد ريشة في طريقه، فذلك أنه قتل طائر حجل. البيضة كانت تتحول إلى دزينة، والحجر إلى كومة حجارة، وخيط نسيج عنكبوت إلى شعرة امرأة. كان شاعراً حقيقياً. كان ينبغي لكل شيء أن يكون غير ما كانه. وهكذا أصبحت حبات الآس رصاصات. وقد قتل نفسه بطلقة بندقية في العام الماضي.

نظر مارتان، أيضاً، إلى ابنتي غونيلا. كانت إحداهما تشبهها إلى حد يمكن، معه، أن يقال إنها الأم مردودة إلى ماضيها، وقد صغرت حوالي عشرين عاماً كما لو أن امرأة قد ولدت توأمها الخاص. كانت تدعى كارلا. كانت تجلس إلى جانبها أختها كلارا. كان على ركبتي كل منهما طفل، ولكن الطفلين كانا لكارلا، كل شيء يبين ذلك، يرى بالعين المجردة. كارلا ممتلئة وسمراء. كانت لها عينا غونيلا السوداوان نفسهما، ولكن عينيها كانتا أكثر تيقظاً: كانتا ثاقبتين ومتنبهتين. كانت ملامح طفليها ولون شعرها صورتها بالضبط.

كانت كلارا مختلفة. فشعرها كستنائي، أصهب تقريباً مع انعكاسات ذهبية، صيفاً، ولون أدكن شتاء. كانت لها عينان زرقاوان غامقتان. عندما كانت تنظر إلى الطفل القريب من الباب، فإن ذلك لم يكن مثل كارلا، بصورة ساخرة. كان يكفي أن تنظر إليك كارلا ثانية من أجل أن تحس بنفسك صغيراً تماماً، متقلصاً، كما لو كان كل ما تراه يبعث فيها الاشمئزاز. كانت تهينك، تفني لديك كل أمل.

قال مارتان في نفسه إنها لن تكون مريحة. ظل هناك يرقبهما خلسة، إحداهما تارة، والثانية تارة أخرى. كانوا يأكلون بصمت. نهضت كلارا بعد أن وضعت الطفل على أحد فخذي كارلا القويين المتباعدين. أصبح، الآن، على كل فخذ من فخذي كارلا طفل، وكانت تقبل رأسيهما وتتشمم شعرهما بشغف. كان يرى أنها هي التي كانت تقبّل نفسها. «أنت مثلي، وأنا أحبك كثيراً» نعم. ذهبت كلارا إلى المطبخ وعادت بطبق مليء. نعم كان ما يزال هناك بيض مخفوق. ثم أخذوا يأكلون من جديد، يأكلون أيضاً. قال بول:

- ايه، نعم.

لم يرد أحد. لم تكن كلماته تعني شيئاً. إنها تنهدة عميقة، ولكن ذلك لا يعني أنها تنهدة حزن. ربما كان يفكر في أن لدى كارلا أكثر مما ينبغي من الأطفال لأن اثنين آخرين أخذا يصرخان في مهدهما في الغرفة المجاورة.

كانا توأمين. وكانا يرقدان في مهد مزدوج. كانا، الآن، يتناوبان ويصرخ كل منهما في دوره. وضعت كارلا الطفلين الآخرين على الأرض. كان لهما، من العمر سنتان وربما ثلاث. كانا توأمين أيضاً. كانا قد

شبعا إلى حد كانا، معه، يتنهدان ارتياحاً، على طريقة بول تقريباً. تكيفا مع ماحدث لهما وأخذا يلعبان بدمية، بكرة خشبية كانت على الأرض في انتظار أن تدحرج. كانت في ضخامة رأس ملفوف. خلال سنة، سوف يقويان على رفعها وضرب رأس أحدهم بها. كان يرى أن هذا ما كانا يرغبان فيه.

تقدما وهما يحملان الدمية والكرة، على الأرضية المقفرة للغرفة التي كانت كبيرة على نحو خاص. كان هناك درب لا بأس بطوله يجب اجتيازه للوصول إلى القادم الجديد الجالس قريباً من الباب. تقدما نحوه عدواً. تركا الكرة على الطريق وجاءا ليضربا الغريب. لم تكن الصفعات براحة اليد على الساقين مؤلمة..

ابتسم لهما مارتان بلطف، وضحك في كل مرة كانا يضربانه فيها، كما لو كان ذلك لتشجيعهما لأن هذا ليس شيئاً، لا يؤلم بالمرة. لاشيء. ولكنه كان، في أعماقه، يحس بعدم الارتياح لأن الطفلين كانا يقولان: «بان! بان» كما يقال للكلب عندما يكون المرء صغيراً جداً، كما يقال لمن لا يساوي أكثر من الكلب. كان لرسائل الطفلين، مع ذلك، منطق. وكما قيل: الشيطان بدأ صغيراً جداً وراق لجدته كثيراً.

في النهاية، قال جويل شيئاً لغونيلا، وقالت غونيلاً أخيراً:

- خذ كرسيك يا غلام وتعال لتأكل قليلاً.

ها هو على المائدة، والبيض المخفوق في متناول بصره. نعم، كان قد بقي منه القليل. بدا على غونيلا أنها تستطيع قراءة أفكاره لأنها قالت:

- سوف تقتسم مع هيلدور.

ومن أجل أن لا يكون هناك سوء فهم، مست الطبق بإصبعها. قال مارتان:

- شكراً.

ابتلع ريقه، كدفعة متقدمة أمام متع المائدة.

ألقى نظرة حوله وهو يضع زبداً على قطع الخبز. ربما سيجدون أنه يضع أكثر مما ينبغي؟ قال لنفسه: كلا، لا أظن.

انزلقت يده نحو شحم الخنرير المدخن، ودارت حول قطع مقانق كعود بندق. أبدت المقانق ردة فعل، وتناول مارتان إحداها.

ثم، البيض المخفوق. وبخفر، كصبي أتى على إنجاز مناولته الأولى يعبث، لأول مرة، بثياب داخلية لامرأة، تقدمت يده نحو الطبق الرائع، الأصفر كزهرة الرغدة. كانت النظرة تتابع يده حرصاً على الاحترام المضبوط للحدود: لكل النصف. وما أن نقل الغذاء وأصبح في مأمن في الطبق، حتى بدأ ربيب البلدية يأكل بطريقة «مهذبة جداً» حاملاً إلى فمه الشوكة لا السكين. كان يراقب ما حوله. هل كانوا ينتبهون إليه؟ هل كانوا يرونه؟ هل كانوا يلاحظونه جيداً؟ هل أصبحت تصرفات تولين اللبقة، كلها، طبيعية لديه؟ كيف يأكل المرء عندما يكون، مثله، قد أتى من عالم راقٍ؟ نعم، كان يظن أنهم كانوا يرونه. كان يظن نفسه متوجاً بهالة. إلا أن طلاء تولين بهت مرة أو مرتين لأنه كان على ما يكفي من الجوع بعد عبوره الطويل للبحيرة. ومسيرته الطويلة وترك شيئاً من فيلناس يتلامح. لقد حمل السكين إلى فمه مرة أو مرتين.

وعندما أخذت غونيلا تحدثه بصوت نوردا، ردت روح مارتان، على الرغم منها، بنبرة صوت فيلناس - قافزة فوق فترة تولين اللائقة.

لم تكن غونيلا تقول شيئاً مهماً. كانت تقول، فقط، إن الطرقات، في هذه الفترة من السنة، جافة وصلبة، جيدة للنزهة أيام الآحاد عندما

يذهب المرء لرؤية الناس. كانت تجد، بالطبع، أنه يجب عقد شيء من المحادثة والظهور بمظهر اللطف مع صغار الأحد الفقراء. قال مارتان:

- نعم، هو ذاك. الطرقات جيدة. ليس هناك ما يقال.

قالت غونيلا:

- نعم، إنها جيدة.

هز برأسه وكان ذلك تصرفاً على طريقة تولين، هزة رأس لطيفة ومتميزة كان يستمتع، أحياناً، بتقليدها. كان هذا يعني، في هذه الحالة، أن الطرقات كانت ممتازة.

في هذه اللحظة وصلت هيلدور إلى الغرفة. كانت في قصر قامة مارتان على الرغم من أنها تكبره قليلاً. قال في نفسه: آه! هذه هي، آه! هكذا أصبحت إذن. اجتازته موجة حب أخوي صغيرة وقلقة وأحس بالبرد في جذور شعره. كان ذلك، نوعاً ما، كما لو كان يراها للمرة الأولى. إلا أنهما تعارفا، تبينا أنهما أخ وأخت وأنهما يتشابهان. تبادلا الابتسام مطولاً، كما لو كان يجربان حتى اللحظة التي قاطعتهما، فيها، غونيلا قائلة:

- نعم، هذا أخوك!

تقدمت لتعريف أحدهما بالآخر ولتدعوهما إلى وليمة البيض المخفوق. ربما بدا هذا التدبير ضرورياً. فقد كان الأخ والأخت ضائعين إلى درجة كافية.

جلست هيلدور وأخذت تأكل نصفها من البيض المخفوق. إلا أنها لم تأخذ نصيبها كاملاً. سألت مارتان عما إذا لم يكن يريد المزيد. رفض مارتان عرضها كي لا يحرمها، ولكنه رفض بامتنان. ثم أكلا. لاحظت،

بسرعة كافية، أنه يتصرف على المائدة بشكل «لائق». قي تلك اللحظة، خجلت قليلاً. ولكنها لم تكن تستطيع أن تأخذ، على الفور، في الأكل، هي نفسها، بصورة «لائقة»، لأن من طبيعة الطفل أن لا يقلد مباشرة، بل شيئاً فشيئاً فقط، كي لايبدو مديناً لأحد بشيء. وربما شرعت في ذلك في الوجبة التالية، شيئاً فشيئاً: بعض تلمسات، أولاً، لاستعمال الشوكة، ثم سوف تزيد جرعة التميز، تدريجياً، حتى البرهة التي ستستعمل فيها الشوكة وحدها. التميز قد كسب المعركة، وسوف تتصرف على المائدة بطبيعة من يستعمل، دائماً، أكثر أنواع أدوات المائدة الفضية تميزاً. أبدى مارتان قسوة بنشر كل ما كان قادراً عليه للتصرف بصورة متميزة من بداية الوجبة حتى آخرها - ما عدا بعض السقطات إلى تصرفات فيلناس التي حدثت عندما أخذا يتكلمان. ذلك لأنهما أخذا يتكلمان، من حين إلى آخر، وهما يلقيان بنظرات خفية على غونيلا. فقد كانا يريدان التأكد من أنهما يعبران عن نفسهما «كما ينبغي» من أجل أن لا تظن غونيلا أنهما كانا يتكلمان «بخفة».

بعد أن واجها الطقس الذي كان قد تحسن بعد أمطار الصيف القاسية - والتي يدين الناس لها بكثير من الفطور في الغابات وبقدر كبير من البزاق - وصلا إلى الخوخ الذي أفاد، هذه السنة، من الفصل الجميل. وبعبارة أخرى، كان الخوخ جيداً، وكان ينمو على أشجار الخوخ، وكان جيداً حقاً.

ثم انتقلا إلى العناب، وسأل مارتان:

- هل سيكون هناك كثير من العناب، هذه السنة، في الغابات؟

أجابت هيلدور بأنه يخيل إليها أنه سيوجد مقدار لا بأس به منه.

قال مارتان:

- آه، نعم، هذا جيد.

قالت:

- نعم، أمر جيد أن يكون هناك الكثير من العناب.

قال:

- نعم، هذا جيد، العناب خارق.

كانت كلمة «خارق» على شفتي غونار العجوز، في تولين، دائماً: «هل رأيت فلاناً؟ أنفه الكبير شيء خارق». أو «ياله من طقس خارق!» إذا كانت السماء قد أمطرت طويلاً.

سأل مارتان قائلاً:

- ما نوع اللفت عندكم؟

كان يبدو، وهو ماضٍ في حديثه، مصمماً على الانتقال من ثمرة إلى أخرى، من نوع من الخضار إلى آخر. قالت هيلدور:

- لا أدري. يجب أن يكون لفتاً عادياً، لا أعلم.

قال مارتان:

- في تولين، لدينا لفت من نوع بورتفيلدر. لدينا، أيضاً، من نوعي تانكار وفورموزا. أما من حيث الشعير، فلدينا شعير من نوع بروبستاير. هذا أجود ما هناك من أنواع الشعير.

- آه نعم.

- نعم، أجود الأنواع.

قالت هيلدور:

- كنت أظن أنه لا يوجد سوى نوع واحد من الشعير.

كانت تتظاهر بالدهشة بتصنع. ألقت نظرة على غونيلاً. ولكنه لم يكن يبدو على غونيلا أنها تعرف أكثر من نوع واحد من الشعير. قال:

- أوه، بلى. هناك أكداس منها، أكداس.

قالت:

- هذا غريب.

صرح مارتان قائلاً:

- باه! يمكن أن يبدو هذا غريباً قبل التعود عليه، كل هذه الأنواع! ولكن الأمر يستقيم بعد ذلك.

هزت هيلدور رأسها. فهمت أن ذلك يصبح بالتدريج، أقل غرابة، وغير غريب بالمرة في النهاية.

غادرا المائدة وقالا شكراً. مارتان الذي لم يكن من البيت مد يده. وفي اللحظة نفسها، دخل جويل وبول. فقد كان هناك إذن، فوق يد غونيلا، يدان يجب مصافحتهما. كان يبدو على جويل أنه رب البيت. ثم بدت التراتبية تعيّن غونيلا ثم، في النهاية، بول.

كانت غونيلا، مرئية بعيني رجل راشد - ويمكن، أحياناً، أن تكون للأطفال، للحظة واحدة، هذه العيون دون أن يرتاب الراشدون بذلك - رشيقة، في الماضي، احتمالاً، وبعد ذلك ثديان - ثديان مهيبان، مثل إبريقين من حجم كبير- بطن - بطن أسود وبارز - ردفان - ردفان مريحان مثل وسادتين، كارثة توسع جسدي. كان ساقان ضخمان، ولكنهما هشان، وقدمان غائصان في خفين مسطحين من الخيش تحمل هذه الضخامة بصورة متفاوتة التوفيق. شعرها، وحده، بقي رائعاً كحكاية جنيات. كان يمكنها أن تلتف، بكاملها، في الجديلتين

السوداوين الكبيرتين كسمكتي سلور عملاقتين وداكنتين. داخل هذا الجسم الخارج عن القياس، كانت تسود مصيدة خسة، كما سوف نرى، حقاً، عندما يحين الوقت. عادت كارلا إلى الظهور. كانت قد أتت على إعطاء ثديها للتوأمين. كارلا، كما رأينا، كانت صورة عن أمها، ولكن جسدها، جسد ابنة سبع وثلاثين سنة، كان يوحي بما أمكن لغونيلا أن تكونه: فاتنة، ضخمة ومكتملة البنيان، ظهور خارق: حيوان جميل، منذور للجنس فقط، يمور في تموج رغبته. لم ير مارتان، أبداً، امرأة في هذا الطول، ولن يرى، فَضلاً عن ذلك، قط.

كان مارتان عند لحظة إبداء الشكر والإحساس بيده في يد عملاقة، خائفاً أمام مثل هذا التفوق الجسدي ومردوداً إلى الطمأنينة - كما يمكن للأطفال أن يكونوا، أمام هذا الظهور المهيب للوزن والظلمات. قال مارتان بخفر:

- شكراً على الطعام.

كان، حتى ذلك الحين، قد رأى كارلا جالسة. أما الآن، فقد كانت تنتصب أمامه بكل قامتها وضفائرها السود على رأسها كأنها سلة.

ابتسمت مزدرية، وقد بدت عديمة الاهتمام به، وجلست على كرسي. ثم بدأت تحضر شيئاً في وعاء على الرغم من أن موعد الغداء ما يزال بعيداً. الذين كانوا في عمر المشي من التوائم جاؤوا يلهون بين ساقيها، صدتهم كما صدت، منذ قليل، مارتان بنظرتها. حاول التوائم، من جديد، شق طريقهم إليها، ومن جديد صدتهم عنها. على وجه الإجمال، لم تكن في مزاج تستطيع، معه، أن تحبهم. كان مزاجها، في هذه اللحظة، يجعلها تكرههم. لم تكن لديها سوى رغبة واحدة: أن تدعها

خصوبتها وجسمها الحيواني الكبير في سلام.

- أيها الأطفال الشريرون، مالكم تجرجرون أنفسكم بين ساقيّ هكذا؟

كان الناس، في القارة، يقولون: إنها عملاقة يجب عرضها في سيرك.

شكر مارتان جويل وبول على البيض المخفوق، شكرهما بحرارة ولهفة طفليتين. جويل الذي كان في إجازة لبضعة أيام، وجد أن لاشيء يستحق الشكر كما يقال. كان بول يرى الأمر نفسه تقريباً. وأضاف قائلاً:

- حسناً، الآن، وقد رأيت البيت ربما كنت تود إلقاء نظرة، أيضاً، على الاصطبلات والحظائر وكل الباقي.

في أثناء كلامه، كان حاجباه الكثيفان يتحركان فوق الضباب الأزرق بنظرة لم يكن يمكن الوثوق بها. كان بريق تائه، ذو كآبة وحشية، يلمع مثل شظية زجاج قاطعة داخل قزحيته.

لم يرَ مارتان ولم يفهم، في هذه المناسبة، شيئاً كثيراً من هذا. تحولت نظرته. كان هذا كل شيء، وقال:

- نعم، شكراً.

هتف بول، الرجل ذو العينين الرماديتين - الزرقاوين، في اتجاه الغرفة قائلاً:

- كلارا، اخرجي، إذن، مع الصبي ليرى كيف الأمور في الخارج. قومي معه بجولة.

سمع من داخل الغرفة صوتاً يقول:

- نعم.

كانت هيلدور قد بدأت في غسيل الآنية. ظهرت كلارا ورافقت مارتان حتى الباب الذي اصطفت أمامه القباقيب.

وعندما وصلا إلى الخارج، هبطا، بصخب قباقيب كبير، السلم الحجري في شمس الأحد. قالت كلارا:

- مع ذلك، يا لها من شمس جميلة!

قال مارتان:

- نعم، طقس أحد حقيقي.

كان شعر كلارا الكستنائي يلمع في الشمس. كان لها، هي نفسها، لون شاحب مع بعض بقع النمش على الأنف والوجنتين، وكانت لها شفتان مكتنزتان ولكنهما باهتتان، وفم حزين وعينان زرقاوان قانيتان. بدا الأمر كما لو أن الكآبة كبرتهما. يحتمل أنها لم تكن ترى مارتان. كانت نظرتها تغوص بعيداً. كانت، كمارتان، فريسة أحلامها. كانت حمى تدمرها. هذا كان مرئياً.

عبرا الباحة، وهربت الدجاجات إلى تحت زهور الليلك الخريفية الميتة. فتحت باباً مقطوعاً يطل على مواقع الخدمة، وفتحت القسم العلوي منه أولاً. ألقيا نظرة، ثم فتحت القسم السفلي ودخلا. كان في الداخل بضعة خنازير مطوطة الخطم تغمض عيونها في مواجهة النور.

قالت كلارا:

- هذه خنازير التناسل. في الخريف، تقاد لتأكل البلوط.

قامت بحركة من يدها لإبعاد الخنازير عن الحاجز من أجل أن ترى بصورة أفضل.

لم يكن مــارتان قــد رأى، قط، خنازير تغــذى بـالبلوط. وجـدها مسلية. كانت عيـونها الماكرة وأخطامها الطويلة الدقيقة تسليه إلى حد نسي، معه، حتى خرقه. سحب الهارمونيكا من جيبه، ونفخ معه فيها سبع نوطات دفعة واحدة، صرخة مزرعة هوهنر الموسيقية المرحة. فزعت الخنازير. قــالت غلوف، غلوف! ضــحكت كــلارا، ولم تندم على هذه الضحكة عندما عادت وقوراً وزمت شفتيها كما يفعل كل الآخرين. ومن خلال غلالة كآبتها، كانت تواصل الابتسام. لاحظ مارتان ذلك جيداً ورد على ابتسامتها بنفخه ثلاث مرات في آلته، آلة متناغمة في رأيه. عاد لحن إلى ذاكرته فعزفه. كان يجد هذا اللحن «حزيناً» وجميلاً. كان، على صورة الأطفال، يحب ما هو حزين مستمتعاً بالكوكب الجنائزي لبلانش نيج وبموت الأطفال الشهداء، وبموته المتخيل.

عندما تكبر يا أخي الصغير
سوف أصحبك إلى المقبرة
لأريك الموضع
الذي ترقد، فيه، أمنا المسكينة.

سـارا نحو الحظيرة بعد أن تركتـه كـلارا يبكي بضع لحظات في الهارمونيكا. كانت الحظيرة فارغة. كانت كل الخراف ترعى باستثناء حمل عمره سنة كانت قد عضته أفعى. كان جاثياً أمام القضيب الذي تعلق عليه رزم الأوراق وحيث كانت معلقة رزمة من أوراق الحور نصف معضوضة أو مقضومة. كانت تفوح من المكان رائحة حامضة. كانت مئات من الرزم المقطوفة حديثاً قد صفت على لوح خشبي وراء الخص. كان الحمل يثغو بحزن، ثغاء مرتجفاً ومؤثراً كان يحمل على التفكير في

الملائكة. كان مارتان، وهو واقف مع كلارا أمام الحاجز، يروي لنفسه أساطير.

كان الأمر يدور حول ملائكة ضائعة دخلت الحظائر أثناء عواصف الخريف. تستطيع أن ترقد هناك، فولهلم لا ينشغل بها. تستطيع أن تبقى هناك بالقميص والكلب ينبح والعالم، في الخارج. بالغ الشر، بالغ الشر. إلا أن أحداً لا يتقدم، على الرغم من أنها تعاني البرد والجوع، عند ذلك تتحول إلى حملان وتأخذ في رمي كومة الأوراق. حمل الله يبرد ليلاً. «أبي ميت وأمي في كارليفونيا».

نظر مارتان إلى الحمل. وفي أثناء ما كان غارقاً في أفكاره، أوضحت له كلارا أن أفعى كانت قد عضت الحمل.

قال مارتان الذي كان، في أعماقه، يفهم الحياة على عدة مستويات:

- إنه خروف صغير لطيف.

لم يكن لديه سوى أفكار ميلودرامية مبهمة. إنه يعلم جيداً أن الأمر يدور حول خروف ما، ويعرف، في الواقع، عدداً لا بأس به من الأمور. الراشدون لا يرتابون في ذلك. يتفق له أن يكون ماكراً أياماً كاملة.

إنه «يفكر» في الناس. نعلم، جيداً، أن الناس غالباً ما يسكتون صوت الأطفال الذين ينادونهم بسد أفواههم بصوت الأسطورة اللطيف والمدغدغ. بطبيعة الحال، هناك أيام لايرى، فيها، الأساطير بهذه الصورة، حيث يحبها، حيث يلتمسها. ولكنه غالباً ما يرى، فيها، خدعاً غبية قليلاً ماعدا، على كل حال، الفرسان والفارسات الذين يمتطون

خيولاً بيضاء كبيرة. إنهم يسيرون عبر الجبال نحو قبور الأقزام المنفرجة والسوداء، يشقون طريقهم عبر غابة العالم، العالم الواسع. هذا المشهد يشبه صيد الدب بالمذراة. الدب يخرج من الجبل مزمجراً ويهاجم شارل الثاني عشر الذي ينتعل حذائين ضخمين ويعتمر قبعة ثلاثية القرون. يصرح شارل الثاني عشر قائلاً: «هذه ستكون، بعد الآن، موسيقاي». يوم هكذا ويوم مثل ذاك. ينتقل من واحد إلى الآخر، من الشك إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الشك.

ولكن الأصعب كان الإفلات من إغراء الهنود الحمر. لم يكن ينجح في ذلك دائماً، بأي صورة. يحاول أن يقول لنفسه: الهنود الحمر، هؤلاء لا وجود لهم. هنا، أيضاً، يمكن أن تقع مغامرات، يمكن أن يظهر «أشقياء» وأشخاص مثل ذاك الذي ثار ضد الملك غوستاف فازا (سوف يبقى مارتان، لسنة أو سنتين أيضاً، وفياً لحزب الملك وسوف يطارد، في فكره، نيلزداك، ضحيته). هنا مسألة أخرى. ربما لا تظهر في اليوم نفسه الذي يظهر، فيه، داك بل، بالأحرى، في اليوم نفسه الذي يظهر، فيه، الهنود الحمر. إنها مسألة «الأشرار»، قطاع الطرق، مسألة: «هل يجب أن نقتل؟»، وهي ليست، تماماً، مسألة «هل يجب أن نطلق النار؟». كل شيء يتدبر من حيث أنه يحق للمرء أن «يطلق» شريطة أن يطلق النار «بعيداً».

هناك أحجار زاوية للمغامرة: الأشرار، والطيبون، قطاع الطرق وغير قطاع الطرق. هنا لايوجد أشرار. إذن، تطلق النار إلى بعيد. هنا لايحق لنا إطلاق النار. يمكن أن نصيب أحداً خطأً. إذن: إطلاق النار إلى بعيد. بهذه الصورة تصنع أسطورة الهنود الحمر، كما يجب أن تكون، وتتثبت.

أصبح مارتان الصديق الثابت للذين يطلقون النار على الهنود الحمر. ولكن لا، ليس الأمر كذلك، لا يجب أن يكون، في كل هذا، شيء غامض لا يفهمه.

في المدرسة، يذهب صبيان صفه بعيداً في الغابة ليلعبوا لعبة الهنود الحمر. ولكنهم ينسون الهنود الحمر، وما يفعلونه هو شيء مختلف تماماً

دعي تنورتك تخفق في الريح
تعالي لنغني للثلوج الغابرة
لنغني للسير
ابحثي عنه كل الوقت
في الغابات والأراضي.
النقار الأخضر ينقر
الغابة أيضاً
اهمسي، تعالي، خذينا

اسمعوا أغنية الأطفال
انظروا كيف تركض في الحقول
الجنية المكتسية بالبياض
جنية البؤس
وهي تستنزف دماءها
جنية اليوم الأخير
جنية الصعلوك الفقير
جنية اليوم الأخير

قالت كلارا:

- نعم، من المؤسف أن تكون قد لدغته أفعى. الخراف تمرض أيضاً كما تعلم. إلا أنه لا ينبغي أن يكون لذلك عليهم، هم، التأثير نفسه الذي يحدثه في البشر.

قال مارتان:

- أعرف صبياً لدغته أفعى في قدمه.

قال ذلك وقد جحظت عيناه واتخذ صوتاً أصم ليبين كم تألم ذلك، الصبي. وتابع قائلاً:

- أنا رأيته فيما بعد. كان على شفير الموت، جالساً دون حراك على كرسيه. كم كان شاحباً:

قالت كلارا:

- نعم، هذا يحدث

قال:

- آه نعم، آه نعم.

كان ينظر في كل زوايا الحظيرة ويحاكي، بوجهه «الخطر» لاشعورياً وشعورياً.

ذهبا، بعد ذلك، إلى المدجنة والزريبة والاصطبل. كانت الشمس تقع على السقوف مائلة، وأشعتها تدخل مباشرة من فتحات الاصطبل حتى حواف النوافذ الحجرية. وبالفعل، كانت الاصطبلات والزرائب مبنية بالحجر كما كان العرف في تلك المنطقة. كان على حواف النوافذ ألوف من الذباب الذي كان يطن ناشداً الخلاص من العناكب. وهذه الأخيرة التي كانت أجسادها منتفخة وفي ضخامة الكرية كانت تلتهم ضحاياها العالقة في نسيجها المذهب.

كانت الأبقار في المرعى. في أحد المرابط، كان ثور أصهب وأبيض وذو شعر أشعث يصدر تمتمة ممتزجة بحشرجات آتية من أعماق الحنجرة. ثم أخذ يخور خواراً مبحوحاً نائحاً، متوسلاً ومهدداً. كانت نظراته المشربة بالدم مثبتة على مارتان.

كان يهز رسنه وقد التهمته رغبة في القتل. كانت الدوائر التي يرسمها بقرنيه تقول كيف سيتصرف لو استطاع أن يتحرر. سوف يفعل هذا، أولاً، ثم ذاك.

قالت كلارا:

- هذا تظاهر فقط. إنه وديع كخروف. وهو مايزال عجلاً. لم يبدأ استخدامه بعد. الثور العجوز ذبح منذ شهرين أو ثلاثة.

- هكذا؟

- نعم. عندما لا يكون لديك نوع خاص، فلا موجب للاحتفاظ بها.

- لا، هذا صحيح. ليس لدينا، في تولين، ثيران. ولذلك نجري المزاوجات في القصر.

- آه حسناً. نعم، لديهم في القصر، دائماً، حيوانات أصيلة.

وكما في الحظيرة، كانت كلارا تبدو غائبة وهي تتكلم. وكان الأمر نفسه، أيضاً، تقريباً، بالنسبة لمارتان.

كانا يتحدثان عما يريانه تاركين الواقع ينفذ إليهما كواجب وإلا لكانا مسرنمين.

يسمون الأشخاص الذين هم من هذا النوع حالمين.

لا أحد أشقى منهم على وجه العموم، الحلم يتحول، لديهم، إلى طاعون. إنهم ينتهون إلى تدمير أنفسهم في تأملاتهم وإلى اجترار الأفكار نفسها دون انقطاع.

استأنفا سيرهما. كانت أسماء الأبقار مسجلة على لافتات. كان معروفاً متى تزوجت مع ثيران ومتى سوف تلد. كل شيء كان مسجلاً بعناية بالطبشور.

قالت كلارا:

- إن جويل هو الذي يكتبها.

كانت الأسماء جميلة إلى حد كاف. تيكلو، دراغا، روزلند، كونيغوندا، أليالندا، ديفيث، زيبرا. كان جويل قد عثر على هذه الأسماء في كل مكان تقريباً - في التاريخ، في الجغرافية، في العلوم الطبيعية. ينبغي أن يكون قد مر زمن كان فضوله، فيه، يقظاً، ويجب أن يكون قد انطفأ بعد ذلك. هذه هي الحياة.

كانا عند هذا الحد عندما جاء جويل إليهما. حياه مارتان من جديد، ولكن جويل ابتسم له، فقط، بعجرفة. تحت نظرة جويل الواثقة وغير الحساسة، شعر مارتان، فجأة بالبرد ينقض عليه. رأى مارتان النظرة كحجر رجل لا مبال تماماً. التقت عينا الطفل اللتان كانتا تستجديان قليلاً من الحنان عينين قاسيتين كرجل أصبح شعاره جملة «الثعلب والعنب» القائلة: «مازال أقل نضجاً مما ينبغي».

كان جويل، منذ أن توقف، فيه، سمو روحه ولجم الفرح الفطري في كل وجوده الحي، قد شجع حماقته الخاصة تاركاً ذهنه يتجمد عند موقف وقح. كان كل شيء في سلوكه طريقة فظة في مساعدة نفسه. كان التعبيران اللذان يردان، في معظم الأحيان، على لسانه، «ايه تباً!» أو «تباً إذن» مدموغين بإشارة ناقص. لم تكن إشارة زائد تقع من شفتيه إلا بعد «ياللشيطان اللعين!». أصبح، فيما بعد، أحد أسوأ جلادي

مارتان لا يعلم سوى الرتابة والفراغ والكراهية.

استولى الاشمئزاز والخوف، غريزياً، على مارتان ولكن الاشمئزاز والخوف تحولا لديه، لأنه كان زائفاً وجباناً، حالاً، إلى تكشيرة باسمة وذليلة.

فيما بعد، وعندما كان مارتان يتذكر هذه الضروب من الرياء الخنوع طيلة طفولته، كانت تلك التصرفات أكثر ما كرهه في العالم. كانت تتوجه إلى الفراغ وعدم الفهم. كان يعلم أن تلك كانت علامة مرض - ليس لديه فقط، بل لدى كل أناس هذه المزارع. كانت أنانيتهم العقيمة مصحوبة بادّعاء مر، كانوا يزدرون الضعيف الذي لم يكن يجرؤ على الدفاع عن إيمانه بقيم الحياة، وكانوا يتملقون الأقوياء ويحسون، منغلقين على أنفسهم، بكراهية متزايدة النمو. كان القلب مشدوداً في ملزمة من التعفن متزايدة القوة حتى اللحظة التي تمسك اليد، فيها، بالمقرعة والعصا وقضيب الخيزران والخنجر والسيف والبندقية والقنبلة بحثاً عن أكباش الفداء. انتهى مارتان، عندما أصبح راشداً، إلى كره الكراهية نفسها. إلا أنه، وبما أن كل الكارهين كانوا يضحكون منه، لم يفعل سوى ايقاع الاضطراب في هضمه.

الكراهية مغرية كثيراً. أكثر الأقوال تأثيراً تندرج في سجلها. كانت الملاحم الايسلندية المشحونة بكراهية الشاعر جميلة جداً. عندما انقطع حبل قوس غونار، قال غونار لهالغريد:

- خذ خصلتين من شعرك واضفر مع أمي حبلاً لقوسي.

سأل هالغريد:

- ما الذي هو موضع الرهان؟

قال غونار:

- حياتي

قال هالغريد:

- سأتذكر، إذن، جيداً الصفعة التي تلقيتها منك.

«بعد لحظة، سقط غونار».

ملحمة الكراهية جميلة دائماً. كانت مآسي الكراهية تبرق، من أعماق ألوف السنين، ببريق لا مثيل له.

لماذا؟

في برهة بذار الخريف، عـهـد إلى مـارتان بـالمشط والمدحـاة. كـانت المدحاة هي التي أحبها خاصة. كانت، الضجة المريعة التي تحدثها تـكفر عن أشياء كثيرة. كانت تروح وتجيء طولاً وعرضاً. الجياد الفتية التي لم تكن معتادة على هذه الضجة كانت تود أن تهرب منها، ولكنها كانت، دائماً، في أعقابها. وهكذا، أخيراً، تتحرك الحياة قليلاً. كان مارتان الجالس وسط الصخب يغني:

وراء الستائر الجميلة

تحت المصباح، نحن جالسون

ثم جاءت العودة إلى الصمت، صمت جامد يملأ الخريف. كان أعلى الفيضان قد بدأ يصغر، كانت برك ماء تتخلل المشهد. عما قريب يحين موعد قطاف البطاطا. قال ولهلم:

- الآن سوف تذهب لقطع الأغصان الباقية حول الأرومات في غيضة الدردار.

قال مارتان:

- حسناً، هل أصنع منها حزماً؟

- نعم، حزم أوراق للخراف. خذ معك مشذباً.

مضى مارتان. كان يغني وهو يعبر الغيضة. كان مستثاراً لأن ضجة المدحاة كانت ماتزال تملأ أذنيه.

كان يلقي بحجارة، حجارة كبيرة، بلوف، بلوف! في البرك. كان سنجاب يهذر في شجرة التفاح البرية. التقط مارتان حجراً. أيها الصغير، أيها الصغير، تعال أشق لك جمجمتك. كلا، لم يصب. وهذا إذن؟ هه! كلا، لقد هرب. كان السنجاب قد قفز إلى الأرض. عاد إلى التسلق على جذع شجرة دردار كالسهم. وهاهو يقفز من غصن إلى آخر، من شجرة إلى أخرى. كان السنجاب يقول: هيهي! هيهي!

- آه حسناً، هكذا إذن؟ وهذا ؟

كانت الحجارة تصفر في رؤوس أشجار الدردار. التقط مارتان العديد منها. طارد السنجاب طيلة بعد الظهر. تجاوز الطاحونة وتسلق البوابات. خذ، فلان!

كان ما يزال تحت تأثير النشوة التي نجمت عن ضجة المدحاة. إلا أن السنجاب كان يقفز متزايد الابتعاد. اختفى في مكان ما في العالم الواسع. وفجأة وصل مارتان إلى الطاحونة الآلية، ثم إلى المحول الذي كان ينتصب، ضخماً وأحمر، في المرعى ويزأر كهربائياً وسط الصمت. كانت العوازل تبدو واقفة على جبينه مثل حمامات موت. ماذا لو أرديت أحدها ؟ بحجر ؟ كلا، كانت كهربائية. وفضلاً عن ذلك، سيكون الأمر غبياً. فلندعها. عاد مارتان إلى غيضة الدردار. ولهلم كان ينتظره فيها.

- أين ذهبت؟

- جمعت أوراقاً.

- أنت تكذب، خذ! (صفعة) خذ (صفعة أخرى) وخذ! (صفعات متوالية).

كان الطلاء المكتسب، إلى حد ما، في المعهد الزراعي يتقشر

ويكشف في ولهلم عن النذل، وكانت طبقة الطلاء التقوية تتقشر، أيضاً، مع كل صفعة.

وهكذا تلقى مارتان أول تأديب كبير في حياته توج بركلة في مؤخرته.

كان مارتان يصرخ ويبكي. أمسك ولهلم بأذنه وأعاده إلى البيت. خرجت هيلفيغ وغونفور متساءلتين عما كان يجري. قال ولهلم:

- السيد يعرقل العمل. هؤلاء الصغار يجب أن يؤدبوا في صغرهم.

قاد مارتان إلى الأهراء من أذنه في حين كانت غونفور تتضاحك وهي تلقي بنظرة من عينيها الفاتحتين على حطام البلدية يُسحب من أذنه.

كان الزراعي، كعنكبوت شريف يسحب عنكبوتاً غير شريف وراءه، يسحب على الدرج، بالقوة، ذاك الذي «كان يريد له الخير».

فوق، في الأهراء، كانت توجد عناكب حقيقية. هربت إلى نسجها.

آه! كانت أزمنة سحر. قال ولهلم:

- الآن ستنام. لا عشاء لك! وغداً، هل تسمع؟ غداً!.. كنت أنوي أن أترك لك يوم الأحد...، ولكنك سوف تذهب غداً لجمع أوراق.

عض مارتان، وهو يصرخ، يده، ولكنه تلقى صفعة وتكوم، وهو يرتعش، على سريره، ومنذ أن ذهب ولهلم، راح يبكي. بكى طويلاً، قسماً كبيراً من الليل.

هكذا انتهى يوم بدأ بهذا المقدار من الفرح مع المدحاة.

الله كان طيباً. لقد أوقع به عقاباً نموذجياً من أجل سنجاب لم يصبه مع ذلك.

كان طريفاً أن لا يراقب الله الأشخاص الكبار. بلى، كان يراقبهم،

دون شك، كذلك. كان حاضراً في كل مكان. فيجب أن يكون في الغرفة.

كان أفضل له أن يصلي. صلى مارتان صلاة طويلة، ومحيرة. وبعد أن تلاها، لم يعد يتذكر ما كان قد قاله.

يوم الأحد. أحد خريفي جميل، ولكنه يوم الأشغال الشاقة لمارتان. في البداية، انتقم لنفسه بإحداث جلبة بشعة في البيت بقبقابه. أنا أنهض عن المائدة، بوم، بوم، بوم.

قطة البيت كانت جالسة عند سلم المدخل ونظرت بعينيها الصفراوين كالعسل إلى مارتان وهو يمر. كانت القطة تهر.

بوم، بوم، بوم، كانت الخطوات تدوي منعكسة على جدران الاصطبل. كان مارتان قد انتعل قبقابي الأحد الجديدين تماماً واللذين كانا يلمعان صافيين في الصباح كبيتي كلاب مصنوعين من خشب مازال طرياً. وكانا ثقيلين. نعم - بوم، بوم، بوم - كانا ثقيلين. كانت كل قدم في سجنها. الآن، في يوم الرب، كان الأمر يدور حول قطع أوراق وجمعها. كان ولهلم قد قال له: أربعون حزمة، ثم تكون حراً.

بسبب الأحد، كان الله سيعاقب ولهلم أيضاً، سوف يستحق نصف العقوبة. كان ذلك، دائماً، تعزية.

كانت الشمس تتلهى، تتقافز في ذرى أشجار الدردار. وكانت العصافير تزقزق في أعلى الأشجار بحيث يظن أنها كانت تنتمي إلى طائفة دينية. كان مارتان يقطع مخلفات السنة حول الأرومات، وكانت تتهاوى كالعلف. حتى في الخريف، تبقى الأوراق رقيقة كما في الربيع. كان يصنع منها حزماً يلقي بها في كومة. إحدى وعشرون، اثنتان وعشرون. ساعتان من العمل انقضتا فعلاً.

قال في نفسه أن من الأفضل أن لا تكون الحزم على أكثر مما ينبغي من الهزال. وأعطى حزمه حجوم نساء مسنات، شدّ وسطها بحزام من القصب.

وقال لنفسه أنه لايجدر بها أن تكون سميكة وإلا فإنها لن تجف في الوسط، عند ذلك، جعلها أقل كثافة، نحيلة تقريباً، حزم التردد.

قال في نفسه إنه من المؤسف أن يتعرض المرء للأشجار، وحرك المشذب بمقدار أقل من التعجل ليفكر بصورة أفضل في الأضرار التي كان يوقعها.

من المؤسف، أيضاً، تجويع الخراف. مؤسف مقابل مؤسف. سبع وثلاثون. كانت ساعة الخلاص تقترب. كان المشذب يقطع ويقطع. كانت تراود مارتان أفكار متزايدة العذوبة. كانت تتخذ صبغة ملونة، كان يلف الحزام في صحيفة ميلاد. غفر لولهلم تقريباً، من مارتان، ومن الله.

عند ذلك حدث شيء ما!!!

نعم، حدث شيء تحت قبة أشجار الدردار، في هذه الساعة التي كان، فيها، كل الأطفال الحقيقيين في مدرسة الأحد.

كان أحد عجول الجار قد نجح في التسلل، دون أن يرى، من ثغرة في السياج. وها هو، في الحال، أمام حزم الأوراق، وأخذ في التهامها جاهلاً الشر الذي يمكن أن تبطنه نفس ربيب للبلدية. فعل ما هو أكثر من ذلك أيضاً. نسي نفسه في الأوراق المكدسة.

التفت مارتان وقدر حجم الكارثة. أفلتت منه صيحة ألم وغضب وحملت روحه سبعة آلاف سنة إلى الوراء، إلى عصر الجموديات، وبضربة واحدة من مشذبه الثقيل، شق جمجمة العجل. تهاوى العجل. أوه! أوه!

أوه! نفر الدم من جبين العجل وسقط ميتاً دون صوت.

وها هو مارتان، الآن، يرقص حول العجل. كلا! هذا وهم تظاهر في يأسه.

أطلق مارتان، أولاً، صرخات، فأفآت مخنوقة كما يئن فأر حقل مسحوق في العشب. كان جسمه يتحجر في ذعر راشد، وقلبه يخفق قارعاً نوبة الاستسلام، وكان يؤلمه. أمطر مارتان وجهه بلكمات. كان يركض كمجنون حول العجل الميت هاتفاً دون انقطاع: يا إلهي! يا إلهي!

تهاوى مغمياً عليه، مضموم اليدين وطرفا قبقابيه متجهان نحو الأرض. عندما استعاد مارتان وعيه، ضحك عقعق منه. كان مارتان المنهار يشعر بأحاسيس المجرم المطارد بعد فعلته.

وبعد أن توسل إلى الله، جاثياً، أن «يفهمه»، تساءل كيف «يخفي»، كيف يخفي ما جرى.

كل شيء جرى بسرعة كبيرة كما لو أن شيئاً لم يحدث. لم يكن ليصدق، تقريباً، ما جرى لولا خوفه وضربات قلبه المتهيج. لم يكن ليصدق عينيه. كانت الغيضة مضيئة كما كانت من قبل. ولكن العجل كان ممدداً على الأرض، هناك، ميتاً، مقتولاً! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! هل تسمعني يا الله؟

كان، في ضياعه، يتوجه إلى الله كما لو أنه أي كان. قل، إذن، يا الله! ساعدني! قم، يا الله، بمساعدتي! لا تتخلَ عني، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

غطى مارتان العجل بالأوراق وهو يبكي. أخذ يرتعش، وبما أنه لم يعد يعرف ماذا يفعل، شرع في «إخفائه».

تسلل حتى المستودع. شكراً يا الله، أنت لطيف، المستودع لا يرى من البيت.

عاد مارتان إلى الغيضة دون أن يُرى. كان معه، الآن، معزقة.

لا وقت للضياع. توسل إلى الله، مؤنباً إياه بتمتماته المبحوحة، أن لا يفاجئه أحد. أخذ يحفر حفرة بين شجرتي سنديان كبيرتين. ظلت العصافير ساكنة في الأشجار. كانت تعرف ما عليها. يا إلهي! كان مارتان يلهث ويئن بصوت منخفض كحيوان صغير يحفر لنفسه ملجأ في البرية الملتهبة. لن يستطيع، أبداً، أن يمضي بسرعة كافية. كان العرق يغرق عينيه ممتزجاً بالدموع التي كان يستأنف ذرفها من وقت إلى آخر. يا إله العوالم السماوية ساعدني، الآن، على إخفائه. ساعدني على إخفائه بسرعه كبيرة، وإلا فسوف يقتلونني!

واستجابة للأنات التي تدعو للرثاء والتي كان يطلقها تحت شجر الدردار، منحه الله أن يحفر أرضاً طرية إلى حد كاف وفرصة أن لا توجد تحت معزقته جذور ضخمة، وأخيراً منحه الله، ولم يكن هذا أدنى صنيع، ما يكفي من رباطة الجأش ليحمل العجل إلى الحفرة المحفورة حديثاً. كانت هذه العملية الأخيرة، بالنسبة إليه، عملاً ثقيلاً. كان ينبغي عليه التفكير فيه كعمل وليس كجريمة. كان العجل ثقيلاً. كان على مارتان أن يعاود العمل ثلاث مرات، ولكن الله أعاد منحه القوة دون تأخير. أخيراً، نجح في إدخال العجل في الحفرة الضيقة. وبعد بضع دمعات، أيضاً، وبعد أن توجه إلى الله بصلاة ليفهمه ووعده بأنه سوف يعترف منذ أن يصبح كبيراً، تلقى مارتان من الله مزيداً من رباطة الجأش ليغطي العجل بالتراب.

بقي لديه بعض التراب بعد أن غطى العجل. لم يكن يستطيع أن يترك حدبة في الأرض. رفع مارتان، إذن، تراباً ليغطي الدم المسفوح قرب كومة الأوراق وعندما سوي كل شيء جيداً، فرش أغصاناً وعشباً على الأرض المدماة كما على القبر. ثم طاف، على أربع، حول أشجار الدردار فاحصاً، بعناية، الأرض حولها. حباه الله برباطة الجأش ليفعل هذا، كما أعطاه الفكرة الحذرة، فكرة مسح الدم الذي تلوث به المشط عنه. كانت العصافير تغني في الأشجار.

ما كاد يعيد المعزقة إلى المستودع ويعود إلى الغيضة حتى ناداه ولهلم. جاءه الرد من الغيضة بصوت فرح بصورة غير طبيعية:

- ها أنذا.

صاح ولهلم:

- تعال للغداء

دوت الغيضة بكلمة «شكراً».

أسرع مارتان في دفع الحزم الملوثة إلى دغل كثيف وتغطيتها بأغصان وأوراق. رسمياً، كان ينقص الأربعين المحددة، الآن، ثماني حزم. هتف مارتان في اتجاه ولهلم، من طرف الغابة، لمزيد من الأمان، قائلاً: أنا آت، أنا آتٍ! عندما انتهى كل شيء، عجل في العودة إلى المزرعة. كانت الشمس تلمع، وكان الطقس صافياً وألوف العصافير تغني في الأودية المورقة سعيدة، ظاهراً، لكونها انتهت من البيض والصغار وكل مضايقات الصيف. توقف مارتان عند البوابة. هناك، قرب الطاحونة الغربية، كانت عدة عربات لغجر تتمايل مكتئبة على الطريق الذي يؤدي إلى الأرض البراح. كانت العربات تتأرجح فوق المرج كسفن مبتورة تبحر

في بلد دون مغامرات. لم يكن مارتان يحب الغجر. كانوا زائفين مع الخدم والأطفال زيفهم مع المزارعين. ذات مرة، سرق منه غجري صغير، بالحيلة، هارمونيكا صغيرة من الطراز الأول. كان فيها ثلاث نوطات نشاز ولكنها، فيما عدا ذلك، كانت من الطراز الأول. لم يكن الغجر، بالطبع، يعرفون شيئاً بالمرة. كانوا يجتازون الطرق نفسها دائماً. لم يكونوا يذهبون، بعرباتهم، بعيداً حقاً، لم يكونوا يمضون، أبداً، في الرحلة الكبرى عبر العالم، البراري أو الهيمالايا، البنجاب أو كليماندجارو، كانوا يلفون، فقط، حول القرى، بالطريقة نفسها دائماً، مجرى سير جامعي خرق. يرسمون، دائماً، رقم 8، أرقام 8 كبيرة كقطع الحلوى الكمونية. عندما كبر مارتان وأصبح معلماً لذاته قليلاً، علم أن رقم 8 مكتوباً بصورة أفقية هو رمز اللانهائي، الأزلي.

هذه العلامة كانت تظهر، أيضاً، في التقويم، بين الدلالات على الطقس، ولكنها كانت تعني، في هذه الحالة، ضباباً على الشمس. كانت الفلاحات يرسمن، أيضاً، هذه العلامة، ولكنها كانت في العجين، لصنع حلوى الكمون، كمونيات صفراء. خطرت له فكرة مفادها أنه لو صنعت قطعة حلوى أكبر حجماً لاستطاعت هيلفيغ أن تلفها حول ثدييها. لدى هذه الفكرة، خجل مارتان من نفسه. تشبث بالبوابة بيديه النحيلتين ناظراً إلى قافلة الغجر تمر. كان يكره الغجر لأنهم لم يكونوا يشتغلون أبداً. كان، هو نفسه، مرغماً على العمل حقاً. وفوق ذلك، فإن الغجر كانوا يتضاجعون في الغابات. كانوا أناساً لا عقيدة ولا قانون لديهم. هل كان يأنف من المضاجعة؟ ولكن، في هذه البرهة، في هذه البرهة، كان يتشبث بهذه الأفكار، يحاول أن يتخيل أسوأ الأشياء ليفلت من ذكرى

العجل التي بدأت تسكنه. تصور، وهو يفتح البوابة ويدخل إلى الحديقة، الأسوأ، الأسوأ مع بنات المدرسة، الأسوأ مع النساء الراشدات، أسوأ كل ما يمكن أن يحصل. اكتسحته نفحة حرارة وأحس بالدوار، فبصق على الأرض في مزيج من اليأس والاشمئزاز من نفسه. كان ذاك زمن الوصية السادسة*. ماذا تفعلان في العلف، هناك فوق؟. خطرت له فكرة، وضع قبقابه عند عتبة الشرفة وتأخر مفكراً. تذكر بنتاً صغيرة كانت قد قالت Sixe بدلاً من Six، كانت في المدرسة الأولى التي ذهب إليها. كان ذلك في السنة التي توفيت، فيها، إينيز. كان والدا البنت الصغيرة قد وصلا مؤخراً من أمريكا، وكانت مولودة في أمريكا حيث يقول الناس Sixe. لم يستطع، قط، أن ينسى هذه البنت. المعلمة - وكان، على وجهها، بقع نمش قاتمة جداً كدم جاف، شفاف تحت الجلد - ترى أن هذه البنت طريفة وتدعها تقول ما تريد. كان الجميع يجدون ذلك، Sixe، طريفاً.

تنهد مارتان. قال لنفسه: نعم كان هذا في ذلك الزمن.

دخل إلى المطبخ. كان بخار أطباق الأحد الموضوعة على المائدة يتصاعد على شكل حلزونات. كانت الستائر تتدلى خفيفة، كنباتات حيوانية، كسجف من ضباب معلقة داخل البيت. كانت الشمس تلمع في قلب زجاج، شمس ذهب وبر حارة هادئة هدوء النافذة. كانت الشمس تضع هالات على كل شيء: على بخار الطعام، على مشد غونفور الشفاف المنسوج من الموسلين، على شعر هيلفيغ. كان الوبر الأشقر على يدي ولهلم يلمع في الشمس. كانت يدا ولهلم فوق المائدة. كان حاجبا غونار الكثيفان، كلهما، ككل شيء، نعم ككل شيء، قد استحالا إلى

(*) - لا تزنِ.

أشعة شمس وضبابات مذهبة حول أجساد تبرز كأطياف على ضوء الخارج. تقدم مارتان نحوهم، والشمس في وجهه تماماً، باسماً ويطرف بعينيه والشمس توفر له ذريعة ليبعد، أيضاً، بإغماض عينيه، ذكرى العجل المدفون في الغيضة. قالت هيلفيغ:

- هيا. اخدم نفسك، خذ مكانك! اجلس

أتت بطبق ساخن آخر، طبق ضباب شمس.

جلسوا، احنوا رؤوسهم وانتظروا. وكما اعتاد مارتان أن يفعل، تلا عليهم صلاة المائدة. كان صوته يرتجف في الضباب المذهب، عالياً وطفلياً. كانت صلاة قصيرة، تلك التي يتلوها الناس في المنطقة، أربعة أبيات صغيرة، ثم آمين.

وببطء، تركوا ذقونهم تطفو فوق موجات الصلاة، غائصين بنظراتهم في البخار الذهبي الذي كان يتصاعد من الأطباق، نفثات صامتة في الشمس. كانت الشوكات الفضية التي سخنت من حرارة الشمس تنغرز في البطاطا المدخنة. كانت الملعقة الفضية التي تمسك بها يد المزارع المشعرة تمضي إلى الطبق تستخرج منه قطعة من سمك الصندر بيضاء كالثلج. قال غونار الذي كانت عيناه هشتين:

- ربما كان علينا أن نسدل الستار.

قالت هيلفيغ:

- إذا كنت تريد ذلك يا أبي

قال بلطف:

- نعم، أود ذلك حقاً.

كانت تبحث، في ضوء الشمس، الذي كان يدخل من النافذة، عن

الحبل متلمسة. كانت، ذراعها ممدودة، تغمز بعينيها نحو قرص الشمس. اسدل الستار فبدت الغرفة زرقاء فاتحة. كان مارتان يفضل أن تكون الشمس في عينيه. كان، الآن، أقل اطمئناناً. أطرق بعينيه في طبقه مبتكراً طريقة للاختباء. كان يفحص رسم المشمع، رسم الطبق، وأضلاع السمك. شق بالشوكة الفضية قرص البطاطا ببطء مبالغ فيه وتأمل النصفين اللذين كان البخار يتصاعد منهما. قالت هيلفيغ:

- لا يلعب أحد هكذا بالطعام.

فزع مارتان. ابتسمت هيلفيغ ابتسامة صغيرة لهذا الصبي الذي كان يفزع لدى أية ملاحظة، ولكن صوت ولهلم تدخل وأنقذ مارتان. كان يمسك بشوكة فضية. رفع عينيه عن صحنه وقال:

- ماذا، إذن، يا مارتان؟

سحق مارتان بشوكته نصفي قرص البطاطا ودفع بسكينه البطاطا المهروسة نحو قطعة سمك الصندر. صرخ مارتان (بلهجة مرحة) بعد أن تداول مع ضميره لحظة:

- ايه حسناً، لقد انهيت اثنتين وثلاثين حزمة. لم يبقَ لي سوى ثمان.

قلد لا شعورياً، رافعاً عينين وقحتين ومرحتين، حركة ولهلم رائزاً، بيد، الشوكة الفضية. ورفع باليد الأخرى خصلة الشعر التي كانت تضرب جبينه وابتسم بوقاحة مشمسة، ثم تحولت الابتسامة إلى تكشيرة فظة من ضمير غير مرتاح. في أثناء هذا الوقت كان يحس في نفسه بالتصاعد البشع للخوف. كان قلبه على أهبة لأن يقفز لدى أدنى إنذار، وكان بطنه ينعقد وصدغاه يحترقان. تابع ابتسامته طويلاً وبشكل

عصبي حتى اللحظة التي انتزعه، فيها، ولهلم الذي لم يكن يرتاب فيما كان يجري في أعماقه من دور الصبي اللطيف المبتسم بتشنج للشمس. قال:

- حسناً يا مارتان، هذا يكفي. تستطيع الحصول على بقية اليوم.

- شكراً.

قال ولهلم:

- لا داعٍ للشكر.

لحسن الحظ، أخذوا يتحدثون، حالاً، عن أمور أخرى. عن أقارب مختلفين، عن درس الحبوب، عن معرفة ما إذا كان هناك داع للحصول على مدحاة جديدة من طراز كمبردج. كانت هيلفيغ وغونفور تتحدثان على حدة، همساً، عن خطوبة قريبة، خطوبة هيلفيغ.

كان مارتان يحس بالامتنان نحو العناية الإلهية التي كانت قد أدارت المحادثة. كان يختبئ، في هذه الأخيرة، سعيداً لكونهم لم يعودوا يتوجهون إليه، لأن أحداً لم يعد يعيره انتباهاً، سعيداً لكونه «مستبعداً». دامت المحادثة حتى نهاية الوجبة، حتى اللحظة التي سكتوا، فيها، وأشاروا إلى مارتان ليتلو الصلاة.

تلاها بصدق أكبر منه في أي لحظة أخرى منذ وصوله إلى تولين. كان يضع فيها شيئاً من نفسه. وبعبارة أخرى: كان يتوجه إلى الله لحسابه الخاص، شاكراً إياه على كونه قد سهر على أن تنقضي الأمور بهذه الصورة الجيدة. كان وجوده الفتي، وقد أراحه الامتنان سحرياً، كاملاً في صلاته

من أجل خبزنا نشكرك يارب.
علمنا أن نطيع وصاياك.

بعد ظهر ذلك اليوم، لعب مع ستين وهو صبي ضائع في أحلامه وأحد أكثر الصبيان «علماً» في المدرسة. كان صبياً صغيراً وجلاً، نحيلاً كبر بأسرع مما ينبغي، على أهبة أن ينجز تحوله. كان ستين يسكن، وراء أشجار خوخ هائلة، بيتاً فقيراً إلى أقصى حد. كان مارتان يشفق عليه دائماً. لم تكن له، هو بالذات، على الرغم من كونه يربى على نفقة البلدية، حياة بهذه القسوة قط. وفضلاً عن ذلك، فلم يكن يمكن أن تفيض المحبة في بيت مؤلف من غرفة صغيرة واحدة يحتك الأشخاص، فيها، دون انقطاع ببعضهم بعضاً كما لو كانوا في خزانة.

كانت الحديقة الصغيرة في الخارج. تقترح مصالحة أولى مع العالم تحت أنواع زهور بالمئات. ولكن ستين الغارق في أحلامه والمنذور للفاقة غالباً ما كان يبدو نموذجاً غريباً وينظر إلى الأزهار دون أن يراها. كان غارقاً في أحلامه وكرة الفقر الحديدية في قدمه، فكان يرى، دائماً، ما وراء الأفق، وفي هذه الأثناء، كان قبقاباه يسحقان البزاق، البزاق الذي كان أقرب جيران انتظاره الهادئ وقبقابيه. كان، وهو الذي كان فقيراً وحالماً حقاً، أعمى بالنسبة لكل ما كان إلى جانبه. كان يمضي، مشفقاً على نفسه، بقبقابيه الضخمين ولايحس إلا بما كان يجري هناك، في الأفق. كانا ينظران عبر الأشياء دون أن يريا شيئاً، وعيونهما ضائعة في الفراغ، في الأبدية. كان في المدرسة خمسة أو ستة من هؤلاء الرجال الصغار الحالمين. كانوا يفضلون أن يتجمعوا فيما بينهم، ثم يجلسون ناظرين عبر الآخرين كما لو لم يكونوا موجودين. كانوا لايفعلون سوى سماع أصوات الآخرين، وكل صوت منها مليء بالإشفاق على الذات، تتحدث عن الموهيكان والبحر وجسم الطحالب وبيوت البيع بالمراسلة أو

عن كاليفورنيا. قيل في كتب الأطفال إن سرايا الفتيان التي تتشكل على هذا النحو كانت يقظة، زهرة جنس الصبيان. كان العكس هو الصحيح حسب تجربة مارتان. فقد تذكر، حين أصبح أكبر عمراً، دون أسف، الفترة التي كان، فيها، عضواً في سرية الأحلام، يدخن في غلايين القصب ويلطخ محيط عينيه بعصير العناب، فلم تكن الأصوات، التي تدوي، وحدها، جوفاء. كل شيء كان أجوف، حتى لو مثلت الكوميديا بصورة جيدة من أجل الخداع.

بعد الأحلام، تأتي اليقظات المؤلمة. الحياة اليومية كانت تعود لتقع عليهم ككيس الرمل بالنسبة للملاكم. ذلك أن الفكر كان يدخل إلى وادي سكرمنتو أو إلى أي ممر جبلي خطير مسلحاً، دائماً، ببندقية وينشستر، متربصاً دائماً. أو أنه كان يجعل من نفسه باحثاً عن الذهب في أعلى ضفاف النهر أو يسافر بصحبة مارتان حتى اليوم الذي كانت الصحف - باركها الله - تواجه، فيه، الأحلام بواقع العالم وتنشر تقارير معركة هيليغولاند.

كان ستين ومارتان يلعبان على ضفة البحيرة. كانا ينحتان قوارب من قطع لحاء ويتركانها للأمواج، تتأرجح عند أقدامهما. ثم كانا يبقيان هناك، فارغي النظرات. لم يكونا، نوعاً ما، يستطيعان اللعب. كانت الأساطيل تجنح بين الحجارة وتغرق في حين كان الأميرالات يقضون وقتهم لدى الموهيكان أو لدى المرأة. كانا يريان، ونظرتهما ضائعة في البعيد، يريان أسطولهما، دون أن يرياه، محمولاً بالتيار ومردوداً إلى كومة من القاذورات. لم يكونا يريانه. كان ماء البحيرة يتدفق. غطيت السماء، فجأة، بسحب رمادية واتخذت الموجات لوناً أزرق مسوداً.

غطس الطائر. كان يحس على جسده بحياة كل يوم. كان متوحداً مع حياته اليومية، مع الماء. لم تكن عيناه شاخصتين إلى بعيد، لم يكن يتغذى بالأحلام. كان يقف على الضفة حالمان كل منهما يشفق على الآخر وعلى نفسه. كانا يدعان نظراتهما الطويلة، «الكاليفورنية» تضيع، من فوق ظهره، في الفراغ.

في هذه البداية للخريف الشبيهة بالصيف كانت الشمس تلمع. كانت مخلفات البطاطا في الحقول تحتفظ ببريقها الأخضر. كان الوقت هو منتصف أيلول، والبذار قد تم، ولكن عصافير الدعريات تأخرت في انتظار أواخر الأيام الجميلة. كان اللفت ينمو في الأراضي الطرية ضخماً كأفخاذ أطفال. كان ينتمي إلى نوع التانكار الأبيض، وكان الجزء الأعلى منه يرتفع إلى أكثر من قدم فوق الأرض. لم يكن، بالنسبة للأطفال الذين كانوا يجمعونه، يكف عن جعلهم يفكرون بأجساد عارية.

كان ولهلم قد استأجر صبيين كانا يجمعان اللفت مع مارتان. كان تسابقا على نبش «الأكثر عرياً» من اللفت - عينات مفتولة وغريبة أو تقف على ساقين.

كان يبدو أنه لم تعد هناك أسرار بالنسبة لهذين الصبيين، أميل وبيرغر. لم يكن ترد على لسانيهما سوى قصص الجنس أو الهنود الحمر. مارتان تعلم منهما أشياء مختلفة متفاوتة.

كانا يعلنان: الآن سوف نقول بذاءات. ويجلسان ويقولانها. كانا يعطيان حبات اللفت ذات أكثر الأشكال غرابة أسماء بنات من الجوار. ولكن مارتان كان شارد البال. كانت ذكرى العجل تهصر قلبه. وعندما كانا يملان اختراعاتهما بصدد اللفت، كانا يعودان إلى الحديث عن الهنود الحمر. ولكن مارتان كان يبقى في مكان آخر. وعندما زحف الموهيكان،

لم يكن يفكر إلا في اللحظة التي كان، هو، قد زحف، صامتاً كالموت، في الغيضة وغطى دم العجل بالأوراق..

كم من الزمن يلزم من أجل...؟ لم يكن يجرؤ على المضي في تفكيره إلى النهاية.

بعد الظهر، جاء ولهلم إلى حقل اللفت. كان الجار يصحبه. كمن الخوف ساكناً في مارتان. لم يكن أحد يرى الخوف الذي يسكنه. كان مارتان يقتلع اللفت من الأرض بحركات كبيرة، ثقيل النظرة ومليئاً بلا مبالاة مصطنعة.

سأل ولهلم قائلاً:

- هل رأيتم عجلاً هنا أيها الغلمان؟

قال الجار:

- نعم، لقد هرب. ألم تروه، اتفاقاً، في الجوار؟

استطاع مارتان أن يختبئ وراء حركات الآخرين وانكاراتهما ليهز رأسه، هو الآخر، ويجيب أن لا، لم يرَ العجل.

- كلا، كلا، لم نرَ شيئاً. لم يمر من هنا على كل حال.

نظر المزارع إلى ولهلم. كان مارتان يخفي ارتعاشه وحمّاه بانتزاع حبات اللفت والإلقاء بها في الكومة بحركات كبيرة. كان الصبيان الآخران يعملان، لحسن الحظ، بالهمة نفسها. لم يكن أحد يستطيع أن يكتشف خطيئة. كانت عينا الجار مثبتتين على ولهلم وصرح قائلاً:

- يجب أن يكون الأمر قد جرى كما قلت.

كان قلب مارتان يخفق إلى درجة الانفجار. ماذا أمكن أن يكون قد قال حقاً؟ كان مارتان يقتلع لفتاً ولفتاً. سمح الله له بأن يحتفظ بقليل من رباطة الجأش ليصغي إلى الجار.

- الغجر. يجب أن تكون قد رأيت هذه الحثالة، أمس، خمس عربات.

قال ولهلم:

- يجب أن تكون على حق. ليس هذا مستحيلاً...

قال الجار:

- نعم، هذا واضح. إنها ضربة من هؤلاء الغجر الأوغاد.

غمر النور دماغ الجار في الوقت نفسه الذي ارتاح، فيه، قلب مارتان.

مضى المزارعان وهما يلعنان الغجر. وفي صمت، شكر مارتان الله على وجود الغجر على سطح الأرض. تابع الغلمان اقتلاع اللفت كما لو أن شيئاً لم يكن. عادوا إلى البيت في ساعة الغداء. ولكن أفكار مارتان دارت، خلال الأيام التالية، حول العجل في قبره. قالت هيلفيغ:

- كم تبدو سعيداً وعطوفاً.

آه، حسناً، كان امتنانه لله من أعماق قلبه مرئياً إذن ولكنه كان يعرف، فوق وتحت، حالة نفسية أخرى كانت تلغي مشاعره أو تصدها، تستعيدها، تلغيها وتردها. كل شيء كان في حركة فيه، العالم بأسره في حركة فيه.

كان هو نفسه بين الحياة والحياة، بين الولادة والنضج، في نصف حياة الطفولة الممنوع، في الصحراء.

في تشرين الأول، غادر تولين إلى مزرعة نوردا. لم يكن الوداع في تولين مؤثراً.

كان مارتان يحس، مسبقاً، بأن أحداً لن يأسف عليه. سوف تدور عقارب ساعة «البحر الأبيض» كما في السابق. سوف تستمر الساعة في الإعلان عن الساعات بطريقتها المرتعشة والخافتة. كل شيء سيكون كما في السابق. لن يكون هناك من يقول: على هذه الدكة كان ينام مارتان، على هذا الكرسي كان يجلس مساء ومرفقاه على الطاولة وفي كل أذن من أذنيه أصبع، عاكفاً على دروسه، مارتان سيختفي دون أن يترك أثراً. لن يظهر، كشبح في ممشى الحصى في الساعة التي تفوح، فيها، رائحة أزهار الليلك.

قال ولهلم:

- ستكون بخير (هذا، أيضاً، ما كان يقوله له الآخرون) شريطة أن تتصرف كما ينبغي.

نظر مارتان إليه، وبغتة أصبح كل شيء واضحاً. لقد دبروا هذا.. كانوا يرسلون به إلى حيث يعلمون، بالضبط، إنه لن يكون بخير. كان الأمر يمضي من سيىء إلى أسوأ! لم يكن مارتان قد فهم، قط، شيئاً بالوضوح الذي يفهمه به، الآن، وهو ينظر إلى ولهلم بهيئته الراضية. كان ينبغي أن يكون أعمى من أجل أن لايقرأ، فيها، مستقبله المباشر.

قال مارتان لنفسه: آه حسناً! الأمر هكذا! في هذه الحالة، أستطيع أن أنسحب قبل الغداء، لن يكون عليهم تقديم الغداء لي. خفض عينيه نحو قبقابه. كل ما كان يطلبه هو كيف سيفعل ليقول لهم ذلك.

وفجأة، جاءت الكلمات إلى فمه، بغتة أيضاً، أكثر مما كان قد أراد تقريباً.

- حسناً، الأفضل هو أن أذهب حالاً. أعني أني، بذلك، لن أصل متأخراً.

قال ولهلم بابتسامة متصنّعة:

- لا داعٍ للعجلة. تستطيع أن تبقى لتأكل.

قال مارتان وهو يعيد ابتلاع لعابه:

- نعم، نعم، ولكني... لست... جائعاً... بالمرة.

تفحصه ولهلم بعينيه.

- حسناً، لا أجبرك.

أحسّ مارتان بالراحة. أدار ولهلم رأسه، وأصبح كل شيء، بذلك، أسهل. أعطت هيلفيغ مارتان الرزمة التي سوف يأخذها.

- خذ رزمتك.

نظر إليها مارتان من أقرب نقطة تجرأ على النظر، منها، إليها قط. كانت الدموع في عينيها. لم يكن يفهم السبب. الشفقة بالتأكيد. نعم يجب أن يكون هذا. كانت عيناها تخزنانه أيضاً، وها هو، الآن، أمامها: الشفقة، الشفقة على ابن العم توم، آه، آه. علت وجهه تكشيرة جعلت هيلفيغ تتراجع. عادت، محبطة ومهانة بعض الشيء، إلى فرنها. دنغ - دنغ، الساعة تدق في الغرفة المجاورة. انتزع نفسه من أحلامه وتأملاته ليعود إلى تولين، إليهم. بدأ يودع.

مضى من واحد إلى الآخر. كانوا قد اتخذوا أماكنهم في «البحر الأبيض» جالسين حول السجادة الجميلة. كانوا صامتين باستثناء تزويده ببعض التوصيات: «فقير، ولكن شريف»، «ساعد نفسك تساعدك السماء». انحنت الساعة، الساعة الكبيرة البيضاء، له وحده، ولم يلاحظ الآخرون شيئاً. كانوا يرونها مستقيمة ومتصلبة بنواسها وتكتكتها. كان المسيح ينظر من اللوحة المعلقة على الجدار إلى حَمَله الذي كان، في عالم التوصيات، يتقدم على السجادة الجميلة كما على مرج مجزوز. أوه! كان المسيح لطيفاً جداً بألوان نورمبرغ، كان ينضح عرقاً، يمكن أن يخيل للمرء أنه عسل، مضى مارتان، أولاً، نحو غونار العجوز، وأخذ يده. كان الجميع صامتين، ولكن الصمت كان يتكلم نيابة عن مارتان. وداعاً، إذن، أيها العجوز، شكراً للصفعات التي كلتها لي. شكراً لنعتك إياي بكل الأوصاف. حافظ على صمتك.

وأنت، يا ولهلم، المزارع المكرس بالغريزة الزراعية، أنت الذي تعيش في واقع مستعجل إلى حد يكون لديك يوم الاثنين فعلاً في حين نكون ما نزال في يوم الأحد، أنت الذي ليس في رأسك سوى «أفضل البذور من عند سافلوف»، يدك! شكراً على المرة التي ضربتني، فيها، عندما كنت عارياً على ضفة البحيرة، أغفر لي خوفي من الظلام - إلا أن الصحيح هو أنك أدبتني لهذا السبب. وداعاً إذن! كوني أنت، أيضاً، يا غونفور على أفضل حال. وأنت يا هيلفيغ، لقد شعرت حيالك بأشياء لا تعلمينها. وداعاً إذن.

هذا هو الأمر. شكراً على أيام التقوية هذه.

لم يقل شيئاً من كل ذلك وهو يستأذن بالانصراف. وبما أنه

«لطيف»، فهو لايفكر فيها أيضاً، أبداً. دار حول سجادة «البيت الأبيض» الجميلة، رأى كل الأنظار تلقى عليه، وترنح في مشاعر الوداع العكرة.

ثم عاد، صافي الذهن، إلى عيد ظهر يوم الأربعاء هذا. وها هو مارتان، ملك البلدية، يتجه نحو الباب وعلى وركه الأيمن رزمة ضخمة على شكل يقطينة. كانت ذراعه المثنية، تنزلق على الورق الأسمر. التفت على عتبة الباب ووجه إليهم، من خلال الدموع، نظرة. كانوا مغلفين في بخار الدموع، دموعه، وابتسموا له. الابن الشاطر يرحل. لم يتحدث عن العجل. لقد قتله بيديه فأكبر خطيئة هي، إذن، تلك التي اقترفها هو نفسه. آه! لو يمكن الاختفاء في موسيقا الأرغن. ربما كان عليه أن يعود، أن يقول الحقيقة لولهلم، قتلت العجل. نعم، أنا قتلته. لا.لا، إن ولهلم سوف يقتلني. ولكني، في هذه اللحظة، ولهذا السبب، اغفر كل شيء، كل الصفعات التي تلقيتها دون سبب، والقضبان على الجلد العاري على ضفة البحيرة.

كان سيغلق الباب وراءه. التقى، إذ ذاك، نظرة والد نستروم، الواعظ التقوي الذي كانت صورته معلقة على الجدار. إنه يسأله، يسأله! وأصبح قاتل العجل الصغير شاحباً تماماً. الخطيئة تعذبه. فتح فرجة في الباب، وهو يرتعش كله، وقال لهم، جميعاً، بصوت أصم ومرتعش، كما لو كان فمه ممتلئاً، قليلاً، بصوف جاف:

- فليبارككم الله جميعاً!

صعد هذا إلى شفتيه بألم. من أين جاءه ذلك؟ وخبأ كل الذين كانوا هناك، جميعهم باستثناء ولهلم الذي كان ما يزال ينظر إلى مارتان،

عيونهم وراء أيديهم، كما لو كانوا يبكون. ولكن مارتان لم يعد يستطيع الانتظار، أعاد إغلاق الباب. خرج بسرعة، اجتاز سلم الشرفة وعبر الحديقة التي كان عطرها ما يزال يملأ الريح في قلب الخريف. من الأسيجة، وصلت زقزقة طيور الحبشيات. أنّت البوابة، وصر الحصى تحت قبقابه. مضى نحو نوردا. فليباركم الله! فليباركم الله! هكذا كان يغمغم من خلال دموعه.

هذه المرة، عليه أن يلتف حول البحيرات. يالشيطان كم سيكون هذا طويلاً.

أمامه وقت. ألف فكرة راودته. لديه الوقت لجمع أفكاره، وتذكر الأغاني التي يغنيها.

ولكنه فكر، أولاً، بالحرب الجارية. لقد رأى صوراً.

يتصورهم، الآن، يتقدمون راكضين. المحاربون يتقدمون راكضين.

على الدوام، هناك المزيد من المحاربين الذين يركضون. الأمر جدي. إنهم يقتلون بعضهم بعضاً، يقتلون بعضهم بعضاً تماماً.

فكر مارتان في العجل. مضى في طريقه. كان العجل والحرب يتنازعان روحه.

سمع غونار يتحدث عن الحرب مع ولهلم. الأمر غريب...

عندما يسمع الطفل كلام الأشخاص الكبار، إذا أصغى إليهم فقط، فالأمر يكون كما لو كان، طيلة الوقت الذي يتكلمون فيه، في مثل معقوليتهم. وعندما يكفون عن الكلام، يعود فتياً جداً وصغيراً كما كان.

اكتشف مارتان، وهو، يمشي، بصورة غريبة، أن في الطفولة شيئاً مرناً، إنها تستطيع أن تمتد إلى ما وراء حدودها الخاصة وتشمل، أيضاً، أعمار الناس الأكبر سناً. هناك أيام يعرف المرء، فيها، أشياء أكثر

بكثير مما يعرفه في الأيام الأخرى. هناك أيام يكون، فيها، طفلاً، ولحظات يكون، فيها، عجوزاً صغيراً. لو كان، فقط، يستطيع أن يتذكر كل شيء لأمكنه أن يصبح، في يوم واحد، راشداً في عقله.

هذا ما هو الأمر عليه، بالنسبة إليه، في هذه البرهة. إنه يعرف الحياة بعدة صور. يصعب على الأشخاص الكبار أن يخدعوه لأنهم لا يستطيعون أن يعلموا أنه، في الحقيقة، يعرف.

عندما حدثت هيلفيغ غونار عن اللقلق الذي جاء يحمل طفلاً إلى الجيران، كان مارتان يعرف أن هذا ليس صحيحاً. وإلا لماذا يأخذون البقرة إلى الثور؟ أكان ذلك من أجل أن يدخل اللقلق المكرس للبقر في بطنها؟ في عمر السابعة، كان يعلم، فعلاً، أن الطفل يخرج من بطن الأم وأن عليها أن تباعد بين ساقيها ليخرج الطفل. وكان يعرف أموراً كثيرة أخرى. في الحقيقة، كان يعرف أكثر مما يعرفون. نعم، في بعض اللحظات، كان يعرف المزيد ولكنه، إذا بقي وحده، أو توقف عن الاصغاء والقراءة، فسوف يتقهقر نوعاً ما، ستنقص معرفته.

ذات أسبوع، كان يعلم أن العمال خطرون. يريدون أن ينهبوا الأغنياء. مارتان كان يحب الأغنياء لأنهم يستطيعون أن يفعلوا أشياء كثيرة، ويملكون أكداساً من الأشياء. كان صاحب متجر البيع بالمراسلة غنياً. كانت صورته في الدليل، وكان يرى أنه لطيف وغني.

وفي أسبوع آخر، كان يعلم أن لا العمال ولا الأغنياء كانوا طيبين... الناس، هم الطيبون. هناك ثلاث فئات: ١- العمال، ٢- الأغنياء، ثم ٣- الناس العاديون. الناس العاديون هم الأفضل. كان من عداد الناس العاديين، ولكنه كان ينوي أن يصبح غنياً. وأخيراً، كان

يريد أن يصبح رجلاً عادياً غنياً، وأن يكون بحاراً في البحرية. كان يكره العمل. لم يكن يريد أن يعمل. لقد عمل، من قبل، أكثر مما ينبغي في رأيه. لم يكن يحب العمال لأنهم يعملون. كانوا يفعلون ما يكرهه. لماذا يفعلون ذلك؟ ألا يستطيعون أن يقولوا إنهم لم يعودوا يريدون أن يشتغلوا؟ كان مارتان يريد أن يتسلق الأعمدة كبحار كتاب القصص المتدرب. ولكن، هل ينبغي، حقاً، أن يكون هناك من يعمل؟

كان «يفكر» وهو يمشي، يفكر صواباً ويفكر خطأً. وعندما اجتاز جزءاً من الطريق، وجاء التعب، كان قد نسي الحرب والعمال والناس عامة. ولكنه أخذ يشفق على نفسه لأنه كان ربيباً للبلدية. كان على هذا النحو خلال خمسة كيلومترات. عند ذلك، أنشد أغنية الطفل الشهيد:

اقتربوا جميعاً لأحدثكم
عن قصة طفل شهيد
كان يمضي يوم الأحد حسن الهندام
وينشد ليسوع على قيثارته.

لامس فكر مارتان من جديد، الحرب، الحرب على الصور حيث لا يعقد السلام أبداً. ذات مرة، كان قد رأى مدافع لواء مدفعية. كان، آنذاك، صغيراً جداً، ويجب أن يكون قد خرج ليتنزه مع إينيز. مرّ رتل طويل من المدافع. كان المحاربون يمتطون جيادهم ويدخنون. كانت كل الخادمات يستحممن مساء في البحيرة. كان على بطونهن من الوبر بقدر ما يوجد على بطن سنجاب. كن ينتصبن كما هنَّ ملوحات بملابس داخلية في اتجاه المحاربين على الجانب الآخر من البحيرة. في تلك الأيام، كنَّ شريرات مع الأطفال. رأى مارتان خادمة تضرب راعياً صغيراً. كانت عاشقة كما كان الناس يقولون.

في السنة نفسها، ماتت امرأة لأنها لم تستطع المباعدة بين ساقيها ليخرج الطفل.

الذين كانوا مخطوبين كانوا شريرين. لم يكونوا ينشغلون إلا بأنفسهم وبزهرة الليلك التي تنمو. من كانوا يملكون الكثير كانوا أشراراً أيضاً. ففي الليل، كانت كلابهم تنبح دون توقف.

كانت أنا مارتان كمصباح روحه هي لهيبه المترنح في ريح العالم. كان، وهو يتقدم في الحياة، يناقض نفسه بين يوم وآخر. ولكنه لم يكن يتمنى «سوءاً» لأحد. كان يمكن أن يداعب كقط، ولكنه لم يكن ليستجيب بالصورة نفسها. فقد كان القط سيهرو يرتاب بوجود آنية حليب له في زاوية من الغرفة، ولكن إيماناً كان سيولد لدى مارتان، إيماناً عظيماً بنفسه، وكان من شأن روحه أن لا تعود إلى الترنح. لم يكن لينبغي عليه أن يبحث في كل مكان، في الزوايا التي لم يكن يوجد، فيها شيء. إلا أنه كان مصباحاً صغيراً معرضاً لكل الرياح، لكل أنفاس الكومونة. كان اللهيب يميل إلى جانب حيناً، وإلى جانب آخر أحياناً أخرى، ويسوّد الزجاج بالدخان غالباً.

لعل ذلك هو السبب الذي كان، من أجله، يسرّ في المدرسة. السويد والعالم كانا، يزوران المدرسة يومياً. كانت المدرسة، بالنسبة لمارتان، ميناء الانطلاق الذي كان الأطفال الأكثر حظوة يجدونه في المنزل، في بيوتهم. كانوا، هم، يعودون، بعد الظهر من المدرسة، ولكن مارتان كان يغادر المدرسة. كان يود أن يقضي الليل في قاعة صف: كان سيرقد، طواعية، على الأرض عند الحاجة. ذلك أن بلاد السويد كانت موجودة ليل نهار في المدرسة، والعالم كان حاضراً، دائماً، ولم يكن يهجر

مارتان، أبداً. هناك كانت تعيش الأنهار والبحيرات حتى لو كان الهواء مليئاً بغبار طبشور يجعلك تعطس. هناك كان يوجد لوثر مرتدياً الرمادي وممتلئاً بالوصايا إلى حد لم يكن، معه، أحد يحبه، وهناك كان يتنزه آدم وحواء كما كانا يريان في الصورة، محنيي الظهر، تحت سيف الملاك. ما الذي فعلاه حقاً؟ لقد أكلا من شجرة معرفة الخير والشر: لغز مستعصٍ، هسيس افتراضات كفئران منهمكة في الزوايا.

في الوقت نفسه، كان مارتان، بصورة ما، يكره المدرسة لأنها كانت، تكذب، تكذب بلغة متميزة وغير مفهومة، بالمرة، من الأطفال، ومع ذلك، كانت المدرسة، بالنسبة لمارتان، الملجأ، كانت جزيرته، وكان يحبها خاصة عندما كانت تقول الحق: الجغرافية والعلوم الطبيعية.

عندما وصل مارتان إلى مزرعة نوردا، كان الوقت متأخراً فعلاً. كانت الأنوار مضاءة والستائر مسدلة وكل النوافذ المطلة على الأرض البراح تلمع حمراء.

في الزقاق الصغير الذي كان يؤدي، بين جدارين منخفضين، إلى المزرعة، توقف مارتان قرب حرش عليق. أخذ بأطراف أصابعه بضع حبات وأكلها. ما كان أطيبها! كانت المزرعة تبرز، قلعة فلاحية ثقيلة، فوق خلفية من سحب تسير في ضوء القمر.

كانت دوارتان هوائيتان تدوران، بصرير، تماماً كما في الأساطير المليئة بقصور. لم يكن الجرس الصغير أضخم من هاون مطبخ موضوع مقلوباً على خلفية السماء المحجوبة. كانت ليلة أعذب مما ينبغي بالنسبة للفصل، طقساً رخواً ومرضياً.

نبح الكلب نصف الجائع، في هواء المساء، في اتجاه مارتان. ردد الصدى نداء الكلب وضاعفه، بين الأبنية، بحيث كان المرء يظن أنه كانت هناك عصبة كاملة.

كانت الغيوم تطارد بعضها بعضاً في الأعالي، غيوم ذات مظهر مخملي داكن من الأسفل وفضي من فوق. كانا، أحدهما في الآخر، سماء لها تأثير ضار على الحالمين الذين يحسون بأنفسهم، دائماً، مرفوضين من المجتمع فيتفحصون السماء الليلية. بقي مارتان في مكانه

يفكر. ما الذي سيجري لو لم يذهب إلى هذه المزرعة؟ ربما ضربه القس؟ القسس لا يضربونك أبداً. جلس مارتان على حجر قرب الحرش ليتساءل عما إذا لم يكن قد اتفق لهم ذلك أحياناً قط. كلا، لايستطيع أن يصدق ذلك. ولكن ماذا عن المجلس البلدي؟

كان قد علم أن المجلس البلدي لا يقوم، هو نفسه، بالتأديب مؤكداً، ولكنه كان يرسل من كان ينبغي تأديبهم إلى أعلى البلاد في قصرين حولا إلى بيتي إصلاح. المكان جميل هناك، كل الطبيعة حولهما جميلة، ولكنهما كانا، على الرغم من كل شيء، قصري تأديب. ولدى أدنى هفوة يقضي، فيهما، الطفل سنوات.

في السجن الكئيب
كان هناك سجين
تحت القبة غير الصحية
انقضت السنوات
على درب الدورية
التي كان يسهر، فيها، الحراس
كان الليل عميقاً
لم تكن أي نجمة تلمع

لم يعد الفلاحون، اليوم، يضربون ربيبي البلدية كما في السابق. كانت لديهم اصلاحية روما، في أعلى البلاد. كان يكفي، عامة، أن يرووا كيف كان التأديب يجري هناك، وكم كان ذلك سهلاً عليهم. لم يكن عليهم سوى الذهاب إلى هولجه للحصول على الأوراق، ثم إجراء مخابرة هاتفية. عند ذلك، تأتي جماعة الإصلاحية لأخذك بالقطار. وبعد؟ ماذا هناك، إذن، بعد؟

أخذ مارتان يغني لطرد أفكاره الكئيبة كان يعرف الكثير الكثير من الأغنيات الأخلاقية.

لا تذق القطرة
الكحول جريمة،
لاتسلك الدرب
الموصل إلى الهوة
الحياة غير السهلة
تبقى مقبولة
إذا الزجاجة الدنيئة
لم تكن على المائدة

تذوق مارتان بضع حبات عليق أخرى جالساً في سلام في ضوء القمر القاتم. لم تكن لديه، وهو محاط بعذوبة الليل المبهمة، أية رغبة في التقدم إلى المزرعة. كان مازال ينبغي أن يعطي «أفكاره» والحياة «التي تجري»، برهة. قال في نفسه، وهو ينظر إلى نجمة: كم هذا غريب!

اقتربت عجول وماعز مطلة برؤوسها من فوق السياج الحجري. فبما أن الجو كان ما يزال دافئاً، كانت تترك خارجاً ليلاً. لم يرَ مارتان الضائع في أحلامه تحت القمر العجول إلا بعد برهة، وسط أغنية. توقف، وغادرت نظرته النجمة.

هناك في الأسفل، كانت العجول قد تجمعت. يا إلهي! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! كانت تنظر إليه ثابتة العيون. وهناك أيضاً! أخذ مارتان نفساً عميقاً ليتشجع. في اللحظة نفسها، شعر بالنعاس يستولي عليه، ولكنه بذل جهداً من أجل أن لا يفتح فمه. لم يكن ينبغي أن يعكر، بتثاؤبه، اللحظة التي كان ضميره يزوره فيها - سيكون ذلك تجديفاً.

تمالك، إذن، نفسه وهبط التثاؤب فيه وانتظر بقية الأحداث. وذلك أن العجل كان واقفاً هناك، قرب السياج. لم يكن يتحرك. كان ينظر إلى مارتان بطريقة غريبة. أوه!.

كان وميض القمر المصفر ينعكس في عيني العجل الفتي، وكانت كل السماء زائغة ومسكونة بأشباح. كان العجل يرقب مارتان بطريقة القط. أوه! أوه!.

أصبح صوت مارتان ثغثغة بصورة تدعو إلى الرثاء - صوت طفل في الثالثة من عمره مقلداً أمه.

- أوه! لا! لا! يا عجّولي الصغير المسكين! يا عجّولي الصغير المسكين! كم هو صغير، وكم يشعر بالبرد في قلب الليل على العشب المبلل. أوه! لا! لا! أوه! لا! لا!

ولكن العجل ظل ينظر إليه. وزاد فضوله، أيضاً، أمام هذا الصغير من الرجال الذي كان يتلعثم. جاءت العجول تماماً. وسرعان ما وضعت خمسة رؤوس عجول على الجدار تتفحص مارتان. كان أبعد رأس إلى اليسار، بالنسبة لمارتان، العجل.

ضم مارتان يديه، كانوا قد علموه في فيلناس: «مواجهة شبح أفضل من إدارة الظهر له». ولكن مارتان لم يكن يجرؤ على أن يفعل هذا ولا ذاك. تابع، وهو جالس على الحجر، الغمغمة والثغثغة حيال العجل. كان يتوسل إلى السماء، ولكنه كان يعرف، طيلة الوقت، أنه لم يكن أمام شبح عجل. وطيلة الوقت، كان خوفه ينكر ما كان يعرفه وهو يكرر له أن ما كان هناك هو العجل.

إلا أنه «ليس للحيوانات أرواح». تذكر، من جديد، ذلك اليوم

الخريفي الذي قتلوا، فيه، روف، الخنزير. كلا، «ليس للحيوانات أرواح». وماذا لو ضرب هذه العجول؟ ماذا لو رجمها بحجر؟ كلا، لم يكن يجرؤ. أليس الأفضل، على الرغم من كل شيء، أن يكتب رسالة إلى المجلس البلدي يصف لهم ما يمكن أن يحدث؟ كلا، كلا، كل ما سيفعلونه هو توقيع أوراق لإرساله إلى إصلاحية. وماذا إذن؟ «أبي ميت وأمي في كالي......». بوه! هؤلاء الناس! ولكن العجول كانت تحت بصره، هذا كان أخطر بكثير. ومع ذلك، ماذا لو ضربها ليرى؟

كان في يده، من قبل، حجر. كان ينظر إليه ويقلبه في يده كالزبون الذي سيشتري ساعة. من الباحة، هناك في الأعلى، كان يصل نباح الكلب الذي كان يتردد بين الأبنية كما لو كان صادراً عن حفرة. كان مارتان يقلب الحجر ويعيد تقليبه في يده. جاء النباح ليساعده، فقد امتص عصبيته. ولكن العجول كانت ماتزال هناك عندما نظر من جديد. كان يروز الحجر. ولكنه تركه فسقط على الأرض، وجلس مارتان متصلباً. رفع من جديد عينيه وصب نظراته على السحب. كان هناك، في السماء، ما يشبه محيطاً والعالم الواسع الذي كان يستطيع أن يفلت منه عندما تبدأ أفكاره تدور في دائرة وتصم أذنيه بقصة العجل هذه، قصة العجل هذه دائماً. أخذ، الآن، يغني، ترك الغناء يلفه، لجأ إليه. غنى، متيبس الظهر، نشيد الشعوب الوثنية.

في السماء وعلى الأرض
كل السلطة أعطيت لي!
احملوا، إذن، نوري
إلى الشعوب التي تعيش في الظلام

معلمين إياها أن تفعل
ما علمتكم إياه.
معمدين إياها باسم الأب
والابن والروح القدس!

كانت وجنتا مارتان مبللتين بالدموع وتشبهان ثماراً مغطاة بالندى.

يا للزنوج الوثنيين المساكين... كنا نرى، جيداً، في العم توم، كيف كانوا يعاملون، كانوا يجلدون. إلا أنه ما كاد ينجز هذه التأملات بصدد النشيد حول الشعوب الوثنية حتى سمع صوت قبقاب في الزقاق الصغير. كان أحدهم يقترب ومعه فانوس. وفي الحال، ملأه الفرح والجرأة، التقط الحجر الذي كان قد تركه وألقى به نحو العجول. واختفت.

لم يشعر مارتان بأية دهشة،. لقد ارتاح، ولا شيء أكثر. لقد كان يتوقع ذلك، ولكنه لم يجرؤ على انجاز الحركة.

كان الفانوس يقترب. كان يعبد هذا الضوء، كان يدفئ قلبه. شعر بالحنان، تقريباً، لدى تفكيره بالمزرعة في أعلى التلة. في هذه اللحظة، كان مسروراً حقاً لكونه قد جاء إلى مزرعة نوردا. وصل إليه الصوت المعدني لدلو. كان الفانوس يتهادى وهو ما زال يقترب. والآن، كان يسمع الحفيف الثقيل لتنورة، الحفيف الذي يهدئ الأطفال. دخل في دائرة الضوء. كانت كارلا تنتصب أمامه، طويلة وعريضة كجدار واقٍ وحار. كان، نوعاً ما، قد عاد إلى البيت.

كانت ذاهبة إلى النبع. قالت بصوت هادئ:

- آه، حسناً، أهذا أنت الذي أتيت؟ ننتظرك اليوم أو غداً.

قال:

- نعم.

أضاءته بالفانوس لترى ما إذا كان قد كبر. كلا، لم يكبر كثيراً.

- حسناً، رافقني إلى النبع أولاً ثم سوف تستطيع أن تعود معي.

ذهبا، أولاً، إلى النبع. كان النباح قد توقف في الأعلى. كان يمضي كما في حفيف حامٍ. كانت كارلا تتقدم بمشيتها القوية. وكانت تنورتها التي كانت تجلدها الريح تصدر صوتاً أقوى من صوت الأشجار. كانت تنورتها تفرض نفسها على كل الغابة.

مزرعة نوردا

كان مارتان وكارلا يتقدمان على الدرب الترابي وهما يقطفان أوراق اللفت الذابلة. كم كانت كبيرة، في ضباب المساء، وكم كان يجدها مخيفة. كان الضباب يغطي الدرب، وكانا يقطعان دون أن يقولا شيئاً. وكانت الأوراق تسقط على أقدامهما وتخز كالقراص. كم كانت طويلة، وذلك إلى حد يظن، معه، أنها كانت تكبر من يوم إلى يوم. لم يكن الخوف الذي توحي له به يزول تماماً. كانت قد ضربته مرة أو مرتين. كانت تضرب بقسوة. اليوم، بالذات، ضربته. كان قد اقترف خطأ فرش قش الشوفان، بدلاً من قش الشعير القديم، تحت الحيوانات. وهذا خطأ لا يغتفر. كان يجب أن يعلم. فقش الشوفان أفضل علف بعد سيقان الحمص. نزعت عنه سرواله وضربته على ردفيه بيدها العارية. كانت علقة ساخنة ما زال يحس بها. كان ما يزال يحقد عليها من أجل ذلك.

كان يفكر: أيتها البغي القذرة! كانت تنظر إليه من عليائها. يجب أن تكون قد رأت، جيداً، أنه كان يجتر أفكاراً. كانت ابتسامة كارلا المزدرية تلفه بكامله وتفقده كل ثقة. خلال هذا الوقت، كانا يتابعان قطاف الأوراق دون التفوه بكلمة. ابتسمت عدة مرات، كما لو كانت تريد أن تقول: أيها الغبي الصغير! أيها الغبي الصغير الجبان! استطيع أن ابتلعك كأنك لا شيء. استطيع، دون عناء، حملك في واحد من بطوني وفروجي الألف. وفجأة سألته بلهجة لامبالية:

- كيف تشعر

قال مارتان:

- أوه! لابأس.

كان مرتبكاً تماماً.

جاءت مزقة ضباب لتحاصرهما. كان الضباب يجعلها أطول أيضاً. كانت تنورتها الثقيلة تتأرجح كجرس وهي تتنقل. كانا يقطفان، وكانت السكين تقول تيب، تيب. وكانت الأوراق تقع على أقدامهما. وسرعان ما قطفاها كلها. كانت حبات اللفت أكداساً، بيضاء كالعري.

ذهبت كارلا لأخذ المنبه الذي كانت قد تركته على حافة الحقل. كانت قد اعتادت أن تسميه، على سبيل المزاح، «صغيرتي». في هذه اللحظة قالت له: «خذي هذا يا صغيرتي». لفت المنبه في كيس كانا قد أتيا به وأعطته الصرة. وبلهجة فظة صرحت قائلة:

- سوف نعود.

قال مارتان:

- نعم.

وسارا في طريقهما بين المسالك الترابية، في أخدود الدرب. كان يتبعها كقزم، كقشة يحملها التيار. كان حفيف تنورتها يصحب خطاها.

التفتت مرة لترى قدوم «صغيرتها»، كما كانت تقول، الولد، ربيب البلدية.

كان يتقدم نحو ثدييها الهائلين. كانت تنتصب أمامه، متزايدة الطول. وكانت حرارة جسدها تغلفه كغرفة فاترة.

توقف مارتان كي تبتعد. عند ذلك، أدارت له ظهرها وعادت إلى المشي. كانا يحدثان على الأرض ضجة صماء.

بما أن جويل قد سرح من الجيش خلال الصيف وبداية الخريف، فقد كان في إجازة. كان قبعته الثلاثية القرون موضوعة في المدخل، على الرف المحتفظ به لملابس الأحد. كانت التيجان الثلاثة تتلألأ. كانت غونيلا قد علقت البزة الرسمية الرمادية في مكان بارز جداً - ربما لم تكن شيئاً كبيراً، ولكنها، مع ذلك، تذكر بخطورة الحرب. كان الحياد معلقاً، دائماً، «بخيط». أي شيء يمكن أن يحدث.

- اتفهمين يا أمي؟ الحرب استقرت، إن صح هذا القول. لن تكون هناك بلدان أخرى تنخرط، فيها، الآن.

كان يقول ذلك ببساطة وكما كان تقريباً. لم يكن لديه أي خيال. ومن هذه الناحية كان شيئاً طيباً أن ينظر إلى الحرب، أيضاً، دون خيال، دون أية حمى.

وإذا اتفق له أن تحدث عنها مع غونيلا، فذلك كي يقول أشياء مبسطة.

- في الوقت الحالي، يزحف الجنود مثل فئران من لون التراب. اتفهمين يا أمي؟ والمدفعية من القوة، في الفترة الحالية، بحيث تستطيع أن تحصد وتحصد سرايا وألوية كاملة.

قالت غونيلا:

- يا إلهي! أتذكر عندما كنت صبية وكنا نرى رجال الملك شارل الخامس عشر، الضباط...

قال جويل:

- ذلك كان شيئاً آخر تماماً.

السلام هو فترة عطلة الحرب. في الوقت الحالي...

لم يكن يتجشم عناء إنهاء جملته مبيناً، فقط، أن المقارنة مع العصر الحالي كانت مضحكة.

كانت شذرات المحادثات بصدد الحرب تنتهي، دائماً، بالتخبط في الرمال. كان بول، المزارع، يبقى جالساً في زاويته يصغي بشرود وذهنه في مكان آخر. لم يكن لديه أدنى اهتمام بالحرب. فلتهتم الحرب بشؤونها ولتمتنع عن التدخل في شؤونه. كانت زاوية دكته، في مزرعته، هي ملاذه في العالم الواسع. كان يمد ساقاً على هذه الدكة تاركاً الأخرى على الأرض، ويطلق من بطنه رياحاً. الذين لم يكن هذا يروقهم كانوا يستطيعون، دائماً، أن يقيموا في غرفة أخرى.

كان يتفق لجويل وبول أن يتبادلا بضع كلمات مرة أو مرتين في الأسبوع. وكانت هذه الكلمات، فيما عدا الشتائم المعتادة، لاءات ونعمات خاصة. كان كلاهما متجهمين حتى أعماق الروح.

- تباً إذن!

- هذا الوغد الموظف الذي كان يجب أن يأتي من أجل الغابة! لقد انقضى شهر ولم تصدر حتى إشارة عن هذا الوغد.

قال جويل مواسياً:

- كل هذا خراء.

كان الخراء نقطة يتفقان عليها دائما. وكان الأمر بين كارلا وبول الذي كساه الشيب في كل مكان مختلفاً جداً.

كانت تقول له عندما كان يتناول موضوع شبق كارلا وخصوبتها:

- أيها العجوز ليس عليك، أنت الأشيب كلياً، سوى أن تغلق فمك.

- سمكة مورة!

- أنت حلزونة.

كان هناك ما يحمل على الظن بأنها كانت تدع نفسها تصنع أطفالاً كي تنتقم. كان يجب أن يملأ روحها بالدفء ويفرح قلبها أن تملأ خراب المزرعة بعفاريت صغار منتقمين يركضون ويلتهمون الطعام. كانت حاقدة على شقيقتها كلارا التي كانت تتسكع كحارسة أوز مازال ينبغي أخذها، فارغة النظرة، تبحث عن «الحب الذي يدوم»، وعن «حنين الروح الأبيض» كما كانت تقول. كانت كارلا تسخر من كلارا، وكانت كلارا تحتقر كارلا ولا ترد أبداً على وخزاتها. مرة واحدة صرحت قائلة:

- ليس دور المرأة، مع ذلك، أن تحب بفرجها وتعطي ثديها حصراً.

صاحت بها كارلا:

- منافقة! أنت تودين ذلك جيداً، ولكن لا أحد يريدك هنا، لا أحد.

شحب لون كلارا وجلست ورأسها بين يديها دون أن تقول شيئاً.

في أمسيات الصيف، كانت تتنزه دون هدف على الأرض البراح. كان يتفق لها أن تستحم في البحيرة. ثم كانت تستلقي على ظهرها متأملة جسدها، كانت راضية عن جسدها، تتزايد تقديراً له وتحلم.

السويد أحد أغرب بلدان الأرض وأشدها كآبة. وهي مطبوعة بتصورات ناجمة عن الأساطير الشعبية. تختبئ فيها بحيرات مرصعة بالنيلوفر تتخمر، فيها، الأساطير وتأتي الآمال لتنفجر على السطح كفقاعات ماء.

من يعلم ما إذا لم تكن البحيرة قد امتصت كلارا وما إن لم تكن غرقت في أحلام تتزايد عمقاً دائماً، وما إذا لم تحتفظ من ذلك بقلب ساذج إلى حد مميت؟ كانت، منذ وقت مبكر جداً، قد قرأت الحكايات، حكايات الأخوين غرين وغيرها، الحكايات الشعبية السويدية، الخرافات والأساطير، قصة جنفييف دوبرابان، قصة البجع الذي يخلع ريشه ويستحيل إلى أمراء فتيان. كان يمكن أن يخمن أنها كانت تبقى عارية قرب البحيرة، راقدة، في انتظار الذي لم يتجسد، بعد، في أي شكل، في انتظار المعجزة المولودة من طمي النيلوفر والسماء: معطف البجعة، نشوة النقاء.

نعم ولكن. مظلمة هي حياتنا وعميق هو احباطنا - وهذا ما يؤدي إلى كون كثير من الأساطير ترى النور في غابات سكنديناڤيا. نار قلبنا الجائع تدوي كئيبة. كثيرون هم الذين يصبحون وقادي قلوبهم وقد صاروا معوّقين لكثرة ما حلموا.

كانت كارلا تسمع، أحياناً، وهي تقهقه في الأرض البراح، ثم يأتي صوت كلارا القلق: «كفاك تعهراً يا كارلا». وكان هذا ينتهي في وقت متأخر من المساء مع التوائم الذين كانوا يزعقون وتلهيات ربيب البلدية المختلسة، وصرخة كلارا المخنوقة في نومها: تعال.

لم يكن هناك من يسمع هذا النداء - وكان بول لا يقصر عن التعليق على طريقته.

- تقولين: تعال: أريد ذلك حقاً، ولكن لا تأتي لنا بمزيد من الأطفال إلى البيت، أنت أيضاً.

ثم يأتي صمت الليل. كانت كارلا تعطي ثدييها للتوأمين اللذين عطشا لكثرة ما زعقا. وكان مارتان الذي استولى عليه كابوس على

الدكة التي كانت سريراً له يئن في زاويته. وكان القمر يلمع شاحباً وبارداً فوق المشغولين بالمص أو بالنوم.

كان مارتان في العاشرة من عمره فقط.. كان ذاك بيته الخامس وسريره الخشبي الرابع. كان معلمه يدعى بول - ولهلم - سفن، كانت له ست أذرعة. في ذات يوم، وهو لم يكن يعرف في ذلك بعد، ستزيد أذرعة معلمه أربعاً. نم، نم....

بعد أيام من وصول مارتان إلى نوردا، عادت هيلدور من المستشفى الذي بقيت، فيه، تحت الملاحظة. كانوا قد توجسوا من خنّاق، ولكن تلك كانت ذبحة صدرية. كانت قد خسرت لونها البرونزي واكتست بشحوب المستشفى. استعادت مهامها، ولكن الشحوب ترك مكانه، بعد بعض الوقت، لقناع شمعي ومرضي. كانت تعلو شفتيها، بين حين وآخر، ابتسامة بلادة، لا أكثر. لم يكن الفرح هو ما يسود نوردا. كان من شأن مارتان، لولا وجود كارلا، أن يشعل النار في المزرعة. كان الأخ والأخت، الأنانيان على طريقة الأطفال، يشفقان على ذاتيهما، كل منهما على حدة. لم تكن تلك، دائماً، طريقة إعادة الابتهاج، بل إن الجو كان، على العكس من ذلك، يزداد فساداً إلى حد بعيد جداً لهذا السبب. هذا ما يحدث دائماً عندما يشفق المرء على ذاته. بين وقت وآخر، كانا يتبادلان، في الاصطبل أو في الحقول، بضع كلمات. ولكنها لم تكن سوى تعابير جاهزة كتلك التي كانا يسمعانها من أفواه الراشدين. لم يكونا يقولان لبعضهما شيئاً عن مشاغلهما الحميمة، عن توجساتهما حول المجرى الذي تتخذه الحياة، عن تأملاتهما. وعلى الرغم من كونهما من جنسين مختلفين، فقد كانا يتشابهان كقطرتي ماء. كان من شأن ما يمكن أن يقولاه لبعضهما أن يكون بمثابة تحدث المرء إلى ذاته. كانت العلاقات جليدية تقريباً. لم يكونا يتعاونان بأية صورة. لم يكونا يتحدثان أبداً،

تقريباً، عن بيتهما السابق، ولكن كلاً منهما كان يحلم، على حدة، ببيت نيت الذي جملته الذكرى، بخلو البال الذي عرفاه في تلك الأيام التي كانا، فيها، خفيفين كطيران الفراش! كان ذلك، على كل حال، بيتهما، هذا ما كانا يحاولان أن يقولاه لبعضهما. كانت ذكرى إينيز تجعل العالم، أحياناً، أعصى على إمكان تحمله.

في تشرين الأول، امتلأ البيت بمياومين جاؤوا للمساعدة في حصاد البطاطا. كانوا أناساً من أفقر المزارع، من بيوت الريف النموذجية الغائصة في تلة مرملة أو ملتصقة بتلعة. كانت سبعة من هذه البيوت تابعة لنوردا. كان يمكن أن يقال إنها خزائن حجرية وسط الطبيعة، ولكن لكل منها حديقة صغيرة في مقدمته كانت تزرع بالقويصة والخزامى والنعناع والزوفاء وقطيفة بلون الدم. كانت تلمع مثل أعراف ديوك وتذكر بالريش على قبعات الفرسان. كانت البلاد قد عرفت عدداً من السادة كانت حالها تسوء معه. كان باب كل بيت في ضيق كتاب تعليم مسيحي، ومن كان يرحل لاجتياز العالم ويعود ضخماً وبديناً لم يكن يستطيع اجتياز عتبة أحد هذه المساكن.

كانت أجرة البيت والحديقة تدفع، حسب المساحة، بأسبوع عمل أو اثنين. كانت تنمو على سقوف هذه الخزائن، إذا سادت البلبلة أو الحداد في الداخل، أعشاب مجنونة أو غياطل، والأكانت. هناك مخلدة السقوف التي كانت تسمى «الحياة الأزلية». كانت هذه البيوت – الخزائن من الانخفاض بحيث كان يمكن للمرء أن يمرر أصابعه بين نباتات السقف، وكانت تحين البرهة التي لايعود الصبيان يستطيعون، فيها، السكن هناك مع نزوعهم إلى زيادة الطول مع العمر، وإلا لكان يمكن

لرؤوسهم أن تثقب عشب السقف وتوقع الفوضى في «الحياة الأزلية». ولذلك كان معظمهم يهرب، بعد أن يشم الزهور، من الباب الضيق - الذي هو في ضيق كتاب تعليم مسيحي - ليمضوا إلى بوميرانيا أو مينيسوتا. كانت هناك استثناءات: فبعضهم كان يتطوع في البحرية أو لدى خيالة مالمو أو فرسان ايستار أو مدفعيي فاند. كان هذا اللواء الأخير أسهلها مدخلاً، ليس على الخريطة فقط، بل، أيضاً، بطرائقه. فقد كان المدفعيون، أنفسهم، من عرق الفاند - البطيء، في الحياة اليومية والمرح يوم الأحد، العابث والذي يؤمن بالخرافات والمغذى بالأمثال، الرقيق والدقيق السمع في النجاح، والفظ والشرير في الخصومة.

خلال أسبوع البطاطا، عمل مارتان مع المياومين. كان الخريف يشتعل بلون أصفر. كانت ذرى أشجار البلوط تلتهب، وكانت الأوراق الصفراء تغمر أثلام البطاطا. كان مارتان يتقدم محني الظهر وراء كارلا، مباشرة، عاملاً، نوعاً ما، على أن تتقدمه قليلاً دائماً. كانت كارلا تتقدم مقعية. عسى أن تنحني... ولكنه لم يرَ، قط، شيئاً.

كان مارتان، كما يقال، فاسقاً صغيراً. بهذه الطريقة، كان الذين هم انقياء تماماً يعبرون عن أنفسهم.

ولكن هناك، كما يقال، شيئاً آخر... وفي الخريف الجميل، دون شك، مثلاً. أكان يمكن أن يكون جديلاً بالنسبة إليه مع الحياة التي كان يعيشها؟ هناك، أيضاً، الحب الذي كان غائباً عن نوردا. كانت هناك، أيضاً، الشمس والأزهار كما لو لم يكن الرجال يغذون الجحيم بينهم، على الرغم من الشمس، وعلى الرغم من الزهور، وكما لو لم تكن روحهم تسقط من البرد على الرغم من الشمس.

عندما أصبح أكبر سناً، فكر في الجثث التي تدفن. تقدم لها الزهور! تقدم زهور إلى الذين ماتوا، فعلاً، من البرد! إنهم لايستطيعون الاحتجاج ضد نفاق الشمس. الموتى مريحون. إنهم صامتون.

كان ذلك في الزمن الطيب القديم حين لم تكن هناك، بعد، سوى الحرب العالمية الأولى.

كانوا يتقدمون بين صفوف البطاطا. كان ذلك في خريف جميل، ولم يكن الرجال يفهمون الحاجة التي يحسها المرء إلى شيء من العطف، إلى يد تمسح الجبين، إلى كلمة - وبإيجاز إلى هذا القليل من الحنان الذي كان يمكن أن يجعل من مارتان صبياً عطوفاً وأن يخرجه من الحيرة والشفقة على الذات.

جاء وقت تفتحت، فيه، عينا مارتان واسعتين. كان يرى كل ما حوله بحدة موجعة، كان يود لو يغمض عينيه، فقد كانت عيناه تشغلانه أكثر مما ينبغي. إلا أنه كانت تسمع أصوات: الريح التي تعبر الأشجار، البقر الذي يخور، ثغاء الخرفان الناشز، أنات الخنازير الكئيبة من زرائبها. كان يسمع تذمر كارلا التي كانت تعلق على رداءة نوع القش والضجة الصماء لجواد كان يمضغ لقمته من العلف. كان الجواد فريسة الحزن. كان، عندما ينتهي من العلف، يتساءل حول الحياة. كيف كان يفعل ذلك؟ كان هذا سره، لم يكن هناك من يعرفه. كان مارتان يعطي لفتاً للبقرة الصغيرة التي كانت تمضغه حالاً. كان يحصل لديه الانطباع، أحياناً، بأن كل حيوانات الاصطبل تدع الصمت يجري واعية تماماً لكونها حيوانات، حيوانات فقط. ربما كان فيها شجن لم يعد ينتهي: الحقيقة حول المصير الحيواني مطروحاً من جانبها في بلد الاصطبلات والزرائب.

كان مارتان يكوّم، الآن، على عجلته سماد هذه الحيوانات الأحمر المسود ويجتاز الممر ويضعه فوق جبل السماد الممزوج بالقش والشعير. كانت صفصافة تنتصب ميتة، جذورها تحت جبل السماد، مسممة بسبب الافراط في الغذاء. في حرش الأشجار، وقفت زاغات سعيدة لأن الثلج

لم يعد يتساقط. كانت عيونها مثبتة على جبل السماد الذي كان يغطيه ثلج كثيف.

وها هو الصبي يقلب العجلة موسخاً السكينة النقية. بلوف!

كان، الآن، في الحادية عشرة من عمره، في العمر الذي كان جورج واشنطن الصغير قد قطع فيه، أخيراً، شجرة الإجاص. في أول تشرين الثاني، تقدم خادم مزرعة كان يدعى نويل.

كان سرير مارتان قد وضع في غرفة الخادم. وهناك سينام مارتان بعد ذلك الحين. أما بالنسبة للخادم، فقد كان بهيمة مرحة، نموذجاً مكتملاً لما هو غير قابل للاصلاح في مملكة السويد النبيلة.

كان الخادم يدعى نويل - كان يقول: ذلك لأني ولدت في ٢٥ كانون الأول. وبالفعل كان يمكن حين يفتح شهادته القذرة أن يرى، تحت بقعة دهنية، أنه ولد، حقاً في اليوم نفسه الذي ولد، فيه الناصري.

كان نويل يمرر أصابعه في شعره الطويل الأجعد مصرحاً:

- وجدت نفسي، إذن، في صحبة طيبة، مع يسوع نفسه، ربنا. آمين.

كان مارتان يجد عناء في التكيف مع المساكنة لأنه كانت لنويل جوانبه الغريبة، وكذلك، أيضاً، مبادئ - فظة وبسيطة كقش الشوفان. ذلك أنه، كما كان يعلن وهو يمس زجاجة الكحول، التي كان يسميها «إلى الأمام» كان منذوراً لشيء:

- حتى في الجحيم، وأنا جالس على حجر، سوف أكون نافخ بوق.

لأن الكدح هو قدر الخادم
- هيا بوم، بوم، بوميرانيا -
والضخ هو قدر الخادم
- هيا بوم، بوم، بوميرانيا

كان نويل قادماً من أملاك سكانيا الكبرى. كان يصرح قائلاً:

- من أجل متعتي أنا هنا، لدى هذا الفلاح الصغير. إن ذلك، فقط، لأرى كيف تجري الأمور. أنا اليقطينة التي تريد أن تكوّن رأياً حول بعر الفأر نوعاً ما. أنا أغادر متى أردت. هل تفهم؟ أنا حر، هه؟ تباً.

ومن أجل أن يثبت أنه حر، يضع في فمه حفنة مزدوجة من التبغ. نويل الجالس على حافة سريره الذي قرضه العث، قريباً من مصباح الزيت، وحيداً في جحيمه، نويل هذا كان رجلاً حراً حرية مطلقة.

جاء إلى هنا، إذن، لمتعته، وكان يعمل كحيوان. كان يتدثر بمبادئه البسيطة والفظة كقش الشوفان ومضغة التبغ بتبجح كان يقوّي عموده الفكري ويجعله يتغرغر بالكلمات. كان يمضي، قاسي القلب تحت المطر الغزير. ويمر مساء بقبقابه: بوم، بوم.

في بعض الأمسيات، كان يحس بالحاجة إلى رفع معنوياته فيخرج من كيسه مجموعة الأغاني المنسوخة في دفتر صغير من القماش المشمع. كان يغني باجتهاد كل أغاني المجموعة بادئاً بالبداية. كان، فيها، قليل من كل شيء. وكانت تسود، على إيقاع أصولها، أوصاف الفعل الجنسي منظوراً إليه من وجوهه المتنوعة في لوحات مدفوعة، بمرح، إلى السواد. كانت الأفعال والأسماء المخجلة ترقص، متثاقلة، على

الأرضية، وكان هناك ضفادع من الجنسين. كانت اللازمات الفرح نفسه، كذروة الموجات المتصاعدة التي سرعان ما تتهاوى في نزو ظلامي.

ومن أمام ومن ورا ء

وترا لا لا وترا لا لي

وعندما كان يستنفد أغاني المجموعة، وبعد هذه السهرة المكرسة «للفرح»، تأتي برهة النوم. كان مارتان قد رتب على صندوق المارغارين الذي يقوم بوظيفة مكتبة لهذا المساء - الرجل ذا القبضتين الحديديتين وابن الشيطان. كان الخادم يخلع جوربيه وينظر إلى أصابع قدميه. كان يقول:

- نغني للشيطان إلى أن يأتي إلى أسفل حوافر الوعل.

كانت الخطيئة من الكثافة هناك في الداخل، وكان الليل يصيح، من جراء ذلك، مظلماً إلى حد لم يكن، معه، المصباح المضاء نفسه يغير من ذلك شيئاً. وبعد برهة قال:

- لم يبق علي سوى أن أصنع توأمين لكارلا. بعد ذلك سأغادر.

لم يجب مارتان. كان راقداً في سريره و «يفكر».

كان الواقع يأتي، دائماً، إلى مارتان على أشكال أوامر أو أشياء: أشياء العمل، الأدوات والعدة. كان أقرب واقع مصنوعاً من خشب ثقيل: قبقابيه الخاصين.

كان الواقع مربوطاً بساقيه ذاتهما، بصورة مشخصة، حيثما ذهب. كانت في عقبيه خدوش كبيرة متقيحة كان يفتحها، باستمرار، بضربات من قدمه. وكانت تلمع من نضارة الدم. لهذا السبب، كان يكره القبقاب، وكان القبقاب يعطيه مبرراً ليكره الواقع. كان مدلول الواقع بكامله يتخذ، دون عناء، شكل قبقاب ملعون عندما كان يمضي حاملاً الندوب الخاصة بأطفال المنطقة، جرح القبقاب: وردة من دم جامد في العقب.

كان يحس في ذاته بالفقر حقاً. آي! ياللقبقاب الوغد!

عندما كان يتسكع غارقاً في أحلامه، كان القبقاب يقرع الانذار على العقب كما لو كان ذلك ليقول: بحق الشيطان سوف ترى ما هي عليه الحياة واقعاً! عند ذلك، كان مارتان يطلق شتائم لا نهاية لها. كان لديه، على كل حال، مصدر لها هو، في الواقع، شتائم وفظاظات من مملكة السويد.

في الصيف، كان الأمر كما لو كانت الأقدام مقودة إلى الخضار. عند ذلك، كانت الأعقاب تشفى، كان العصفور يغني في الغابات، والأقدام تعيش في سلام. في نهاية أيلول، كان زمن القباقيب يعود،

وعند منتصف تشرين الأول، انفتح الجرح، فعلاً، من جديد، لامعاً في ضوء الخريف. وفي المساء، كان الجرح يلتصق بالجورب. كان مارتان يعاني عذاب الشهداء. كان يكشر، جالساً على حافة سريره، خوفاً من فكرة خلع ثيابه. أوي، أوي، آي!

- سأحطم فكك أيها الفلاح! عندما أكبر، سوف أحطم فكك إلى أن تبصق كل التبغ الذي حشوته في فمك!

كان نويل هو الذي علم مارتان هذه الجمل، علمه كيفية تحطيم الفك بما يكفي من أثر.

كان يقول موافقاً:

- نعم، يجب أن نرسلهم إلى الجحيم، أن نكسر فكوكهم ليبصقوا التبغ كما يبصق بئر نفط نفطاً في المكسيك أو في ذلك البلد الفظيع الذي توجد، فيه، أبراج تنقيب.

كان مارتان يوافق قائلاً:

- نعم، هذا ما يجب أن نفعله.

كان ينجح، وهو يئن، في نزع جوربيه، ثم ينزلق في سريره. كانت أوائل الثلوج تتساقط في الخارج. كان الثلج الرطب يلتصق بالقباقيب، فكان الناس يمشون وعلى نعال القباقيب ثلج كثيف، مدور وغير منتظم، وكان المرء يحس، لدى كل خطوة، بأنه فقير.

كان جويل ومارتان في الغابة يقطعان حطباً يصنعان منه قدداً. كانا ينقضان على أشجار الصنوبر والتنوب. ويركزان على أطراف الغابات القادمة من الشمال والتي تسعى إلى خنق النيربية والزيزفون والدردار وأشجار الجوز، وإلى طرد زهر عسل الحريجات والعليق من أكوام

الحجارة وإلى خنق زهرة البلان والبروز، على هذا النحو، في المشهد مع كل الموكب الجنائزي لبلدانها الأصلية - كدب بشعر منفوش ومزروع بالإبر يسقط أمامه ظل الرتابة حتى اللحظة التي يواجه، فيها، المحارب الجنوبي الذي لايستسلم: الزان الذي تشبه قشرته جلد فرس النهر ولكنه يمكن، من ذروته الصافية صفاء الشرفات، أن ترى الغابة تمتد حتى البحر مثل فرو مذهب يلغط في الربيع بكل نبراته. كان جويل ومارتان يقطعان أشجار صنوبر وتنوب، وهي أشجار قاتمة كالسمور اكتسبت صلابة من جراء هجرتها الطويلة، وعمرها يبلغ آلاف السنين، من سيبريا ولم يعد عليها أن تغطي سوى بضع بقاع من شبه الجزيرة السكندينافية.

قال جويل:

- يالك من وغد! أنت لا تسحب، بل تدع المنشار يحملك.

كان ايقاع مارتان قد تباطأ بعد أن تعب مساء. سرّع الايقاع بقدر ما يستطيع. ويبدو أن ذلك أجبر جويل على بذل جهد أكبر، وهو ما ضايقه:

- لم أقل لك أن تتحمس أيها الوغد الصغير.

وصف مارتان، دائماً، بالوغد، وبالتدريج اعتاد على ذلك. كانت أكثر كلمة مألوفة في تذمر مألوف، كلمة ليست شريرة جداً في رأيه. إلا أنه كان يمكن أن يقال الشيء نفسه بعشرة آلاف صورة، فلماذا لا يدخل، فيها، شيء من التنوع؟ كانت الكراهية في كل مكان في مزرعة نوردا. كان هذا يحمل على الظن بأن شيئاً ما قد حدث فيها في قديم الزمان. كانت تولين مزرعة جميلة على كل حال. ياللشيطان كم كانت لطيفة! وفيلناس كانت الفردوس على الأرض. ما الذي أمكن أن يحدث لجويل؟

لابد أن الكراهية غرست فيه. كلماته الفظة كانت تضاحكات، كانت أسلحة دائماً. كان هناك توتر في صوته، دفاع ذاتي مليء بالكراهية. كان يمضي، أحياناً، في تهكماته لمجرد المزاح. قال:

- إن مؤخرة ثقيلة مثلك لن تصل إلى أي شيء في العالم.

ابتسم مارتان مرغماً، ذلك أنه ما المضحك في هذا؟ قال جويل كاذباً:

- تحدثت، ذات يوم، مع المعلم. قال إنك تتعلم بسهولة. عند ذلك قلت له إنك، مع ذلك، لن تصل، أبداً، إلى شيء، لن تصل مؤخرة ثقيلة مثلك.

لم يعرف مارتان بماذا يجيب، ولزمه قليل من الوقت قبل أن يصبح قادراً على الابتسام. ثم، وهذا أكثر ما وصل إليه، تمطت تشققات شفتيه، وفي الوقت نفسه ابتلع لعابه. فكر: آه حسناً، ولكن المعلم لم يعلق، على كل حال، أهمية على تفاهاتك، عليك. ألقى، من فوق منشار، على جويل نظرة خالية من التعبير. كانت على وجه جويل تكشيرته المعتادة. حزم أمره وقال وهو يخبئ المنشار تحت شجرة صنوبر:

- الآن نعود إلى البيت ما لم تكن ترغب في أن تعمل ليلاً.

لم يجب مارتان. ولكنه لم يجرؤ، كذلك، على اتخاذ هيئة جدية تماماً. نظر إلى قدميه وقلد - بنصف ابتسامة - التسامح. قال جويل:

- هه! سوف نعود للعشاء أولاً، ثم نعود إلى العمل هذه الليلة. رياضة الليل هي أجمل الرياضات، يلزمنا ذلك.

وسلك، حالاً، طريق المزرعة وتبعه مارتان على مسافة بضعة أمتار منه. هذه الكلمات الأخيرة حول عمل الليل كانت أغبى مما ينبغي. لم

يكن يبالي بذلك. حاول أن يقول لنفسه إنه لايبالي بالبقية كثيراً. قال، أيضاً، في نفسه وهو ينظر إلى قذال جويل: يالك من مجتر مسكين، يالك من تنبل! هل ستملك الطاقة على العمل ليلاً، أنت أيها الخراء؟ يجب أن تضرب رأسك بالحجارة، هذا ما يلزمك.

وعندما مشيا برهة، انطلق طائر حجل. وقبل أن يطير في الأيكة، أصدر صوت دراسة صغيرة.

توقفا وقد وحدت بينهما غريزة الصياد لحظة قال جويل:

- نذل ضخم.

قال مارتان وهو يجر قدميه:

- هو ذاك!

لاحقا الطائر بنظراتهما حتى غيّر اتجاهه واختفى بين أشجار الصنوبر. ثم عاد كل شيء كما كان قبل ظهور الطائر. تابعا طريقهما صامتين. بين حين وآخر، كان جويل يبصق على العناب، ولكنه لم يعد يذكر كلمة واحدة عن طيور الحجل.

وعندما وصلا إلى المزرعة، وضعا قبقابيهما عند المدخل ودخلا إلى المطبخ بالجوارب. وضعت كارلا على النار طنجرة من حديد. كانت اللهب تلامس الليل الذي كان يشدد قبضته على المطبخ.

كانت المدرسة واقعة على تلة. في النهار، كان الأطفال يأتون إلى هنا، بلهاء. لم يكونوا يعرفون شيئاً أبداً. كانوا يبقون جالسين ينظرون إلى المعلم بعيني سمكة ميتة، كانت بلادة مثيرة للأعصاب وتنتقل بالعدوى. كانوا قد أعطوا بعضهم بعضاً ألقاباً. سمي مارتان «إصبع القدم»، ولم يكن يعرف سبباً لهذا. لاشك في أن ذلك كي يكون الجميع سواسية في الغباء. كان المعلم قادماً من مقاطعة أخرى، من مقاطعة يسمح السهل، فيها، بالرؤية على مدى البصر. كانت نظرته، في المدرسة نفسها، ضائعة في البعيد. لم يكن من هذا العالم، وكان يدعى ستاف.

عندما وصل مارتان، بعد بضع سنوات، إلى ما يسمونه الحياة، قيل له إن ستاف قد مات. لم يعرف أي طبيب أسباب الوفاة أفضل مما عرفها مارتان. ستاف مات من الضجر. لاشيء يقتل بصورة أشد تأكيداً مما تقتل البلادة والغباء. الغباء قوي دائماً. إنه أغلبية في الجنس البشري. إنه يعمل بطريقة الاستنزاف، وليس في العالم تعذيب أشد صينية منه. إنه يتقدم بخطوات صغيرة. ثم، عاجلاً أو آجلاً، يموت ستاف. ربما كان ستاف قد رغب في شيء أكثر من أن يكون معلماً فقط. لم يكن يهتم بالدروس فقط. حاول ستاف، أيضاً، أن يدخل شخصيته في العمل. ومنذ ذلك الحين حكم عليه. ليس لأحد الحق في شخصية. في ذات يوم، حاول ستاف أن يعرض شيئاً لايشكل جزءاً من الدروس. كانت ساعة

الجغرافية. ترك ستاف نفسه يؤخذ بموضوعه، ابتسم، رافع، زرع خطابه بالممازحات، مثّل، كل ذلك ليبين، ليقنع. الأرض كبيرة وجميلة. الزيزفون يورق ثم تسقط الأوراق. الأرض تحمل كل الغابات الواسعة. عندما انتهى من ذلك، ظل يبتسم. كانت ابتسامة ساذجة ودافئة (مع حياة ومعارف في خلفيتها). ابتسم كما لو كان ذلك ليقول: انظروا! استيقظوا! أنا أعلن لكم عن شقائق النعمان التي تتفتح في صحراء النفس! عند ذلك، مد يديه انتظاراً. إلا أنه لم يظهر على الأطفال الجالسين على الدكك المهترئة سوى هيئة الغفلة. على اليسار، بقيت البنات جالسات منافقات، نصف مستيقظات ونصف ناعسات يثبتن عيونهن على ستاف. أما في أفكارهن، فكن يلبسن دماهن ملابس داخلية. وعلى اليمين، وضع الصبيان أصابعهم في أنوفهم. أما في أفكارهم، فقد كانوا في عش العقعق أو تحت تنانير البنات. هذا هو الأمر، لا جدوى من الكذب لإخفائه. وكان ستاف يعلم، في قراره نفسه، ما الذي أمامه. لقد رأى بيوض عقعق مكسورة ورأى محتواها يسيل على طول جذع شجرة دردار. رأى أكثر من ذلك بكثير. رأى جرذاً مصلوباً.

كان مارتان مثل الباقين، باستثناء بذرة صغيرة من الرغبة في المعرفة تسكن قشرته الدماغية. وربما كانت أصل بذرة أخرى، بذرة احتجاج سوف تضع، يوماً، ثبت اللعنات، ثبت الأكذوبة الحياتية.

سأل ستاف، وهو يشير إلى أنه كان يتوجه إلى مارتان:

– ماذا قال يسوع إذن؟

فزع مارتان، ثم نهض ونظر إلى الأرض:

- دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله.

قال ستاف:

- حسن، اجلس. كرر يا رودولف.

عاد مارتان إلى الجلوس. نهض رودولف، في اللحظة نفسها، وكرر، ولكنه فعل ذلك متخبطاً في غباوته الكثيفة مثل جرادة في اللبن، وكان يخطئ في الكلمات: عدا ذلك، كان رودولف ابن فلاح، وكان يسكن بيتاً كبيراً أحمر له جبهة حمراء بلون دم الثور، وكان للأسرة، في المصرف، أكثر من الكفاية. قال ستاف:

- اجلس. الأمور ليست على ما يرام اليوم كما يظهر. هناك طقس ربيعي أجمل مما ينبغي في الخارج، طبعاً. إلا أنكم يجب أن تنتبهوا إلى الجليد إذا انحدرتم نحو البحيرة في الفرصة. الشمس جعلته رقيقاً. فكروا في ذلك يا أطفال، التهور ليس شجاعة. هيا، قفوا! إلى جانب الطاولات! اذهبوا!

هكذا كان ستاف. لم يكن هناك، حقاً، سوء كبير يقال عنه، ومع ذلك، لم يكن هناك، في القرية، سوى أقاويل كراهية. كان في ستاف كثير من العيوب. كان، إلى جانب الدروس، «يثرثر». بل إنه لم يكن يسمّع الدروس أحياناً. وبدلاً من التسميع كان «يروي». عندما يدفع أجر للمعلم، فليس ذلك كي «يروي قصصاً» كلا! ليس هذا المطلوب، وأنا أقول ذلك لكم! وشيئاً فشيئاً، خلق حزبان في القرية، الذين كانوا يحبون سماع «القصص» والذين كانوا ضد ذلك. كان الأخيرون هم الأغلبية، ولكنهم لم يكونوا، عندما يسألون عن السبب، يعرفون ذلك جيداً جداً. كانوا يقولون: «الأمر هو هكذا، لأنه ينبغي ذلك». في

نوردا ، كانت غونيلا مستميتة على نحو خاص. وبعد أن حضرت ليترات من القهوة، جمعت لديها ثماني زوجات فلاحين جئن في صف أحادي عبر الثلج الذائب متلفعات بشالات ذات حواشٍ طويلة. لقد أدين ستاف. لم يعد انقاذ شرفه موضع بحث في نوردا. عندما لاحظ مارتان ذلك، أحس بمحبة كبيرة لستاف. أصبح طلب اعفائه من المدرسة متزايد المشقة عليه. ومع ذلك، فإن هذه الاعفاءات قد تزايدت. ذلك أنه قد تزايد عدد المرات التي كان جويل يقول له فيها:

- يجب أن تطلب، غداً، من المدرسة عطلة يومين أو ثلاثة إضافية.

كان مارتان يحس بإحساس طريف عندما كان يلاحظ نفسه وهو يطلب هذه العطلة. كان يتقدم إلى ستاف في برهة الفرصة قبل أن يتيسر للمعلم الوقت لمغادرة الصف.

- أريد أن أكلمك يا سيدي المعلم.

هكذا كان يبدأ عادة. ثم كان ينحني بعد ذلك، كان عليه أن يصوغ الطلب. كان رجاء نصف حزين كان يمكن أن يظن صادقاً تماماً. لم يكن ستاف يقوى على رفض منح هذه العطلة لصبي شغيل ومجتهد عادة.

- بالتأكيد، يا بني، بالتأكيد.

عند ذلك، كان الصبي الشغيل والمجتهد ينحني ويدع ابتسامة فرحة تتوه على شفتيه وعيناه تشعان بسرور مصطنع، ثم كان ينحني من جديد ويخرج بخطوة رشيقة من الصف وقد تملكته، في داخله، رغبة عنيفة في الخلاص، ووعى نفاقه المرعب. كان يكره نفسه بسبب التمثيلية التي كان يمثلها باسم مزرعة نوردا. كان مارتان جباناً. وبعبارة أخرى، كان مارتان منافقاً. وبعبارة أخرى كان مستعبداً. كان يتلقى معاملة سيئة، وكان

مستعبداً. كان كاذباً مرتين، فقد كان يكذب من أجل الأكذوبة نفسها. وكان ستاف الذي يظن أنه يسدي له خدمة وهو يمنحه هذه العطلة يمنحه إياها طواعية، بلطف وعذوبة كما لو كانت من يد المسيح.

في ذات يوم، سوف أضرم النار في المزرعة. ذات يوم سوف أحرقها. آه! كلا، كلا، يا إلهي، كلا.

في أيام العطلة الإضافية هذه، كان على مارتان القيام بأعمال تأخرت من جراء وجوده في المدرسة - مهمات كسحق القش وتنظيف الاصطبل وتغذية براميل الاصطبل الثلاثة بالماء. كان يمضي، وعلى كتفيه نير، ينضح الماء من نبع يبعد ألف وخمسمائة متر عن المزرعة، في الغابة. كان بئر المزرعة الذي كان عمقه يبلغ تسعة عشر متراً قد انخسف، فعلاً، إثر انزلاق للأرض وسد على خيط الماء السفلي. كانت مزرعة نوردا كبيرة، ولكنها مدارة بصورة كسول، بحيث كان كل شيء، فيها، يتخرب شيئاً فشيئاً. كان يلحظ ذلك خاصة في الصيف، عندما كانت البيوت تبدو كأنها محاصرة بغابة من القراص. كان هناك قراص حتى داخل الآبار. وعندما كان الملفاف يعمل وينزل الدلو المعلق بالسلسلة الصدئة، كان على هذا الدلو أن يجتاز، أولاً، جيشاً من القراص والبقليات وكان يغوص، بعد ذلك، تحت الأرض. كان ذلك، على وجه الإجمال، جميلاً. كان كل شيء، حتى الحميض الذي دخل فيه، وكل الحاجز، مفروشاً بطبقة كثيفة من الطحلب لها نعومة المخمل. وكانت تنمو، قريباً من القاع، نباتات خنشار أيضاً. وبإزاحة القراص والبقليات، كان يكشف عن فوهة البئر، وعند ذلك، كانت ترى كل تلك النباتات في الأسفل مع عين الماء السوداء وصورتك الخاصة التي كانت تتفرس فيك في القاع تماماً. كانت تسقط من كل الأوراق التي تملأ البئر قطرات ماء،

وكان الطحلب يزدهر. كان بئراً قديماً جداً ولاشك في أنه كان هناك، قبل بناء الغطاء الحجري، غطاء على سوية الأرض.

كان النبع في الغابات يقوم، منذ ذلك الحين، بوظيفة البئر. وللوصول إليه، كان يسلك، أولاً، الطريق الضيقة التي كانت تفصل بين الحواجز الحجرية الهائلة - أسوار القلعة الفلاحية المشيدة من الصوان والتي كانت تذكر بالقوة الذكرية للمزرعة وتعج بأبناء عرس. لم تعد القوة موجودة، الآن، إلا في كارلا والطحلب - وفي القراص الذي كان يسوط، صيفاً، الأعقاب بسمه. كانت كارلا الانبجاس الأخير للمزرعة.

كانت تنتصب، متضاحكة وسريعة الرد، فوق هذه الكومة من حجارة مزرعة من زمان آخر، تلوّح بعلم من قراص.

كان النبع موجوداً في منحدر وكانت سراخسه حديقة للضفادع، والماء ينبجس قوياً، صاعداً إلى السطح بحيث لم يكن النبع يغطى، شتاءً، بطبقة جليد موحدة، بل بحدبة ضخمة كقبة صنبور بخار قاطرة. وعندما يكون التجلد شديداً، كان النبع يفجر قاعدة هذه الحدبة ويحيطها بصفيحة جليد أوسع من أرضية قاعة رقص بكثير. كان النبع ينتفخ وينتفخ، والصفيحة تتجلد وتتجلد. فكان ينبغي، إذن، تسلق سلالم جليد لبلوغ حدبة النبع الراسخة كتمثال بوذا في اليابان الذي كان مارتان قد رآه في الكتاب المدرسي.

وقعت معجزة.

كان مارتان يتقدم، ذات صباح في نهاية الشتاء، على طول الدرب المتعرج. كان قد استيقظ مفزوعاً، وكان يخاف من الظلمة. كانت ضجة الدلاء التي تتأرجح تزيد من خوفه. وكانت الأصوات تبدو له، في

الغابات الصامتة، تحت النجوم، صماء، استفزازاً حقيقياً. أغمض مارتان عينيه، عادت كل أخطائه إلى ذهنه، السري منها وما كان مرئياً أو نصف مرئي. وفجأة خاف من كل شيء.

كان العالم بكامله يمتزج بدقات قلبه. كل ما كانت نزوة الخوف تخترعه كان موجوداً في عينيه.

في بادئ الأمر، رغب في أن يطلق ساقيه للريح، أن يعود راكضاً إلى البيت ويروي أكذوبة - شيئاً ما حول ظبي قد ظهر فجأة، حول شجرة تهاوت. فبما أن الناس يرفضون أن يصدقوا أن الخوف يولّد أخطاره الخاصة، فينبغي الكذب عليهم حقاً. إلا أنه خطر له أن الظبي يجب أن يترك آثار حوافره على الثلج أو أنه يجب أن يقول أين سقطت الشجرة. في هذه اللحظة، ارتفع قريباً منه صوت قوي لا يعرف من أين يقول له: لاتكذب! ومثل زخة قوية، قلبه الخوف جسداً وروحاً، بقبقابه الذي كان يفرقع وينزلق على الأرض الجليدية. وأفلتت الدلاء على طول الدرب بضجة مرعبة، وضرب النير مارتان على قذاله، وكان ذلك كصفعة قوية، كالها له اللامرئي بيد من خشب الزان. صرخ ألماً، ولكن برميلاً ضخماً يبصق ناراً وتخيف رؤيته اجتاز الفضاء حتى قبل أن يتاح له أن يتمالك نفسه ويقف. تأبدت ثانية من الزمان خارج الزمان. لم يسمع مارتان صوت الوقوع، ولكنه سمع اللامرئي يأمره: اذهب إلى النبع وخذ الماء الذي يلزمك!

وقف مارتان وهو ما يزال يرتعش خوفاً ومضى إلى النبع وهو يعرج ويغمغم بصلوات. نزع أحد قبقابيه، وهو يرتجف من البرد، وحطم الجليد على سطح النبع المحدب. أغمض عينيه ليتحصن ضد رؤية معجزات

أخرى. وما أن امتلأت الدلاء حتى عاد، وهو لا يعرف كيف كان يفعل. كان ضائعاً من الخوف، وكان العدم، البارد كالشتاء نفسه، يشد على خناقه كأنشوطة من سلك حديدي جليدي. وفي النهاية، وصل إلى الزقاق الضيق بين الجدران الحجرية. عند ذلك، وأمام السلم المزدوج إلى جانب البوابة التي كانت تسلك في هذا الفصل لبلوغ المزرعة، أحس، فجأة، بارتياح تواردت، معه، الدموع إلى عينيه، وانتشرت كشلال حار على وجهه.

لحسن الحظ، كان يوم دوام في المدرسة، واستطاع أن يمضي إليها وقد شرب كوباً من القهوة، بعد أن جمع السماد وأنجز بعض المهمات الصباحية. بقي، في الصف، جالساً بهيئة رصينة يصغي، شارد الذهن، إلى ستاف الذي كان يتحدث، في ذلك اليوم، عن البن. في فرصة بعد الظهر الأخيرة، ذهب مارتان لرؤية المعلم قبل أن يتيسر له الوقت للتواري وطلب منه، وبناء على أوامر جويل، أذناً جديداً بالتغيب. منح هذا الإذن، وبخطوة رشيقة سار نحو الباب. كان، بعد رؤيته برميل النار، أشد خوفاً من أن يكره أياً كان، جويل الذي كان يجبره على طلب عطلة أو ستاف الذي كان يمنحها له. وضع يده بحيوية على أكرة الباب ووجه، بهزة من رأسه، نوعاً من ابتسامة مشمسة إلى ستاف الطيب، المخدوع الأزلي، النفاق دائماً في كل شيء. وما أن أغلق الباب ثانية حتى استعاد هيئة المشاكسة والمنغلقة. كانت نظرته شاخصة في العدم. استعاد قبقابه. كان واحد أو آخر، من رفاقه، يكرهه، قد أرسل به، بركلة، إلى وسط المدخل حيث كان واقفاً على قفاه كزلاجة مقلوبة. أحس بالدموع في عينيه واستعاد أفكاراً قديمة اجترت ألف مرة: «أبي ميت وأمي في كاركيفونيا». وأسرع على السلم الحجري بقبقابه الذي يفرقع لينفذ انزلاقاً على الجليد وسط أبناء فلاحين على ما يكفي من الثراء ليمتلكوا زلاجات كانت ترسم حوله دوائر كطيور باز متكبرة تدور حول ديك عاجز عن الابتعاد بما يكفي من السرعة.

كان برميل النار الذي اجتاز الفضاء نيزكاً. ومع ذلك، بقي برميلاً من نار لأن الأمر يكون هكذا عندما تستولي الحمى على الخيال وعندما يولد الخوف مسوخاً.

ثم حل الليل من جديد. كان نويل قد غادر المزرعة وعاد مارتان إلى النوم في غرفة الخدمة. كانت بضع نجوم تلمع من خلال النافذة، وكان مارتان يتلهى باللعب معها. كان يغمز بعينيه، ورأسه في وضعية مائلة، حتى اللحظة التي ينجح، فيها، بتثبيت النجوم في وضع توازن على أشواك الصبار الموضوع على حافة النافذة. كان، عندما يدير رأسه، يتوصل إلى جلب خط النظر إلى الموقع المضبوط الذي كان يتوضع، فيه، نثار كامل من النجوم على الأشواك. ثم كان ينام وقد حصل على الوقت الكافي لاجتياز «الأزلية» في كل الاتجاهات وحسب كل الوجوه المفهومة من جانب الفكر الطفلي. كانت معظم هذه التصورات حكايات خرافية غير مفهومة من ذهن راشد، وكانت أخرى ممتازة، وبعضها أبله. كان مارتان يتساءل عما إذا كانوا، في السماء، يغسلون الأثواب البيض التي يرتدونها أو ما إذا كان الغسيل ينجز، احتمالاً، في الجحيم لإرساله، بعد ذلك، إلى السماء. عادت ذكرى فيلناس إلى ذهنه لحظة. هناك كنت مرتاحاً جداً. قال ذلك لنفسه، حقاً، بتحريك شفتيه وتشكيل أصوات، ولكن بصمت.

ولكني لا أشعر، هنا، أني في بيتي.

ولم أكن، كذلك، أحس بأني في بيتي في تولين، ليس هناك أيضاً. عند ذلك أضاف: عندما يكون الأمر هكذا فهو، حقاً، هكذا. وكان، وهو

على حاله من عدم التلفظ بالكلمات بصوت مرتفع، يركبها بالعامية وليس باللغة السويدية الفصحى. كان، وهو يغمز بعينيه، يرى عوالم الفضاء، بيضاء، حمراء، صفراء. بدت له نجمة خضراء. يجب أن يكون، فيها، كثير من العشب. عند ذلك، كان العشب، يملأ أفكاره ويفكر في الأرض. من يملك أرضاً..

من عنده قطعة أرض يمتلكها حتى الأعماق، حتى منتصف الطريق إن صح هذا القول؟ وبعد ذلك، فإن من يسكن الجانب الآخر من الكرة الأرضية هو مالك الأرض. كان مارتان يتساءل عما إذا كان من يسكن الجانب الآخر زنجياً. ربما كان هندياً أحمر، إن وجد؟ وعلى كل حال، فإن الملكيات تجتاز الكرة وتتلاقى في المركز. وإذا فكرنا في ذلك، فإن هؤلاء هم الجيران الحقيقيون، جيرانك من القاع، من الأسفل. كان يقول في نفسه إن جيراناً من هذا النوع يمكن أن يكتب عنهم حقاً. أتساءل عما إذا كان يوجد في الجانب الآخر، أيضاً، ريببو بلدية؟ عندما يكبر سيذهب ليرى.

نام. حلم بالحرير. كان العالم كله من حرير، لاشيء غير الحرير: عشب حريري، أشجار حريرية، حيوانات من حرير. لم يكن هناك غيره من ليس من حرير. خاف من هذا الحرير واستيقظ. ضغط على غطائه المرقع بيديه.

وما كاد يعود إلى النوم حتى طلع الصباح. كل الليل، هو، بالطبع، للسادة، ولكن الصباح هو للذين كانوا مرغمين على العمل. غادرت كارلا السرير، وقد استيقظت فزعة وبمزاج شرير وعينين منتفختين من النعاس. كان مارتان يلقي عليها نظرات جانبية ويتظاهر بالشخير،

استيقاظ ثعلب فتي. في غضون ثانية، كانت كارلا عند سريره وهزته. انتهت ثانية نوم. قال مارتان وهو يتقلب في سريره:

- نعم، نعم.

ولكن ذلك لم يستمر. كان يخطر لهم، بسهولة فائقة، أن يقولوا إنه يتباطأ في السرير. وسرعان ما كان جالساً على حافة السرير يرتدي بعض الصوفيات التي لديه. لم يستغرق ذلك زمناً طويلاً. ثم ارتدى السترة القطنية. كانت الأزرار باردة كالجليد. كانت بيرتا قد حدثته، يوماً، عن مهرج في السيرك كان يستطيع أن يعزف موسيقا بأزراره. ينبغي أن لا يكون ذلك في الصباح. آه، السيرك! لا يستحق حتى عناء التفكير فيه. فيل؟ يمكن أن يقلب كل هذا، كل الكوخ اللعين. ولكن ذلك لم يكن يستحق حتى عناء التفكير فيه.

دخل المطبخ بقدر ما كان يجرؤ على أن يسمح به لنفسه من الشموخ. كانت كارلا تعدّ القهوة. ظهرت هيلدور قادمة من غرفة أخرى، شاحبة وهزيلة، مزمومة الشفتين ومازالت في خبال النوم. كان لونها مزرقاً كالحليب المخفوق. كانت ضفائرها المجدولة بقسوة تتدلى على كتفيها كعصي. كانت قد أصيبت بالزكام وتشخر. كانت تنام وراء الغرفة الرئيسية في حجرة باردة لم تكن مدفأتها تعمل منذ سنوات. لم يتيسر لهم الوقت لاصلاحها. هكذا كان الأمر في نوردا دائماً، «لم يكن لديهم الوقت» لعمل شيء. لم يكن يعمل فيها سوى القراص والزعيق وأمومة كارلا كل سنتين.

في الوقت الحاضر، كان الحليب يتراكم في ثديي كارلا المتزايدي الانتفاخ صباحاً. أنّت، وبصوت كئيب ومزاج خشن، سألت هيلدور عما إذا كان الأطفال نائمين. قالت هيلدور ناعسة:

- نعم، مازالوا نائمين.

كانت تلك هي كل محادثة الصباح. لم يكونوا، في نوردا، يتبادلون التحيات إلا إذا كان هناك أغراب. كان مارتان قد فهم ذلك سريعاً جداً. كان لطيفاً أن لايرغم على أن يقول «صباح الخير»، خاصة عندما لم يكن يذهب إلى المدرسة.

ألقى نظرة على كارلا. لم تكن القهوة جاهزة بعد. كان يعرف كيف تبدأ الأيام وكيف تنتهي. وكان يعرف بأي شيء يجب أن يبدؤوا. خرج مع الدلو الصحي، ثم جلب حطباً، حطب بلوط. كان قبقابه يفرقع في الباحة وكان، بنعله الخشبي، يحدث ضجة جهنمية في بيت بداية الصباح الصامت. سبعة باعات من الحطب. لم يجرؤ على إحداث المزيد من الضجة وهو يلقي بالحطب في الصندوق. فقد ضرب، ذات مرة، لهذا السبب. كان قد أيقظ أطفال كارلا في مهودهم. أوه! لا لا! كان يجدر به أن ينزلق بأكبر قدر ممكن من الصمت. فقد كانت صفعة من كارلا قادرة على صرع ثور.

كانت تغضب دون انذار وتضرب دون أن تتفوه بكلمة كارتداد الملفاف في البئر. ولكن العمل كان جيداً حين تكون هناك. فقد كانت هي، نوعاً ما، التي تحقق الرغبة المستشعرة.

ومع ذلك: كانت تنبع، أحياناً، العزلة الكاملة، حركة تمتصك وتفقدك النَفَس والصرخة. وعند ذلك، لا يغير وجود كارلا ولا غيابها شيئاً. إنها لا تعود تحمي من مثل هذه اللحظات، ونفسها وهالتها تكونان عاجزتين. عند ذلك تطير، متعرجة بعيداً عن روحك، كورقة خريف، وما يبقى هو زوبعة قلق جليدي.

يستيقظ مارتان، أحياناً، مبكراً، قبل كارلا ويبقى، آنذاك، في سريره، وحيداً ويحس بالقلق ينقض عليه. لو كان له، فقط، الحق في الصفير لكان أصدر صيحة هائلة، ثم سيشعر أنه أحسن حالاً. ولكن الفلاح نائم. ولو أيقظه، فسوف يحس به وهو يمر. وماذا إذا أطلق صرخة؟ صرخة لانهاية لها؟ لا يستحق هذا حتى عناء التفكير فيه. سوف يظنون أنه يفعل هذا ليزعجهم.

كلا، الأفضل هو البقاء راقداً يفكر في الصراخ. بالفكر يسمع المرء صرخاته الخاصة. إنها مثل مائة مهد رضّع تصرخ. حسناً، هدهدوهم إذن! هدهدوهم بينما تنظر إليكم نجوم الصباح من عيونها الشبيهة بعيون الفئران ويتسلل الشفق المنجم على الأرضية.

الآن، وهو هنا، جاث على ركبتيه، يصف الباع السابق من الحطب في الصندوق، استولى عليه هذا الإحساس. وهو، في هذه اللحظة، يعبئه ضد كارلا. زوبعة حملت كارلا، وقد قتلت مع الآخرين. رفع مارتان إلى كارلا نظرة كراهية، كما لو كان ذلك من أجل أن يتأكد من أن الأمر كان هكذا. كانت حركة الكراهية لديه من القوة بحيث أحس بأنه يترنح. وأوحى له ثديا كارلا بقدر من الكراهية خيل إليه، معه، أنه يراهما يرتعشان. قالت كارلا.

- سكبت القهوة، اشرب.

قال وهو يجلس:

- آه، حسناً، شكراً.

جلست هيلدور، أيضاً، ولكن مارتان لم ينظر إليها.

كانت تتمخط، كانت مصابة بالزكام. فهي تنام في الغرفة الجليدية بالطبع.

- يا للأوغاد أصحاب المؤخرات المتربة!

ارتفعت نفثات من بخار، شذى رائحة القهوة طيبة، طيبة حقاً، نعم! رائحة بيت أسرة. تفوح من القهوة رائحة الذكريات، يجب الاعتراف بذلك. إلا أن هذه الأخيرة ممتزجة برائحة الشعير المحمص - ياللأوغاد أصحاب المؤخرات المتربة. إلا أنه يجب أن يشرب ويغلق فمه.

وقفة في أفكار مارتان. عند ذلك سمع الصوت الذي تحدثه هيلدور وهي تشرب قهوتها. استولت عليه رغبة في التوبيخ. قال:

- أنت تحدثين صوتاً وأنت تشربين قهوتك. إنهم يعلمون أنه لايحق للمرء، عندنا، إحداث صوت وهو يشرب.

في هذه اللحظة، أحسا بنوع من الارتباط ببيتهما. تفرسا في بعضهما بعضاً ورأيا ملامحهما الشاحبة التي يقرضها الحنين. صمتا دقيقة. كان ذلك كدقيقة الصمت عندما يتوفى رأس كبير. سمعا، تقريباً، ساعة منزل أسرتهما وشربا، فكرياً، قهوة شربت منذ أمد طويل.

مرت الدقيقة. لا، بل قطعت فجأة، ذلك أن الواحد منهما يشعر بالمزيد من الغضب، أيضاً، لأنه يتذكر ويكذب على نفسه في مطبخ نوردا. قهوة الشعير هذه - أيها الأوغاد أصحاب المؤخرات المتربة - تشبه شرب الماء.

الشرب والتفكير، نظرة الثعلب الماكرة من فوق حافة الكوب. خرج بول مانسون من غرفته. اثنتا عشرة خطوة على الأرضية التي تتقصف كي يصل إلى الباب. خرج كي «يتنشق الهواء»، ثم جاء جويل. ذهب كي «يلقي نظرة على الغيضة». تابعتهما النظرات. عادت النظرات إلى المائدة، وضاعت في جهة كارلا وانزلقت على جسدها الضخم ومرت على

أواني المطبخ النحاسية الخضراء - الرمادية. ثم توقفت على الساعة. إنها الخامسة إلا خمس دقائق. قالت الكراهية: ايه نعم، كالعادة تماماً. أجرت الكراهية تأملات، الكراهية تشرب القهوة، الكراهية ترتد على ذاتها، تتغير إلى أسى صبياني، تتقيح كما سيكون احتمالاً... احتمالاً، كما سيكون، احتمالاً، الموت. كلا، ليس الموت! بل جرح، جرح صغير ويضمد بعدها. نعم، هذا ما سوف ينبغي، وربما سيوجد على ضفاف الموت. مرت كارلا أمام الطاولة. ملأت إبريق القهوة الكبير المطلي. جلست إلى المائدة وبدأت تشرب. إنه إبريق كبير. كل هذا ماء حار. ولكن عديم الجدوى يستيقظ. فلأتناول منه أيضاً. بهذه الطريقة سوف أبقى جالساً مدة أطول.

دخل بول، الناعس، بعد أن «تنشق الهواء». أخذ كوباً وجلس في زاوية المائدة. أصدر النعسان أمره:

- اليوم، بعد أن تجمع السماد، سوف تصنع حزماً في الحقول.

ألقى نظرة من فوق حافة الكوب منتظراً «نعم» الطاعة الشكاءة

- ...نعم.

بعد هذا، لم يعد للقهوة أي مذاق. يجب استعادة الطاقية ثم القبقاب قرب الباب وإعادة إغلاقه وراءه بسرعة. خرج مارتان إلى المدخل وجورباه الخشنان يسببان له حكة وقدماه في فردتي القبقاب والكراهية في قلبه. نزل على السلم بخطوة نائمة، وبصوت قبقاب قوي، مضى نحو الاصطبل. تمخط، وفكر في كارليفونيا ذات لون الأفق الأزرق. تملكته كآبته من جديد، «مارتان الصغير المسكين». تلألأت الدموع في عينيه. لم يعر انتباهاً للصباح على الرغم من كل ما فيه من

أمل. لم تقطع كل آذان الأرانب بعد.. وضع قوس قزح جانباً، سوف يكون موعده في هذا الصيف.

في شهر آذار، شهر القطط، مضى صبي لطيف إلى الاصطبل. كان قديس اليوم هو القديس أدريان. حرب اليوم تسمى الحرب المقدسة. إنها تجري بعيداً. فالس اليوم يدعى فالس جزركوستر. إنه قريب جداً. الشائعات تقول إن سعر الزبدة سيرتفع وإنها سوف تساوي، عما قريب، وزنها ذهباً.

صر باب الاصطبل على مفاصله. يجب تشحيمه. ماذا يفعل صاحب المؤخرة المتربة؟ ثم هذه البقرات مصطفة، والثور إلى يمينها. كانت بنات صغار المزارعين هناك، من قبل، يحلبن البقر، من قبل كل الوقت، أبكر مما ينبغي دائماً. هتفن قائلات:

- سلاماً يا مارتان. هات، إذن، قليلاً من الشمندر للأبقار كي تقف الحيوانات هادئة، على الأقل، ونحن نحلبها.

- حسناً، موافق.

كان مخزون الشمندر في الاصطبل. كان هناك الباب الذي يصرخ، رائحة الجرذان ورائحة القط، المآزر الملقاة في النفايات والتي تفوح منها رائحة قشدة مخفوقة حامضة ودسمة، روائح الزوايا المنسية (للكهوف رائحة تبعث على الحنين). كانت هناك نافذة بثلاثة مصاريع عليها دغل من نسيج العناكب مع ذباب عالق في الشباك. من طرف المجال، يسمع طنين الذعر الصغير من الذباب المأسور. ولكن العقل يقول لك أن لا تنشغل بهذا. البشر ليسوا عناكب، البشر ليسوا ذباباً. وفضلاً عن ذلك، فهي ليست قادرة على الإمساك بذباب الثيران. آه! العناكب جبانة.

لديها كل الوقت لتهتم بنفسها منذ خلق العالم، ولم تتوصل إلى شيء أبداً. في الزوايا رائحة عجائز، نعم، عجائز. أهناك إله؟ لن يجرؤ البشر على ترك العمل معلقاً يوماً كاملاً ليذهبوا إلى اللعب. ماذا لو قيل إنه يمكن اللعب يوماً كاملاً، الثلاثاء، ولعب المرغمون على حلب الأبقار كل يوم الأربعاء؟ حصاد الفطور بالمنجل سيكون مسلياً، وكذلك قرع طبل. موه! قليلاً من الصبر أيتها المزعجات القذرات.

آلة سحق الشمندر على الأرض الترابية وسط المخزن. إذا وضعت اليد، فيها، فسوف تجرح... سوف تضمد... الأكثر احتمالاً هو أن لايحدث شيء أبداً. يالله، سوف يرغم، بالتأكيد، على الذهاب إلى العمل مع ذلك. موه! حسناً! حسناً! أيتها القذرات! حسناً، ها هي الآلة، يجب تشغيلها. الشمندر يجب أن يسمى لفتاً أزرق محلّى. سيقول المعلم: حسناً، هيا، سوف نغني جميعنا الآن: «البنت دخلت الرقص بشرائطها المذهبة، البنت دخلت الرقص بشرائطها المذهبة». أغدا، في عيد الفصح، كان في ضفيرتها حرير أبيض. موه! نعم، أهذه أنت أيضاً؟ في عيد الفصح، لعبنا... باه! لاتخشي شيئاً. لست أنا الذي يستطيع ترك العمل معلقاً كي أذهب للعب. كراك! كراك! ما هذا أيضاً؟ حجر. ياللشيطان كم تستطيع أن تشبه قرص شمندر مترباً! سوف اضربك بالجدار لأهدم المكان أيها القذر! يجب أن يكون لدي غيتار. هه! هذا أوصد فمك! أتريد أن ألتقطك وأضربك بالجدار أيضاً؟ هه؟ هكذا؟ هيه؟ هكذا؟ أتتخيل أنك سوف تستمر في التصرف على هواك؟ سر! يجب أن يدور هذا! قاطرة حقيقية! لا، هذا شيء مختلف تماماً. عندما تسير قاطرة تحت المطر، تزيد حرارتها، تلمع، تغني. ضباب أزرق من

كاليفورنيا، كاليفورنيا زرقاء. موه! حسناً، نعم أنت الأخرى، أنا قادم، يا لكنّ من أبقار!

من أجل اليتيمات، من أجل اليتامى

وهوب هوب هوب

عندما أصبح كبيراً سأرفس مؤخراتهم

وهوب هوب هوب

هذا جيد، هذا يكفي، ثلاثة هكتوليترات من الشمندر، وأنت، يا بوه! بوه! وموه! موه! لقد مللت منك. والحرب؟ أتساءل في أي جانب يقف الله. الجنرالات ينظرون من خلال المناظير. الجنود يتقدمون في صفوف طويلة. لا يمكن سماع الصرخات بسبب طلقات النار. موه! أليس كذلك؟ أنا قادم أيتها البقرات القذرات!

مضى على طول المعلف. الأبقار واقفة في صفين، قرناً على قرن. مضى بين الجبهات الكوكبية الشكل. أحس بالقرون تلامس ربلتيه. صدم قرن عقب قدمه. ألا تستطيع أن تنتبه أيها الحيوان القذر؟ البقرات تعبد مارتان، تحمل له حباً وجلاً وغذائياً. كان مثبتاً على شبكياتها ومناخيرها. للثور رأس صلب، ولكن لديه تواضعاً أيضاً. سوف يأتي دوره آخراً. بعد قليل، كانت كل الحيوانات تمضغ الشمندر الجيد المقطع إلى شطائر، تنصب أخطامها وتمضغ ثابتة العيون. الاصطبل طلي بالكلس مؤخراً. مارتان هو الذي تولى ذلك. قال في نفسه وهو يفحص السقف والجدران: أنا الذي فعلت ذلك، لايمكن أن يقال إن هذا لايلمع، أليس كذلك؟ جعله هذا يفكر في الكنيسة. قال لنفسه إن الأرغن جيد، لو لم يكن هناك أرغن لما كان هناك إله. يجب الذهاب إليها في بعض

المرات. يجب أن يكون هذا لأن أغدا تتهيأ لمناولتها الأولى. هذا جيد بالنسبة إلى المزرعة. يجب أن يكون هذا السبب الذي، من أجله، يرسلوننا إليها أيضاً. لا يريدون أن يكونوا أدنى من والدي أغدا. ضفائر وشفتان. أغدا.

- إنها هادئة الآن، أليس كذلك؟

قال مارتان:

- نعم، هذا جيد.

رددت البنت الأخرى كصدى:

- نعم، هذا جيد.

كانت البنات جالسات والدلاء محشورة بين ركبهن. كان جبين كل واحدة منهن يستند إلى جنب بقرة وعيونهن على شلال الحليب، نبع أبيض بين ركبهن. ولكن اهدئي! ثم تتمتم بشيء آخر. سألت إحدى الفتيات قائلة:

- متى تظنين اللواء قادماً؟

لم يرد أحد حالاً. بدأ مارتان في مد فراش البقرات التي انتهى حلبها. كان يصغي: اللواء هو لواء مدفعية مدينة ك.. إنه يأتي مع مدافعه في بداية الخريف عادة. وهو يمر بحقول الشعير ويحدث ضجة رعد في الغابة. إنهم يسمعون من مسافة خمسين كيلو متراً. كان مارتان يحس حيالهم بالإعجاب الذي يكره وبالكراهية التي تعجب. أزرارهم الصفراء؟، أليس كذلك؟ جياد وجزمات. لو كان يستطيع أن يشتري، مع رفيق، مدفعاً أو اثنين، ثم بزتين رسميتين وأربعة جياد. بعد هذا، هه، لن تكون هناك حاجة لحرب. سوف يتجولان في الغابات مع المدفعين

ويطلقان، قليلاً، قذائف في الفراغ، أو سيطلقان، حقاً، على هدف، بين حين وآخر، على جبل خاص لايسكنه أحد، وهكذا لن يستطيع، بعد ذلك، الجنود، وكلهم أدعياء، أن يعيدوه. آه! إنهم لا يعرفون كيف يلعبون. كلهم حمقى. الناس لايعرفون اللعب، كلا، يجب الرحيل بحراً. الناس، في البر، في الأرياف، أغبياء، أغبياء.

ردت البنت الأخرى بعد برهة:

- اللواء سيأتي في ١٠ أيلول. سوف نختار من بينهم عشاقاً، ألا ترين ذلك؟

- بلى، أنت تعلمين جيداً.

- أتعتقدين أنهم سيعسكرون هذه السنة هنا؟

- بالتأكيد، أنت تعلمين ذلك.

شرع مارتان في نقل محتويات السواقي على عجلة في ممر ضيق فوق الحفرة الاسمنتية. يجب أن يمارس رياضة التوازن. في صبيحات الشتاء، يرغب المرء في رؤية الدب الأكبر، عند ذلك يسقط أحياناً. هذا هو الصراع الأزلي بين النجوم والسماء. يجب أن تكون للمرء عين في أعلى جبينه ليرى النجوم. كلا، ربما لن يكون ذلك جيداً.

أغدا.

العالم جميل مع أغدا.

تتدلى، أحياناً، الضفائر على كتفيها هكذا. إنها تلمع بحيث يخيل للمرء أنها حية. ويمكن أن يقال إن كل خصلة تعكس النور. كلا، إنها لا تلمع، لا تتلألأ، لأن العينين هما اللتان تلمعان. إلا أن هناك، حول الضفائر، نوعاً من وميض، نوعاً من وميض.

أعـاد مـارتان العـجلة إلى كـهف الدواب الفـاتر. قـال فـي نفسـه إنه سيتـدبر أمره،في عـيـد الميـلاد، كي يمد الشـريط إلى أغـدا، شـريط الحـرير الأبيض. وهكذا سوف يستطيع أن يمسك بالضفيرة في يده لحظة.

آه! يا إلهي، يا إلهي - كمـا يقـول التـقـويون في اجـتـماعـاتهم. يا إلهي، يا إلهي! لا أرغـن لدى هؤلاء، لاشيء سـوى منشـدين رديئين. لا إله لدى هؤلاء الناس.

اسـتـمـع مـارتـان إلى البـنات يثـرثرن حـول اللواء. فـسـر صـوت الكلمات، اللهجات، طرح افتراضات احتفظ بها لنفسه.

كن ينتظرن اللواء دائماً. وعندما يذهب اللواء:

لماذا يجب أن يتقاتل الرجال؟

ولماذا سفك الدماء؟

خـرجت البنات على طول الممـشى الزلق. خلعن مـآزرهن وبـدأن في نقل الحليب. ثم ذهبن. بقي مارتان وحيداً.

غـيّر فـراش بقـرة. وجد أنهـا لا تبـتـعـد بالسـرعـة الكافـيـة. ضـرب البـهـيـمـة المسكينة بالرفش، أولاً، ثم بعـصـا. هو، في الاصطبل ايفـان الرهيب*. إنه يوم الغـضب. غـضبـه كـان يصـرّفه في الحـيـوانات. ضـرب مارتان الذي كان يبكي من غيظ عاجز الحيوانات بقضبان جديدة أيضاً. كل هذه القضبان تكسرت، ولكن كراهيته عنيدة. ازدرى نفسه لانجرافه مع هذا الغـضب القـاسي طفوليـاً. في المطبخ، يطعمـونه، ولكنه لم يكن يسمع سوى مشـاجرات وحمرنات. لم يعرف، أبداً احتـمالاً، يوماً حياً ولطيفاً واحداً في هذه المزرعة. في نهاية الشتـاء هذا، كان على شفير الهلاك. لم يعد للحيـاة أي معنى. جرح نفسه بسكين، السكين لم تكن قاطعة، ولكنه شحذها، أولاً، بعناية، على مسنّ. كان ذلك مؤلماً. سبب لنفسه جرحاً صغيراً، ثم توقف، ولكن الدم كان يسيل. ثبت يده في وضع ينصبّ الدم، معه، فيها كما في وعاء. لا ينبغي تلويث شيء. أراهم الجرح في المطبخ. دخل على مهل كي لايقلب شيئاً على الأرض. فتح البـاب وظهر عنده ويده مليئة بالدم. ولكن كـارلا لم تكن هناك. خافت غونيلا من رؤية الدم، أولاً، ولكن ذلك كان خوفها من الدم، خوفها هي، فهي خافت على نفسها وليس عليه. وضعت طشتاً على الطاولة وغطست اليد في الماء، غطي الماء بورود. بقي الجرح الصغير

* - قيصر روسي قديم اشتهر بالقسوة والدموية .

الذي انكشف في المعصم الذي كان قليل من الدم ما يزال يسيل منه. لم يكن ذلك شيئاً، لم يكن شيئاً. ارتفع صوت في ظهر مارتان. كانت غونيلا تمزق قطعة قماش. غادرت الحجرة. ثم عادت بثلاث أوراق نباتات كانت قد سحبتها من حوجلة كانت تحتفظ، فيها، بهذا النوع من الأشياء نضراً. ها هي تمضي إليه. وها هي تأخذ يده وتغمرها في ماء الورد. ثم ضمدت الجرح بسرعة. كان للأوراق الشافية نضارة قماش مشمع.

سوف يشفى عما قريب. لاشيء يخشى منه.

ثم صمتت. ساد الصمت في المطبخ. كانت تكتكة الساعة تصل، منتظمة، ثابتة، من الغرفة الكبيرة. كان الأمر كما لو أنه حكم على سجين بالتقاط حبات حمص سوداء صغيرة في سجن (كان ذاك موضوعاً شائعاً للمحادثة في المزرعة). كان مارتان يود لو جلس على كرسي. ربما كان سيعنى به في المطبخ. ربما كان سيلعب بشيء ما، أو ربما كان سيبدأ في الغناء. كان في إمكان غونيلا، مع ذلك، أن تعدّ له قهوة وأن تروي له شيئاً.

خرج ثانية. كان يسمع قبقابه يفرقع. كان القبقاب يستطيل بإيقاع الساعة القاسي والميت. ذهب إلى الاصطبل. أدارت الأبقار رؤوسها ونظراتها نحو مارتان. كانت ترى فيه شراً لابد منه.

عند ذلك، بدأ يبكي بصمت. كانت العناكب غائصة في بياتها الشتوي. خارت الأبقار طلباً لمزيد من اللفت. كانت الدموع تسيل بشكل أقوى قليلاً. وسرعان ما لم يعد يستطيع السكوت. كانت البقرات تخور. كانت هذه أصواتها. عند ذلك، أحس مارتان بحباله الصوتية

تتمدد وبحنجرته تضيق. ثم برز صوته، هو. انصرف إلى مشاغله كإنسان آلي، باكياً، خائراً. ومع ذلك، انقضى اليوم في الاصطبل وفي الحقول مع الحزم. كان يوم عطلته.

في تلك السنة، ذاب الثلج في شهر آذار، يوم القديس أدريان. صلى مارتان إلى الله جاثياً عند ركام ثلجي. سامحني أيها الإله الذي في السموات. ولكني أود كثيراً أن أرحل من هنا، والحياة قاسية جداً عليّ. أبانا الذي في السموات..

قال ستاف:

- العادة طبيعة ثانية يا أبنائي.

وعرض عليهم المفتاح الذي كان يمسك به بين أصابعه.

- شقيقتي جاءت تزورني. ومع ذلك، حملت المفتاح معي كالعادة. فأنا قد حبستها. إذن، العادة طبيعة ثانية.

أراهم المفتاح مرة ثانية ثم خرج بخطا سريعة ليحرر أخته. عندما عاد، لم يكن قد تيسر الوقت للصبيان كي يستعملوا مقذوفات ورق النشاف المصنعة على عجل. رفعت أفاعي الفردوس عيونها إلى السماء. جلس الأطفال، من جديد، هادئين تماماً. تابع ستاف وهو ينقب في جيب صدارته ليعثر فيه على تبغ.

- ماذا نستطيع أن نستخلص من حدث كهذا؟

سحب من جيبه حفنة دسها، بيد خبيرة، في فمه

- حسناً، نستخلص أن القسم الأعظم من حياتنا اليومية يخضع لقوانين العادة.

ضبط ستاف نظارتيه ونظر إلى الأطفال بلطف.

- من المهم، إذن، أن نجدد عاداتنا باكتساب عادات جديدة جيدة. بهذه الطريقة سيأتي الخير وحده، إن صح هذا القول. الخير سيكون، ببساطة، طبيعة جديدة. العادة طبيعة ثانية.

جلس ستاف. تمخط في منديله المزهر. ثم مسح نظارتيه بطرف من المنديل، وما أن أنجز هذه الأفعال حتى أملى عليهم ما يلي:

«ينتصب قصر جميل في أعلى التلة. في مسورته ثور مربوط بعمود. يعبر طفل يحمل دلواً الساقية بقفزة. إنها لبلاهة شديدة أن يعبر النهر لجلب ماء.

كتب الأطفال: قصر، أعلى، مسورة. بين حين وآخر، كان مارتان يلقي حوله بنظرة مختلسة. فرح سراً، لرؤيته معظم الآخرين يمضغون أقلامهم أو يمدون ألسنتهم. سوف يعلو شأنه أخيراً. ما أعذبها من لحظات! السلام أخيراً! لم تعد هناك حاجة لجمع السماد، للعمل. ليس عليه سوى أن يكتب كتابة صحيحة، وليس هذا صعباً جداً. المدرسة، يالها من مباركة!

خلال ساعة، كانت روح مارتان تهر. كان يحرك الريشة كسيف صغير. إنه يتسيد الاملاء. هل يمكنكم أن تجدوا كلمة واحدة بحرف "O" لايعرف كتابتها؟ لا.

كان رأس مارتان بين كتفيه. كان يتذوق الكلمات. كان ذلك كما لو أن وزارة التعليم العام قد أجلستك على وسادة طرية ومدت لك، بدلاً من الخروع المر، قطعة حلوى بالقشدة قائلة لك: ابتلع هذه!

هو ذا مارتان يحضن كلماته كبخيل، أو كدجاجة مع كمية كاملة من صيصان فقست في يوم جميل الطقس. ياصغاري، ياصغاري، يا صغاري. انظروا ما أنا قادر عليه. ولكن الآخرين كانوا ينظرون خلسة أو من فوق كتفه. أيها النقلة الصغار، لقد ارتكبتم، من قبل، أكداساً من الأخطاء.

قال مارتان في نفسه: كلا. خبأ ما كتبه. ستحصلون عليه في قفاكم. أيها اللصوص! أحاطوا به كعصبة ذئاب جائعة. سال لعابهم أمام هذا القدر من الكلمات المرصوفة جيداً هنا، الجيدة الإملاء. ولكن مارتان سهر على كلماته. ما من أحد يحق له أن ينظر سوى من يجلس معه على الدكة نفسها. انتشى بعرفان الجميل وقدم لمارتان قطعة من الشوكولاه. كتبا الإملاء بالتنسيق بينهما وفي الرخاء، أخذا يراقبان عصبة «الذئاب» التي كانت تتزايد ضياعاً والتي كانت أناتها تتوسل إلى السماء.

انقضت الساعة. جاءت الفرصة التي كان مارتان يضرب، فيها، عادة. ولكنه محمي، اليوم، من رفيق دكته الذي كان طويلاً وقوياً. سيكون صد الهجوم أقل صعوبة. ترددت الذئاب. وعلى الرغم من ذلك، تماسكوا بالأيدي، تبادلوا الشد على ياقاتهم، واقتلعت الأزرار، حرثت القباقيب الأرض وعضت الضحايا الغبار.

في أعلى السلم، على عتبة الصف، ثلاث بنات، ثلاث أميرات، نضرات ومشرقات ينظرن بازدراء لا اسم له إلى عامة الإملاء التي تتدحرج على الأرض.

الأطفال يتعلمون الحقيقة - والأكذوبة، من مصادر مختلفة.

كانت حكايات غريم تناسب المنطقة، وكان الأطفال يعيدونها إلى الحياة في مكانها. وكانت حكايات زاكارياس توبيليوس تتوافق مع أراضي الخلنج وكان إطلاق اسم «موستي» على كلب صغير طيب العينين كذكرى عن الكلب الذي روى حكايته أمراً يشهد بسهولة.

كان نهر صغير يوازي أراضي الشمال الشرقي يستخدم إطاراً مثالياً لأغنية «نم يا قطي الصغير، مازلنا في الشتاء». وتحت جسر صغير لهذا النهر، كان كل شيء يناسب حكاية «التيوس الثلاثة». وأخيراً، وعلى طريق لجونغتافان، كانت توجد مزرعة صغيرة احترقت وكانت مدخنتها تنتصب كسبابة ملطخة بالحوّار والقار. وفي أسفل الأنبوب المنهار، كان الموقد المدموغ بالكلس الذي تراكمت عليه صفائح قيشاني قديمة سليماً تقريباً. كان المطر قد محا آثار القار التي خلفها الحريق، وما كان باقياً من دمار، كان يلمع من بعيد بين الخلنج الخريفي. هناك كان مارتان قد عين موقع المذبح الذي كان إبراهيم سيضحي باسحق فيه. ابراهيم، كما نعلم، منعه الرب وكان عليه أن يكتفي بتيس علق في الأشواك. هناك، أيضاً، كان كل شيء مطابقاً. لم تكن تنقص أشواك شجر الخوخ في جوار الخرائب.

بعد بضع سنوات، تعرف مارتان إلى العجوز التي كانت قد عاشت

هناك. كانت نصف عمياء وتسكن في المأوى. عندما علمت أنه من المنطقة، سألته عما إذا كان قد رأى الخرائب التي احتفظت لها بتعلق أبله. عندما روى لها أنه كان قد عين، فيها، تضحية ابراهيم، استولى عليها الذعر وضربت ركبتيها. قالت وهي تستنشق حفنة من تبغ:

- أليس هذا تجديفاً؟ وفرن الخبز، أما يزال موجوداً في جدار المدفأة؟

- نعم، لقد وضعت، فيه، هانز وغريتيل.

- أيها الرب الإله! أأنت وضعت، إذن، أشياء في مدفأتي؟

هددته بإصبعها. لم تكن سعيدة جداً من الأشياء التي كوّمها في خرائبها. سألت قائلة:

- كيف الأمور هناك ما عدا ذلك؟ ربما كان سؤالاً غبياً. القمر يظهر ويغيب، وكذلك الشمس، كالسابق.

وقالت شارحة:

- الصاعقة هي التي انقضت على المدفأة منذ إحدى وثلاثين سنة.

كان عمرها، هي نفسها، ستاً وثمانين سنة، وكانت تستغرق في ذكريات زمن لم تكن، فيه، سوى في الخامسة والخمسين. كانت العاصفة قد أتت، كأرض ظلمات كبيرة هناك في الأعلى، وصدرت عنها جلبة كتلك التي تصدر عن لواء مدفعية يصب نيرانه على العالم المسكين. إيه، نعم، لقد كان الأمر هكذا.

في كل مكان، تقريباً، على الأرض البراح وفي الغابات، كانت هناك مواضع مشابهة كان مارتان يجد، فيها، ملاذاً لحكاياته وحالاته النفسية وأحلامه ويدعها تتجذر فيها. كان لكل مكان مهمته ويحتفظ

له بكنز مخبوء. إلا أنه كان للأسطورة أخطارها أيضاً. فهي تجعل منك شخصين مختلفين. كان ينبغي عليه، أحياناً، أن يخطو عدة خطوات إلى الوراء، أن يتراجع.

كان يسكن في ستورالجونغا أناس أتقياء، طيعون وفقراء، كان ينبعث عنهم هرير ذعر عندما يدع الله العاصفة تداعب الهضبة المغطاة بالخلنج. كانوا من الطائفة الميتودية ويعلمون أنه لايمكن للإنسان أن ينال الخلاص إلا مرة واحدة. فإذا سقط مرة ثانية كان ملعوناً. ولذلك، كانوا يخافون، فوق كل شيء، العودة إلى الوقوع في الخطيئة. كانوا الوحيدين في المنطقة الذين يعرفون كم الحياة صعبة، كم هي قاسية. كان ميتوديون آخرون يزورونهم أحياناً. كان هؤلاء يأتون من بعيد. كانوا هزيلين ومتعصبين. أتى بعضهم من أمريكا مرة. كانت بينهم واحدة اسمها مس جوهانسون. كان لها شعر قصير، وعينان واسعتان وأذنان كبيرتان وتشبه صبياً كبر بأسرع مما ينبغي. كانت تسير على الدروب محنية الظهر تحت المطر متلفعة بمعطف أمريكي مضحك. كانت آنسة الله.

أعار الميتوديون مارتان «رحلة الحاج».

قالوا بعطف متوجهين إلى روحه:

- انتبه إليها جيداً.

قالت روحه:

- آه، نعم.

قالت روح جالسة في زاوية:

- يفضل أن تغطيها بورق.

قالت الأرواح الأخرى:

- نعم، هذا أفضل.

ووجهت المس إلى مارتان ابتسامة لطيفة.

دون أن تدري، كان يسقط خياله عليها. لقد كانت قادمة من بعيد جداً، من جبال الشلالات! أعطته بطاقة بريدية عليها صورة المدرسة التي كانت تعلم، فيها، كيفية تجنب الخطيئة والتمييز بين ما هو خطيئة وما ليس هو كذلك. كان مبشرون يؤهلون في هذه المدرسة. كانت مدرسة جميلة لها مئات النوافذ، واقعة على شرفة تطل على واد جميل جداً. كان ينبغي أن يستطيع مثل هذا الوادي أن يؤوي تسع قرى على الأقل.

قال مارتان إن المنطقة تبدو جميلة فقالت:

- نعم إنه جمال الله.

قدموا له القهوة. جلسوا حوله بلطف، خائفين من العودة إلى الوقوع في الخطيئة. كان لديهم انطباع يقول إنهم لو وقعوا عن كراسيهم، فسوف يكون هذا نكسة. علقت على الجدار لوحة «أعمار الإنسان». كانت هناك، في الواقع، لوحتان، واحدة للرجل والأخرى للمرأة. كان الرجل يخرج من المهد ويبدأ في صعود سلم. كان على الدرجة الثانية، وقد بلغ سنته العاشرة، يرتدي سروالاً قصيراً ويعتمر كاسكيت صغيرة. كان، على الدرجة الثالثة، قد ارتدى بزة بصدارة، وكان، على الدرجة الرابعة، يتزوج، سعيداً ومشورباً. كان، في عمر الخمسين، قد بلغ القمة وإلى جانبه العكاز ذو القبضة الفضية كإشارة استفهام: هل أنا أنيق إلى حد كاف؟ كان ينبغي أن يكون معه، احتمالاً، سيغار في اليد التي كان يحتفظ بها خلف ظهره. هكذا كان له مظهر شخص لايدخن - أو مظهر مدخن إذا كنا نفضل ذلك: حياء كامل حول هذه النقطة.

هكذا كان ينتصب في ذروة حياته. ثم كان يتدحرج على السلم متزايد الذبول. وفي النهاية، كان تمكنه من مغادرة الأرض مأثرة تقريباً.

ذاك كان الرجل. أما بالنسبة للمرأة، فقد كانت القصة نفسها، ولكن في تنورة. لم يكن يمكن للوحة أن تكون خلاف ذلك. كان الناس يجلسون تائهي النظرات في البعيد، يجتازون الزجاج والصورة. لم يكن يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك.

وكان الأمر على هذا المنوال بالنسبة لأشياء كثيرة. فلم يكن يمكن للمغنية كريستينا نيلسون أن تكون إلا كما تظهر على البطاقات البريدية، ولم يكّن يمكن لله أن يكون إلا كما كان في السماء.

عاد مارتان مع «رحلة الحاج» تحت ذراعه مغلفة في ورقة. كان الميتوديون يتابعونه بنظراتهم، وكانوا يرون روحه المحبوبة من الله تختفي عند آخر الطريق.

كان ذلك مساء يوم الأحد. هبط الليل، وابتعد مداعباً بعينيه، طالما استطاع ذلك، بطاقة جبال الشلالات البريدية. كان الأمر كما لو كان ينظر إلى بطاقة شبقة لله. وفي مشكاة الاصطبل الحجرية حيث كان ذباب الربيع في شباك العنكبوت يطلب الرحمة، قرأ مارتان قصة اليأس العملاق.

ثم جاء الصيف، أجمل صيف في الأرض أحاط بالبيت. أعطيت السنديانة الألفية شالاً أخضر توجها كما لو كان شعراً مستعاراً. في مواضع أدنى، كانت الشجرة عارية تماماً، مثل سوزان الطاهرة – سوزان كثيرة العقد، خشنة وتستحم في النسيم. مضى جعل ضخم كقطعة صابون وأسود ولامع كالعقيق في رحلة حج. بلغ، وهو يصعد على جذع الشجرة الخشن، في برهة غياب الشمس، غصناً هائلاً ومائلاً نحو الغرب. ثم جاء الليل الذي ليس كله ظلاماً كما يعلم الجميع، بل هو ظل بألوان داخله. وضع عندليباً على غصن. وكانت علبة موسيقاه التي صنعتها الطبيعة تغني وتغني، لا لشيء سوى أن تمتع نفسها. إلا أنه كانت هناك، بالطبع، آذان تصغي.

في بعض الأمسيات، كان مارتان يفكر: أنا مرغم على النهوض باكراً جداً، في الساعة الرابعة صباحاً. لماذا النوم إذن؟ الأفضل هو أن أبقى واقفاً واستمتع بهذا الليل الجميل. وحق إيماني نعم.

كان يعبر المرج وهو يصفر. في طرف حاجز صخري يكاد أن لا يرتفع أكثر من قصر ريفي ومغطى بالطحلب، كانت شبكة من ضباب معلقة وتحجب النبع على صورة جرس من قطن مندوف. ذهب مارتان إلى النبع وراح يصغي. كانت ضفدعة خضراء، إلهة خضار تقفز، فلوك! في أعمق الأعماق، كان النبع يكلم نفسه بعروقه الألف. كان النبع يغوص

في الأرض، كشجرة ماء تنشر أغصانها الفضية تحت العشب. إذا أصغى المرء جيداً، فإنه كان يستطيع سماع كل هذا في صمت الليل.

في الليل، كان كل شيء على جمال نفور. هو، نفسه، عاد إلى المزرعة نفوراً وصامتاً. كانت ليالٍ مثل هذه هي التي كان يعيشها.

في مثل هذه الليلة، هام على وجهه في الأرض البراح حتى المكان الذي أقامت فيه إدارة المياه والغابات مشتلاً للصنوبريات. كانت تمتد، وراء بوابة حمراء متوهجة، صفوف شتلات مسواة على الخيط. كانت المماشي مغطاة برمل أصفر جميل. في بعض الأحيان، كانت جماعة المياه والغابات تأتي لإلقاء نظرة على الشتلات، إذ ينبغي أن تنمو كل شتلة خلال سنتين قبل أن يعاد غرسها في الأرض البراح. كان هناك من الصمت ما لم يكن ينقص، معه، سوى كنيسة. اختار مارتان الموضع الذي يجب أن تكون فيه.

جعلته هذه السكينة وهذه العزلة يفكر في المقبرة. كان يمكن أن تكون، هنا، مقبرة للأطفال. كان يمكن للأطفال وإينيز، وحدهم، أن يستريحوا هنا، ولا أحد آخر. إينيز؟ كلا، كان يفضل أن لايفكر فيها خوفاً من النزول، فكرياً، إلى القبر الذي يوجدون فيه. كان يعلم أن الأجساد تتحلل ما إن توضع في التراب. كلا، هذه لم تكن مقبرة، كلا، كلا. كان الأمر يدور حول مشتل، حول شتلات مكرسة للأرض البراح. وصل إلى التفكير في الصنوبريات. بعد بضع سنوات، سوف تتأرجح هذه الشتلات، ببطء، في الريح، ستكون أشجار صنوبر كبيرة وتغني على الأرض البراح. وفي تلك البرهة، لن يعود للأرض البراح وجود. لن تعود أرضاً براحاً. وجد في الفكرة شيئاً حزيناً. لهذا السبب، أيضاً، كان

يود أن يبكي. كـان يشـعـر، دون أن يعلم، بأسى الطفل أمـام مـوت الذرائع. الأطفال والشعراء لايحبون شيئاً بقدر ما يحبون الذرائع: الأرض البـراح الأزليـة التي تـريد أن تكون الأرض البـراح لتنتـحب على عـزلة الأرض البراح.

تابع سيره مستغرقاً في أحلامه الكئيبة، وفياً لأرضه المنعزلة في أفكاره المبهمة والشجية. لماذا كان يجب أن تنمو شتلات الصنوبر بدلاً من أن تبقى، بصورة محزنة، كما هي، صغيرة تماماً في الغابة؟

وصل مـارتان إلى درب كـان يغـوص سريعـاً في واد صـغـيـر تنمـو، فـيـه، نبـاتات متنوعـة. سلك هذا الدرب. بعـد بضع لحظات، وصل إلى طريق كان العشب ينمو، فيه، بلون أخضر فاقع بين أخاديد عميقة. وجد نفسه أمام بوابة يجاورها سياج. كان يقف قرب السياج خمسة خدم وست خادمات، خدم أقـويـاء وخـادمات ذوات خصور عـامرة. كـانوا يتداولون الحـديث في طقس المسـاء اللطيف، مـحـاولين أن يجـدوا في ذلك بعض الفـرح، ويروي بعضُهم لبعضٍ قصصاً. توقف مارتان وهو أشد خجلاً وأكثر جبناً من أن يتابع سيره.

عند ذلك، قال له أحد الخدم:

- اقترب، لا تخف.

واقترب مارتان، حينئذ، من المجموعة.

وفي الوقت الذي كان، فيه، على أهبة تخطي السيـاج سألت إحدى الخادمات قائلة:

- ألست أنت الذي يعيش في نوردا على نفقة البلدية؟

قال بوجل وخوف:

- نعم.

ظل مفرشخاً على السياج وقد وضع قدميه على الدرجات في الجانبين كما لو كان يضعها في ركابين. قالت الخادمة ملتمسة موافقة الآخرين:

- يا إلهي: أليس من العار أن يترك طفل هكذا؟

كان جوابهم أن نعم. وأضاف أحد الخدم:

- بول يدفع غرامات لأنه أساء معاملة حيواناته. لقد حدث هذا ثلاث مرات. ومن أجل هذا، لاغرامات!

قال آخر:

- وماذا عن جويل إذن؟

قال الخدم:

- هذا؟ ياله من سافل!

كانت الدموع في عيون الخادمات الآن. بقي مارتان جالساً مفرشخاً على الحاجز الخشن.

كانوا يهزون رؤوسهم. حافظوا على الصمت برهة طويلة يجترون الموقف فيها. كانوا يرسمون بأطراف أحذيتهم في العشب الرطب رسوماً مائية خضراء. كانت الخادمات يقطفن، حالمات والدموع في عيونهن، باقات من الحزاز.

قطع خادم يرتدي بزة أوسع مما ينبغي وعمرة مترهلة الصمت. كان عنده اقتراح.

- يجب أن ننزل علقة ساخنة بجويل. سيكون هذا درساً له.

وافق الآخرون قائلين:

- نعم، يجب أن نفكر في ذلك.

خلع أول شخص تكلم عمرته وراح يجمع التبرعات من الآخرين. وصل المبلغ إلى ثلاثة وثمانين أوراً. هذا كل ما كان معهم. قبل مارتان، بابتسامة مرتبكة وبلهاء، هذا الكنز من النقد الصغير، قبضة من القطع الصغيرة.

كان مايزال جالساً على السياج، رافعاً عمرته، غير واثق تماماً، مهذباً كتلميذ، أكثر مما ينبغي بقليل. قفز من على الحاجز وشكر كلاً منهم بدوره ماداً يده لهم. عبر لهم، بشكل أخرق، عن امتنانه منحنياً لهم.

كان يقول لنفسه، في سريرته، إن العيش على نفقة البلدية ليس على هذه الدرجة من السوء. هيه، هيه!

قال الخادم ذو العمرة مشجعاً:

- بهذا، سوف تستطيع شراء ما شئت.

ابتسمت له الخادمات من خلال الدموع.

اجتاز مارتان السياج الذي توقف عنده طويلاً. ودعوه بتلويحة من أياديهم، وتابعوا بعيونهم ساقيه العاريين، الأبيضين على الرغم من لدغات البعوض، واللتين كانوا يرونهما تلمعان بين السنديانات المستديرة والبلوطات السوداء وذات العقد. عاد في الوقت المناسب ليعيد البقرات التي بقيت في الغابة إلى المرعى الذي كانت تحلب فيه. كانت كارلا هناك تنقر على دلو فارغ لمقاومة النعاس احتمالاً. كان مارتان، قد أخمد، بالطحلب، رنين القطع النحاسية في جيبه.

كالعادة، لم يتبادلا التحية. ربط الأبقار بأوتاد وأخذت كارلا

تحلب. كان يترك البقرة التي حلبت ويمسك بأخرى يربطها مكانها. عملا على هذا النحو حتى حلبت كل البقرات، ومن خلال الضباب، بدأت الشمس تلمع فعلاً. كانت كارلا أكثر يقظة بقليل. ومارتان أكثر نعاساً بقليل أيضاً.

تطوع ابن لأحد البيوت الفقيرة في سلاح فرسان ولي العهد. في كل ربيع وخريف، كان يعود ليرى والديه، وكانت بزته الرسمية تلمع في الغابات. كانت هذه البزة تشبه، مرئية من الأمام، مغلق شباك أو مشواة حامية. كان يصرح للفتاة التي كان يشوي قلبها على نار خفيفة قائلاً: «نحن الفرسان نسمي هذا رتباً». ذات يوم من شهر أيلول، تلقت الفتاة من الفارس رسالة وداع، بضع جمل تفسيرات كتبت بخفة - كانت هذه الرسالة في بياض الكلس وموته. ألقت الفتاة بنفسها في البحيرة. وفي تشرين الأول، انتشلت منها. كانت منفوخة وغيرها الجنين وسيرورة التحلل إلى عوامة انجرفت مع التيار. تحدث أهل الأبرشية عن الحدث على طريقتهم. وفي المرات التالية، اتخذ الفارس عشيقة في قرية أخرى مناخها جاف ولا توجد، فيها، بحيرات.

ذات مساء كان ذاهباً، فيه، لجلب الأبقار، التقى أغدا على طرف الحقول بين أشجار الجوز. إنها ابنة مزرعة قريبة من لجونغتافان. كانت لها بشرة ناعمة وعينان صافيتان وجدائل طويلة - وكانت تتهيأ للمناولة الأولى. حيت مارتان بتكلف ومرت أمامه. حياها برأسه على استحياء. خجل من قبقابه الفظ وغاص، بسرعة، بين أشجار الجوز.

بعد بضعة أيام، لقيها، من جديد، مساءً. تبادلا التحية كالمرة السابقة، هي متكلفة، وهو أخرق. لم يكن بينهما، بالضبط، شيء، ولكنها كانت تملأ خياله.

عندما التقى، فيما بعد، ابن ميتوديي أرض الخلنج البراح، تباهى بأنه يقترف، كل يوم تقريباً، خطايا مريعة مع الفتاة المسكينة.

كان ابن الميتوديين يصغي بارتباك. ولكنه تحمس بعد بضع لحظات. وسرعان ما اعترف، هامساً، بأنه مغوٍ كبير هو نفسه. ودل على نقاط في الأفق وأخرى أيضاً. طاف حول وردة الرياح وتابع، في كل مكان، عملية الإغواء دون انقطاع، دون انقطاع.

إنه مـا هو سلبي. كل الآخـرين هم مـا هو إيجـابي. هيلدور هي الشخص الوحيد الذي كان يستطيع تجاهله. وكان يفيد من ذلك. إنها تكاد لاتكون موجودة. ليس لها أية سلطة، ولا يرتبط بها أي مجد. وماذا يكون الكائن البشري في هذه الشروط؟

كان شغوفاً بالسلطة والمجد، بالغزوات والثروات.

هو ذا، منذ ذلك الحين، عهد مظلم ومنذور للتعاظم، زمن تخمر. يمتزج، فيه، أكثر مما ينبغي من العناصر. كيف يتبين المرء الأمور ضمن هذا؟

ما يعرفه، وجده في أسبوعية مصورة. ولكن، ماذا يستطيع أن يفعل بها؟ إنه «كما هو» ما يخيل إليه أنه هو على الأقل.

يقال في الأسبوعية المصورة إنه توجد ذرات، يشرحون ما هي وإنها موجودة في كل مكان.

توقف مارتان مطولاً عند هذه الفكرة: موجودة في كل مكان. إنها موجودة في جويل وفي بول وفي الزهور، في كل شيء، في كل ما هو جميل وفي كل ما هو قبيح. ولكن، كيف يمكن، إذ ذاك، أن يكون كل شيء كما هو؟ مازال مارتان يؤمن بالله قليلاً، خاصة عندما تكون هناك عاصفة. في أثناء العواصف يتجمع الله، يكتسب كثافة، ويكون حاضراً. في البيوت، تتدحرج العاصفة على أرضية الأهراء ككرة ثقيلة من نار.

ربما كان الله، أيضاً، مصنوعاً من ذرات؟ حوالي نهاية الصيف، تحدثت الجريدة عن سدم. كان مارتان متردداً بين الذرات والسدم.

كان نظر مارتان ينصب، بعد ذلك الحين، على مدى أكثر بعداً في نفسه وفي ما حوله، فيما هو أعمق من «الحياة الجنسية» وأبعد من كاليفورنيا. في أعمق أعماق حياة كارلا الجنسية توجد ذرات. نعم، من الغريب أن تكون هناك ذرات. أوه! لا تكونوا، أنتم الراشدين، على هذا القدر من الثقة بأنفسكم. الأطفال يرون فيكم، «يتأملون» حولكم. إذا لم يكونوا متوحدين جداً، محرومين من الملاطفات، دون أية كلمة لطيفة، أبداً، فإنهم، عند ذلك، يدخلون إلى أفكاركم.

هل رأيتم ربيباً للبلدية مستغرقاً في تأملاته؟ إنه يتقدم ورؤوس أصابعه متجهة إلى الداخل، يخلط بين المزامير واللازمات، بين القش والجنس، بين العلف والمرأة. إنه يصنع من أكثر ما في المجلات الأسبوعية أخلاقية كتاباً يمكن أن يكون عنوانه «بيننا». ربيب البلدية لا يراكم، «يتأمل» في موضوعكم.

قريباً يتم مارتان السنة في نوردا، ومع ذلك فهو يكاد أن لا يكون قد رأى بول على الرغم من أن هذا الأخير قد ضربه ست مرات وربما سبعاً. لم يرَ، أيضاً، جويل ككائن بشري، ولا كارلا أو كلارا أو غونيلا إذ لم يرَ فيهنَّ سوى السلطة التي كانت لهنّ عليه والحياة الجنسية. لقد أمضى وقته في «التأمل».

في ذات يوم أحد، ذهب إلى الميتوديين الذين يسكنون على الأرض البراح. جاء ليرد إليهم «رحلة الحاج». في الطريق، صادف شيئاً لم يره، أبداً، حتى ذلك الحين، ولكنه سمع عنه. فقد التقى طالباً.

عن بعد، لمح الطالب، فعلاً، بعمرته البيضاء متخلعاً تماماً في مشيته، متعباً من دروسه إلى حد كان، معه، خيطي الشكل. كان يترنح كزهرة نرجس في الريح. تزايد اقترابا عبر منحنيات الدرب. قال:

- طاب يومك يا راعيّ الصغير!

قال مارتان وهو يرفع عمرته بقدر من الاحترام الوجل والتهذيب المتسرع إلى حد خجل الطالب منه. لم ينتبه إليه:

- طاب يومك.

قال الطالب:

- أعتقد أني ضللت الطريق.

كان يتكلم أكثر سويدية يمكن تخيلها تهذيباً، لغة آنق العواصم.

- هل يمكن أن تدلني على طريق لجونغتافان؟

فكر مارتان وفكر وقد أصابه الهلع. كيف يدعو مثل هذا الشخص؟ هل يكفي أن أناديه: أيها الطالب، كلا، ربما يجب أن أناديه سيدي الطالب.

- حسناً، إذا عاد سيدي الطالب على أعقابه ومشى ميلاً، ثم سلك أول طريق على يمينه، فإن سيدي الطالب سيصل إذ ذاك، مباشرة إلى لجونغتافان.

قال الطالب وهو يرفع عمرته البيضاء:

- شكراً، هذا ما أريد تماماً.

كان هناك خط وسط رأس الطالب، خط من عاج، ثم أعاد عمرته إلى رأسه. لاحظ مارتان شيئاً على مقدم العمرة. ذكره هذا بالأزرار التي تباع لمصلحة المعركة ضد مرض أبيه وإينيز، السل. فكر مارتان، فجأة،

في أنهما يرقدان في المقبرة. قبل زمن كان أبي غنياً إلى درجة كافية كما يقال. نبعت هذه الفكرة في رأس مارتان، وكان يريدها أن تمضي، ولكنها تشبثت، استماتت. لم يتحرك الطالب. كان يتأمل بانوراما الهضبة المغطاة بالخلنج.

ماذا لو قلت له ذلك لأرى؟ ماذا لو قلت له إني لست راعياً صغيراً كما يتخيل، بل إني شخص كان، ذات مرة، غنياً إلى حد كافٍ؟ كلا، هذا لايستحق العناء. فسوف ينبغي، إذ ذاك، أن أشرح له كيف ساءت الأمور. فلندع ذلك. إنهما يرقدان في المقبرة.

انحنى الطالب ليقطف عود خلنج. نظر إلى هذا العود.

جال بنظرة سمحاء لصديق للطبيعة على امتداد الخلنج الجميل الذي يبلغ حوالي عشرة كيلومترات. قال مارتان وقد أسعده أن يعرف شيئاً ما حول هذا الموضوع، أن تكون لديه إجابات يعطيها أو معلومات:

- نعم، أرض براح جميلة (نحى كلمة «رائعة» جانباً ليستعملها فيما بعد). ولكنهم سوف يزرعون فيها أشجاراً، تنوباً وصنوبراً. هذا مؤسف.

- حقاً؟

- نعم هذا ما سوف نفعله. لدينا، فعلاً، اثنا عشر ألف شتلة في المشتل. استعمل ضمير جماعة المتكلم دون أن يلحظ ذلك. كان يتدثر بمعطف مسؤوليات الريف غير المرئي ويقول «نحن». وهذا الضمير ينطبق، أيضاً، على قسم من الكانتونات المجاورة.

- هذا ما سوف نفعله. ذات يوم، سيكون كل هذا غابة، غابة جميلة.

قال الطالب:

- يا للروعة، يا للروعة!

فهم مارتان أن أهل الشمال هؤلاء يتكلمون هكذا. قال:

- نعم، كل شيء سيزرع ويتغير هنا بين يوم وآخر. لقد زرعنا، من قبل، خمسمائة من هذه الشتلات في نورا وتافان.

قال الطالب:

- نعم.

وألقى نظرة على خريطته، خريطة الأركان وقال:

- سوف أذهب لأراها.

وفي لحظة ذهابه، مد يداً مثنية على شكل منقار غراب، وفي طرف المنقار قطعة خمسين أوراً.

نشبت، لأقل من ثانية، معركة في نفس مارتان بين الرغبة والكرم، بين المقاطعة والصبي، بين نحن وأنا. قال:

- كلا، شكراً. لم أفعل شيئاً، لايجب أن تعطيني شيئاً.

ابتسم الطالب. ذهبت قطعة الخمسين أوراً إلى جيبه. وقال تاركاً منقار الغراب ينفتح ليصافح مارتان:

- إذن شكراً

ردت المقاطعة:

- عفواً.

رحل الطالب. نظر إلى الأرض وابتسم لنفسه بصمت، على نمط أوبسالا. تعليق صغير حول الأعماق الشعبية، ثم ابتعد بمشية لبقة، محنياً من جراء الدروس، وابتعد على الأرض البراح بخطا مترددة. بقي

مارتان في مكانه ونظر إليه وهو يمضي.

قال في نفسه: لقد جرت الأمور على ما يرام، تماماً كما يقول عمدة مدينة صغيرة بعد مرور الملك: جرت الأمور على ما يرام. شعر بأنه تنفس نفحة السويد الكبيرة التي جاءت حتى جوار نوردا.

تلاشى الطيف هناك، على الأرض البراح. كان الطالب يتمايل على زرقة الأفق كباقة مقنزعات.

وعندما وصل إلى الدرب وانعطف يميناً، اختفى انعكاس عمرته فجأة كزر من صدف ألقي به جانباً. استأنف مارتان سيره المتوقف. من بعيد، كان يخيل للمرء أن شموساً كبيرة تضيء بيت الميتوديين. كان الدرب ينحدر في الخلنج الأزرق كساقية مائلة للرمادي. لدى كل خطوة، كانت الحشرات الطنانة المزعوجة تطن وتطير قليلاً في الجزة القصيرة. لم يعد مارتان يتقدم، الآن، كما لو كان ذاهباً إلى ما لا يدري من مقاطعات بعيدة. الأمر الآن هو كما لو أنه كان في بلد أزلية. فكر في أن الأمر يجب أن يكون هكذا عندما يموت الإنسان: السير على غطاء طنانات دون نهاية.

أصبح، الآن، قريباً من البيت المنخفض، ولكن نفوس الميتوديين لم تكن على النوافذ. كان هناك، فقط، أصيصا زهور ليقولا: فليحم الله منزلنا. كان هناك قط جالس على السلم. لقد أتى على أكل لحم نيء، وهذا يخمن من عينيه الملونتين بلون الطحلب الأخضر. كان فروه أبيض ناصعاً. كان كقط الصور الوديع الذي يمسك بين قوائمه بكبة صوف كانت، كحبل سحري، تربطه بتلك التي تسود في الكوخ وتجلس وجوارب تسقط من جديد، بصمت، من يديها اللتين كانتا تمضيان على

ايقاع الساعة وعقاربها الموجهة نحو النقاط الأصلية الأربع.

قرع مارتان الباب. كان باباً متيناً سمرت، فيه، ألواح عرضية على الألواح الطولية. قيل من الداخل:

- ادخل

ضغط، وهو يدير المفتاح، «رحلة الحاج» تحت ذراعه اليسرى. فتح الباب نحو الداخل. اكتشف مارتان مدخلاً ضيقاً صفت فيه قباقيب الميتوديين في انتظار الاثنين. كان الباب الأخير منفرجاً. دخل، وصر الباب صريراً ضعيفاً في سكينة المكان. لم يكن، اليوم، محشوراً بقبقابه الصاخب. فقد جاء حافياً. سحب البابين وراءه. مد ذراعه، أولاً، من خلال مشروع المدخل ليغلق الباب الخارجي، ثم الباب الداخلي المطلي بالأبيض.

كانت مس جوهانسون وحدها. يالها من فرصة، ياللروعة، كما يقول الطالب.

كانت مس جوهانسون واقفة في أقصى الغرفة عند حافة السجادة كامرأة مقياس الضغط على لوحها الصغير المتحرك. كانت مس جوهانسون ممشوقة القامة وتضع على عينيها نظارتين لامعتين كساعتين - ساعتين ذهبيتين من جراء الشمس. وكان شعاع الشمس نفسه يقسم جسدها إلى قسمين الفاتح والداكن. كان شعرها قصيراً، لم تكن قد تركته ينمو بعد. وكان فرق شعرها على الشمال مثل صبي. قال مارتان:

- نهارك سعيد

خلع عمرته ومرر يده في شعره. كان يجب عليه أن يمشطه. فشعره كثيف كثافة الخلنج.

هتفت مس جوهانسون بلطف كاشفة عن ثلاثة أسنان، من بين أسنان أخرى، متلألئة مثل ألاسكا:

- اجلس هنا.

لقد أتت من جبال الشلالات. وحتى لو كانت الجبال الصخرية تعج بالذرات، فإن جبال الشلالات هي، مع ذلك، التي أتت منها، من منطقة ذات جمال طبيعي كبير.

جلس مارتان بشكل أخرق على حافة كرسي. لقد استعاد خجله، فهو لا يتفاخر إلا عندما يكون وحده.

لقد سمع كلاماً عن الصالونات الأنيقة. إن حياءه قد يخنقه في هذه الصالونات. قد يموت فيها. الأرضية في هذه الصالونات كمرآة وزلقة إلى حد أن المرء قد يجد نفسه، معه، بانزلاقة واحدة وسط كونتات وكونتيسات. ولكن، من يجرؤ على مثل هذه الانزلاقة؟ كلا، سيموت المرء من ذلك حياء. سيكون القلب كطائر كناري يقفز من محط إلى آخر في قفص الشعور. لن يجرؤ، أبداً، على المغامرة فوق الأرضية الزلقة. حتى هنا، أمام مس جوهانسون، لدى الميتوديين، يخفق القلب مستسلماً. ولكن هذا يجب أن يكون لأنها آتية من جبال الشلالات.

- جئت... أرد... هذا الكتاب.

تقدم، مد الكتاب ثم انتظر. قالت - حسناً! جيد جداً.

وبيديها البيضاوين، النحيلتين والخاليتين من الخطيئة، يدي جبال الشلالات، أخذت الكتاب بروحية ميتودية وتفحصت وجهيه وظهره، ثم دسته في المكتبة الصغيرة إلى جانب الكتاب المقدس.

عندما فتحت فمها من جديد، كانت روح مارتان هي التي توجهت إليها.

كل مـا تقـوله يـجب أن يتـرجم، أولاً، إلى لغـة النفـوس، إلى لغـة وعـالم لا توجـد، فـيهمـا، أجسـاد كـتلك التي رسـمها روبنز ونشـرت في الأسبوعية المصورة. ذلك أن في مثل هذه الأجساد أعضاء تعطي نصيباً من السعادة وتسعة أنصبة جحيم وتغوص جذورها في أعماق الضمير. جسد كارلا واحد من هذه الأجساد. لايمكن أن يرى، على الصورة، كيف تكون وهي عارية. لم تعد في حاجة إلى أن تتعرى، فكل شيء معروف سلفاً.

للرجال، أيضاً، أجساد تضايقهم وتثقل عليهم. وللأطفال أجساد أيضاً، وهم يكتشفون وجود أجسادهم ويحسون قليلاً من الفرح والكثير من القنوط.

إنها أجساد تذهب إلى الحرب وتقتل أجساداً أخرى. الأجساد ترمى في قبور. ذرات الأسبوعية المصورة موجودة، أيضاً، في هذه القبور التي تتحلل، فيها، الأجساد. فيمكن، إذن، الاستغناء، بعد ذلك، عن كتاب «بيننا». ذلك أن هناك يوجد ما يسمى الموت.

النفس، بالمقابل، ستار يرافق، على ما يقال، الجسد تقريباً منذ اليوم الذي يظهر فيه من بين الساقين المتباعدتين للأم التي، هي نفسها، جسد حتى اليوم الذي يودع، فيه، الجسد في نعش ويكف، إلى الأبد، عن أن يكون جسداً. عن النفس والله يقال إنهما «معجزتان تتجاوزان كل عقل». هذا شيء قرأته غونيلا بصوت مرتفع، ذات مرة، في «تأملات ليوم الرب». كان جسدها الضخم جالساً في إحدى زوايا المطبخ الكبير. وكانت قد قرأت ما قيل منذ قليل حول النفس، وكان جسد كارلا جالساً إلى جانبها.

وفي ذات مساء، تحدثوا عن الطاعون. (جويل كان مستنفراً، وكان بول قد ذهب إلى المدينة من أجل نزاع حول حدود الأراضي، وكانت القضية ستعرض في الغد أمام المحكمة، وكان ينبغي أن يكون حاضراً في الوقت المطلوب. فكانت النساء والأطفال وربيبا البلدية وحدهم، إذن، في البيت ليلاً، وكانوا يتحدثون عن الطاعون). كانوا يخشون عودة الطاعون. كان يمكن أن يعود مرة أخرى إلى العالم كما كانوا يقولون.

روت غونيلا أسطورة الجرس المغطى بالطحلب الذي كان قد عثر عليه في الغابة ذات مرة. تهاوت الكنيسة الخشبية منخورة، ولكن الجرس مازال هناك مثل كأس عملاقة ومغطاة بالطحلب في المكان الذي اكتسح، فيه، الطاعون، كل شيء.

وبقدر ما كانت غونيلا تتكلم، كانت أجسادهم تترنح ووصلوا، جميعاً، إلى أفكار منهكة. استولى عليهم الذعر من فكرة لغز الموت وبؤس الزمان القادم.

كان قد حل الليل، تقريباً، في المطبخ. كانوا جالسين ينظرون إلى هبوط الغسق. كانت نار الفرن تشع من خلال الشقوق بخطوط حمراء ومتلألئة، وكانت تضيء الوجوه، هنا وهناك، وتتوقف عندها. استولت على أذهانهم أقتم التخيلات. كان يمكن أن يقال إنهم أعضاء طائفة متجمعون حول فكرة الموت يصغون إلى صوت غونيلا الخفيض غير النقي يرتل.

خطرت لمارتان فكرة. كل من كانوا هناك أموات. كانوا قد ماتوا، من قبل، بالطاعون.

وعندما انتهت غونيلا من روايتها، وعندما انتهى الآخرون من

ردودهم بأصوات صماء ومتواضعة أمام الليل، حافظوا على الصمت برهة. كانوا يسمعون الريح التي كانت تدخل من الخارج إلى الأشجار وصفيح سدادة الفرن الذي كان يصفر بضعف كما لو كان ذلك لمناداة كلب. كان فك الخيال الثقيل يبتلع أفكارهم. كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً مستغرقين في أعماق القبور واللغز: لغز شيء ما يأتي ويرحل من جديد في زمن الأزمنة. رأى مارتان غونيلا تضع رأسها بين يديها. كانت جدائلها الطويلة السوداء كالفحم تقع على ركبتيها مثل سمكات انقليس.

لعق مارتان شفتيه. كان جالساً علي كرسي أحد التوائم. اقترب به من كارلا. كان الخوف هو الذي يدفعه إلى مزيد من التقرب منها. وحتى في هذه الحالة، لم يستطع أن يحتفظ بأفكاره لنفسه. قال:

- ربما كنا جميعنا أمواتاً. بموتنا غادرنا حياة.. بموتنا ندخل حياة. كنا نموت ونموت ونموت. أوه! أوه!

تشبث بركبتي كارلا وقد استولت عليه هستيريا، وأخذت هيلدور تبكي هي أيضاً. صدت كارلا مارتان الذي انهار ثقيلاً على الأرض. بقي هناك، يزحف محاولاً الامساك بعقبي كارلا.

هتفت به قائلة:

- دعني أيها الغلام القذر، دعني!

دفعته بقدمها بقسوة، وتكوم على نفسه.

صاحت كارلا:

- اشعلوا مصباحاً! اشعلوا مصباحاً!

قالت غونيلا:

- يا إلهي! ماذا هناك؟ ماذا هناك؟

قالت كارلا فزعة:

- لا أدري.

كانوا مرتبكين، يلهثون ويستثيرون همم بعضهم بعضاً.

عند ذلك، أشعلت كلارا، في الزاوية التي كانت فيها، عود ثقاب. مشت نحو الطاولة بحرص من أجل أن لا ينطفئ العود. رفعت بلورة المصباح وأشعلته قائلة:

- ماذا هناك؟ يجب أن أكون قد نمت على كرسيي. هل حدث شيء؟

قالت كارلا:

- لا، لم يحدث شيء.

وكالت لمارتان صفعة دوت في دائرة الضوء. هتفت كلارا قائلة:

- يالك من بغي قذرة! تضربين طفلاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه!

قالت كارلا:

- اخرسي! كنت نائمة.

وقالت غونيلا متحمسة:

- هو ذاك.

كانت ما تزال تلهث. كان صدرها المهيب ينتفخ إلى حد يمكن، معه، أن يمزق القميص. قالت كلارا:

- معكم، يفضل المرء أن ينام.

هكذا انتهى حفل الخيالات مع ضوء المصباح في الصمت الذي غطى دموع مارتان الصامتة، هي نفسها، وغمغمات كارلا. وضعت هيلدور، شريكة كلارا البكماء، الأطباق لحساء المساء.

هذه السهرة انبثقت، من جديد، كاملة، أمام عيني مارتان وهو يقف أمام مس جوهانسون في ضوء النهار المشمس. مس جوهانسون تتحدث إلى نفسه ولا تنظر إلا إلى نفسه وتريد أن ينظر إليها، هي ذاتها، كنفس.

- اليوم، لن تكون ملزماً باستعارة كتب. سأعطيك ما تقرؤه.

- شكراً.

كانت عيون نفس مس جوهانسون العطوف مركزة على مارتان الذي أصبح، نوعاً ما، جزءاً من هذه النفس.

- ياصغيري، مصير النفس يتجاوز كل المصائر الأخرى. عندما كنت أعمل في إرسالية اندرابوترا، قتلت ثلاثة من صبياننا الهنود لدغات كوبرا. ولكن هذا لم يكن سوى موتهم الجسدي. أرواحهم بقيت بعدهم وتتأهب كي تفعل شيئاً آخر حالاً. الموت غير موجود، حتى ولو سببته لدغات كوبرا، لدى من يؤمن.

قال مارتان:

- هل أستطيع أن أجلس لحظة؟

قالت:

- أرجوك، تفضل.

عاد مارتان إلى الجلوس، بكل راحة هذه المرة. كان خجله قد زال بكامله تقريباً، وقلبه يخفق دون مبالغة.

سأل قائلاً:

- كيف جرى هذا عندما لدغتهم الكوبرا؟

كان يسأل بذهن قاس وصاف معنياً، فقط، بأفاعي الكوبرا التي

تنزلق، في فحيح، عبر قضبان خيزران اندرابوترا.

فرك يديه بالمقعد ووجد تحت أظافره انتفاخاً في الطلاء أخذ يستكشفه بظفر إبهامه.

- اروي لي كيف جرى ذلك؟

كانت مس جوهانسون تنظر بلطف ووقار إلى مارتان. وكانت تتأمل، بتعصب ساذج ولطيف، هذه النفس التي كان مارتان يعيرها صوتاً أرضياً. قالت:

- كيف جرى ذلك، إنه شأن الله. دروب غير قابلة للفهم، وكلها تسهم في هدفه. اسألني، بالأحرى، إذا كانوا قد وجدوا الله، مخلصهم.

كانت يداها، وهي تتكلم، على كتفيها النحيلين وذراعاها متصالبتان أمام صليب جسدها ومرفقاها متجهان إلى الأمام. استأنفت مس جوهانسون كلامها قائلة.

- اطرح علي اسئلة حول النفس وليس حول الكوبرا.

تنهد مارتان مضطرباً وقال:

- نعم.

قال في نفسه إن الذرات موجودة فيها أيضاً ورغب في الرحيل. نهض عن كرسيه وهو يسحق عمرته بيده. وقال:

- نعم، هذا غريب.

لم يخطر له كلام آخر. حل صمت قصير. كانت ذراعا مس جوهانسون ماتزالان متصالبتين ويداها البيضاوان على كتفيها. قال مارتان:

- أعتقد أنه يجب أن أعود. سوف يتساءلون عن مكان وجودي.

سحبت يديها من على كتفيها، وبدت تذكر بكلب صيد هزيل.
قالت بصوت معلمة مدرسة:
- نعم. إذا كانوا يتساءلون أين أنت، فيجب أن تعود.
ثم قالت وهي تقترب من المكتبة:
- ولكني سوف أعطيك، أولاً، ما تقرؤه. إنها ترجمات صغيرة أجريتها عن مبشر يدعى وارد يعمل في أوغندا.
عددت العناوين وقالت:
- هناك ست منها يا بنيّ
تلقى من يدي مس جوهانسون الكراسات الست الصغيرة
- اقرأها! سوف تفسر لك أشياء كثيرة مبهمة في ذهنك.
اجتاز مارتان الغرفة والنشرات تحت ذراعه. قال:
- حسناً، شكراً جزيلاً، إلى اللقاء.
- لا تشكرني. اشكر الله ومخلصنا.
أعادت اغلاق الباب وراءه ببطء. بعد بضع لحظات، كان، من جديد على الأرض البراح التي سوف تتحول، قريباً، إلى غابة.
وضع، فيها، النشرات تحت حجر بقيت هناك تتعفن على طول السنين. كان المطر، وكان الثلج، وعادت النشرات، من جديد، سيلولوزاً أبيض متورماً ومنفوخاً ماء. وكانت رياح البحر البعيد التي جاءت تصفر كآبتها التي لا تنطفئ بين باقات الخلنج المرتعشة والشتلات المنقولة إلى هناك لتصبح، فيه، أشجاراً.

جويل الذي عُبئ في حرس السواحل، كان من جديد، في إجازة. كانوا، في نهاية الصيف المريّحة هذه، يدخلون المحصول. كانت الريح تهب قوية في حمولات القمح، والكومات في الحقول مقلوبة، وحزم كاملة تتهاوى كجنود تحت نيران الرشاشات. في أوروبا، كانت الصحف تتحدث عن معارك متزايدة العنف. كان أهل الأكواخ المتداعية يأتون لإنجاز أيام عملهم، وكانت أقوالهم صدى لما كانوا يقرؤونه. كان ينبغي عليهم، بسبب عنف الريح، أن يصرخوا ويكرروا الأقوال نفسها. وبما أن ذلك كان ينهكهم، انتهوا إلى موضوعات أشد قرباً منهم منقطعين عن الزعيق بتأكيداتهم في الريح الجامحة.

- يا للشيطان! لم نسمع بعضنا بعضاً مع كل هذه الريح.

كانت كارلا هناك أيضاً. كانت تذهب إلى الحقول، وكانت الأقوى. الريح، وحدها، كانت أقوى منها. كانت ترفع تنورتها صانعة منها راية للهوى، وكان فخذاها يتلألآن في هبة الريح. كانت تنتصب، تسوطها الريح كدمية عملاقة في حالة يأس، وفخذاها معروضان للريح. كانت تصرخ:

- ياله من خراء!

كان عسلاً لكل الذين لم يكونوا يفكرون إلا في الجسد. وقت الحصاد هذا هو الذي حملت، فيه، من جديد. عندما تبينت ذلك، أصبح

طبعها أقسى من أي وقت مضى. ضحكتها المتكاسلة التي كانت وسيلتها في الدفاع عن نفسها زالت هي ذاتها. كان مارتان يتلقى صفعات قوية لدى أدنى مبرر أو دون مبرر بالمرة. لم تعد تدعوه «صغيرتي»، كانت تكرهه وتضطهده بوصفه صبياً، كانت تهتف به قائلة:

- يالك من أخرق! ليس هذا المكان هو الذي ستدلل فيه.

غالباً ما كان مارتان يبكي متسائلاً لماذا لم يكن يكرهها. كانت هي أكثر من ضربه في نوردا. كلارا لم تضربه أبداً.

ذات مرة دخل المطبخ دون أن يرى. كانت كلارا جالسة فيه محاولة أن تستخلص بعض النغمات من هارمونيكا مارتان. أعادت الهارمونيكا كما لو كانت قد خجلت. قالت:

- يجب أن يكون فيه بعض الخطأ. حاولت أن أستخلص منه بعض النوطات إلا أنه يجب أن أكون غير موهوبة.

في مساء أحد أيام الآحاد، وفي حين كانوا يدخلون المحصول، عاد جويل إلى البيت. كان مارتان في الزريبة يطعم الجياد. كان جويل ثملاً. تعثر بحجارة ممشى الزريبة الزلقة المستديرة. كانت إحدى عينيه متورمة ومحتقنة بالدم.

مارتان الذي فهم أن شيئاً قد جرى، اقترب، غريزياً، من الباب. عندما وضع ابهامه على المزلاج، أمسك جويل بكتفيه وألقى به أرضاً.

- لماذا ذهبت إلى خدم أوكنسجو وقلت لهم إني اتصرف كنذل؟ أجب!

ركل مارتان الذي قام وحاول الهرب من فرجة في العلف. كان أكثر ذعراً من أن يصرخ.

أصبح جويل فوقه في لحظة. رفعه من شعره مثبتاً إياه في هذه الوضعية. كانت عينا مارتان المرعوب جامدتين. كان ما يزال عاجزاً عن الصراخ. ويداه، في ذعره الأبكم، تتلمسان أمامه. حاول أن يخنق جويل. صرخ جويل:

- حسناً أيها الوغد! الأمر هكذا إذن؟

وضربه بالجدار.

كان كل شيء أسود، حل هدوء كبير، كل شيء انتهى.

عندما استعاد مارتان وعيه، أحس بالدم يسيل من جبينه. كان مجروحاً فوق عينه اليمنى، كان جرحاً رديئاً، كان يؤلمه، حدبة دامية.

عندما نهض التفتت الخيول إليه. كانت مارتان هادئاً، وكان صمته نذير سوء. كانت الخيول تسمعه، عادة، يشتم أو يتحدث وحيداً عن المستقبل أو يغني.

في هذه اللحظة، لم يكن يغني ولا يفكر في المستقبل.

دخل إلى غرفة الخدم التي كان لها مدخل من الزريبة والتي كانت غير مسكونة. مر بيده، بصورة عمياء، فوق الرفوف المغبرة والفارغة. نعم كانت هناك علبة.

أخذها وعاد إلى الزريبة. كان يصغي، وهو سائر، إلى أعواد الثقاب القليلة تتحرك في العلبة. قال: سوف أفك الجياد أولاً. وشرع في ذلك:

فتح باب الزريبة. ثم حرر الخيول. خرجت في صف، ثلاثة حيوانات كبيرة ومهيبة. كانت حوافرها تدوي على ممشى الحجارة المستديرة. ظنت نفسها في ساعة الشرب، وانحدرت نحو الساقية. عندما وصلت إلى

البـوابة، وقـفت وأدارت نحـو مـارتان رؤوسـهـا المرهقـة منتظرة أن يأتي ليفتح.

بقي عند عـتبة الزريبة وعـيناه على الهـضبة التي كـان الخريف يعلن عن نفسه، فـيها، من قبل، بورقـتين أو ثلاث مصفرّة كانت تـلمع في فترة نهـاية الصـيف. طار عـقـعق من شـجـرة مـغث فـوق النهـر الصـغـيـر، ثم اختفى، خافقاً بجناحيه، كوميض أسود وأبيض، مزيج مذعور من ملابس داخليـة بيـضـاء وثوب حـداد. كـانت الخـيـول تـنتظر عند البـوابـة، تكدف بحوافرها. بدأت تعض البوابة بأسنانها الطويلة الصفراء، نافدة الصبر.

ذهب مـارتان وفتح لهـا. استـأنفت الخيول سـيـرها إلى السـاقـية. كـان يتبعها بخطا بطيئة.

عندمـا ارتوت، ظلت في مكانهـا برهة، وبدا عليـهـا أنها تـفكر في صفاء أوائل أيام الخريف. ثم شربت من جديد. شربت عـدة مرات. سـحب مـارتان شـيـئـاً مـن جـيـبـه. تراجع الحـصـان الأرديني وغـاص بقـائمـتـيـه الأمـامـيـتين في الأرض. مـاذا كـان هذا الشيء الفاتح الذي مـر من خلال الهواء؟ ورقـة علبة الكبريت الصفراء. هدأ الأرديني عندمـا رأى دوارات السـاقـية تأخذ العلبة، وشرب مرة أخرى. اصطدمت العلبة الصفراء بنبتة مائية صغيرة، وحملتها دوارة التيار، ثم مضت تحت شجيرات المغث.

ترك مـارتان الخـيـول تـتـقلب على العـشب مـا وراء البـوابة. كـان ينتظرها. كـانت أجـسـامـهـا الثـقـيـلة تسـحق الأرض تحـتـهـا. كـانت تضم سـيـقانهـا إلى أجـسـادها وترفع حوافرها نحو السـمـاء كأخـتـام مـفـضـضـة. كانت الحوافر تدور نحو الغرب، نحو الشرق، تنفذ دورة. ثم وقفت الخيول متثاقلة، مرتعشة، و حمحمت.

ثم استأنفت طريقها إلى الزريبة. كانت تمضي بليدة، ولكن حوافرها كانت تفرقع بقوة على ممشى الحجارة المستديرة. وأخيراً، عادت إلى مرابطها. ربطها مارتان، واحداً بعد الآخر، رابتاً على صدورها. كان أحدها يعاني جرحاً سببه الطوق. كان ذباب الخريف يتوقف عند قار الجرح.

بهدوء، أعاد مارتان إغلاق باب الزريبة ومضى. مشى ببطء كما لو لم يكن متعجلاً للوصول إلى أي مكان. بين حين وآخر، كان يلتفت كما لو كان ليرى وراءه. إلا أنه لم يكن ينظر خلفه.

هذا هو الربيع من جديد، وهو قد كبر.

بعد ساعة بدؤوا ينادون مارتان. أطلقت كارلا النداءات قرب الساقية المحدودة بالمغث. تقدمت حتى سنديانة عمرها خمسمائة سنة كانت تضج وتتلوى في الريح، سنديانة الزاغات. في الساقية، وعند أسفل قبقاب كارلا، دارت علبة كبريت حول نفسها وقد جرها دوار.

مضت كارلا في اتجاه آخر وأطلقت نداءات جديدة مطولاً. وسرعان ما أصبح صوتها غاضباً. هددت. ولكنه لم يكن هناك حتى صدى. فمارتان قد اختفى.

عادت كارلا مبرطمة.

مأوى من حجر

لأنه هرب، أرسل، عام ١٩١٦، إلى مأوى من حجر بني عام ١٩١٢.

كان عمره، الآن، إحدى عشرة سنة ونصف السنة، وكان قد كبر خلال سنة بحيث لم يعد أحد يستطيع أن يعامله كصبي. كانت البلدية قد حددت يوم وصوله إلى المأوى. إلا أنه كان عليه، لأن أحداً لم يكن ينتظره في المحطة، أن يجد طريقه بوسائله الخاصة. لم يكن ذلك صعباً. فالمأوى كان في طرف القرية: بناء ضخم من الصوان طليت واجهته، كاملة، باللون الأبيض - ومن أجل ذلك كانت خشنة كجلد نجمة بحر وذات عقد كعرموش. كان للبيت أربع طبقات، وكان أوسع مسكن رآه مارتان. كان يفلت من مدخنتين دخان بلدي مسود كان يصنع نفثات قاتمة قتامة نفثات مصنع هجولفورز تقريباً. كان البيت يكبر كلما تقدم مارتان. اجتاز السياج الحديدي. كان يبدو كما لو أنه حيك بالصنارة بقضبان حديد بدلاً من الصوف. ما بعد هذا السياج، كان مدخل مفروش بالحصى في سعة الطريق يرسم حرف S ويؤدي إلى المأوى. كل شيء هنا كان هائلاً. جازف مارتان بسلوك المشى. كان الحصى يصر تحت قدميه. كان المسكن يقترب. رفع مارتان عينيه نحو الطلاء. كان هناك في الأعلى، وفي الوسط تاريخ البناء: ١٩١٢. في اللحظة نفسها، بصق أحدهم من الطابق الرابع، من هذا الارتفاع الباعث على الدوار، كما لو

كان الأمر مزحة. نظر مارتان باحترام إلى البصقة تنسحق كنجمة وتبين أن السقوط قد أخذ بعض الوقت.

كان، هو نفسه، قد تجمد حاملاً حقيبته القشية الصغيرة وسط حرف S العملاق. تساءل عن المدخل الذي يجب أن يسلكه. لم يكن البيت يشبه أياً من تلك التي كان قد اعتاد رؤيتها. لم تكن هناك شرفة بزجاج ملون في المقدمة للدلالة على مدخل المناسبات الكبرى. لم يكن يوجد سوى ثلاثة سلالم اسمنتية مهيبة كانت كلها متماثلة. أيها يصعد؟ لم يكن العجائز مرئيين. كانوا متجمعين كنحلات شتوية في الخلية الحجرية. وتردد مارتان أمام هذا المدخل المثلث كسارق عسل ولكن ملكة النحل نبعت فجأة على المدخل المركزي وكانت في الحقيقة، كما كان قد توقع أن تكون: عملاقة.

كانت ترتدي مئزراً أبيض متجانساً مع الطلاء يغطي جسمها من كتفيها إلى عقبيها. كان لها أنف كبير وشعر أسود مرفوع على شكل ضفيرة فوق رأسها. ما كان أطولها! ولكنها لم تكن في طول كارلا. وكم كانت بيضاء! اقتربت من مارتان سائلة إياه عما إذا كان الصبي الجديد. اعترف بذلك، قائلا نعم بلهجة مترددة. عند ذلك نزلت على الدرجات وتمنت له يوماً طيباً. كانت تبدو لطيفة وممتلئة سلطة. اخطأ مارتان، وقد تجمد احتراماً، عدة مرات، قبضة حقيبته. كان يمسك بعمرته في يده ولم يعد يجرؤ على اعتمارها قبل أن يتلقى الأمر بذلك. لم تعطه الأمر، وتبعها إلى الداخل والعمرة ما زالت في يده. صعد السلم المركزي، المدخل الكبير كما علم فيما بعد. كانت غرفة الآنسة تقع على اليسار عند الدخول. طلبت منه أن يترك الحقيبة هناك: على اليمين، كان باب

المطبخ. ولكن غرفة الآنسة كانت أجمل مما ينبغي. ذهبا، وقد لاحظت الآنسة ذلك، إلى المطبخ فوراً. كان هذا الأخير كبيراً، وكانت الطاهية تدعى ماريا. كانت أقصر من الآنسة بكثير، وكانت تحضر العشاء: شحم خنزير مع مهروس اللفت. كان صخب المسنين يصل حتى ذلك المكان. تمنت ماريا لمارتان يوماً طيباً. ابتسمت الآنسة وربتت على كتفيه ربتة صغيرة. لاحظ يدها. وجد أن أظافرها طويلة، أطول مما ينبغي - على الرغم من أنها تترك في الصين أطول من ذلك أيضاً، كما قال لنفسه متذكراً صورة. فتحت الآنسة باباً آخر، أيضاً، دافعة مارتان، برفق، أمامها.

كانا في قاعة الطعام. كانت هذه الأخيرة في سعة كنيسة مع هارمونيوم في إحدى الزوايا. كانت هناك كمية لاتحصى من الأطباق. وكانت ضجة العجائز تصل من وراء الجدران. قالت الآنسة الطويلة:

- ما زالت هناك ساعة قبل العشاء. المائدة تحضّر قبله بوقت طويل. سيكون لديك وقت كي تستحم.

وقادت مارتان في ممشى طويل مظلم كان يمتد في اتجاه القرية. إذا مضى المرء إلى الأمام، فإنه قد يصل إليها تقريباً. صادفا في هذا الممشى أولئك المسنين. كان ذلك، بالنسبة لمارتان، بمثابة اكتشاف أقوام بدائية مجهولة تقريباً - ولكنه لمح، في الوقت نفسه، جون الأبدية من شمال البلدية. لقد تعرف عليه. كان مهندس الأبدية. عمله كان الآلات التي تسير وحدها خلال أبد الآبدين. ولكن جون، من جهته، لم يتعرف على مارتان. فتح باباً، واختفى خائفاً وصامتاً. من جديد، سمعت ضجة المسنين، ولكنها كانت تبدو آتية من أعلى - من الطوابق العليا في

البناء الباعث على الدوار. المسنون الذين كانوا في الممشى سكتوا وانزلقوا بصمت بأخفافهم اللبادية.

كانوا، جميعهم، يرتدون ملابس قاتمة باستثناء واحد كان يختال بصدارة حمراء وسلسلة ساعة فضية. هذا الأخير تأكد من الوقت ثلاث مرات في ساعته. هكذا سوف يعرف الصبي أنه يملك ساعة. حيت الآنسة هذا الرجل الذي سمته اندرس. قالت بصوت موسيقي:

- ماذا، إذن، يا اندرس؟

كانت تلك صورة مألوفة ولطيفة كما لو قيل: ايه، حسناً يا اندرس! كيف حالك؟ وساعتك؟ إنها على ما يرام، أيضاً، على ما أعتقد! لا تقصر؟

قال اندرس:

- لا بأس يا آنسة، الأمور كما يرام.

قالت الآنسة:

- جيد جداً.

كانت تلك من الكلمات التي تقال بحكم العادة.

تقدم، الآن، كل المسنين نحوهما. كانت الآنسة تعلوهم جميعاً كمنارة، وكانت تبرز، بمئزرها الأبيض على الجوخ والثوب الخشن كريش عقعق أبيض.

هتفت قائلة:

- ماذا أيها الرجال؟

كان الرجل ذو الصدارة الحمراء واقفاً في الوسط. لاشك في أنه تكلم، بسبب صدارته المتوهجة وسلسلة ساعته، باسم الآخرين:

- لا بأس، حالنا جيدة!

كان مارتان قد سمع ذلك من قبل. إنها، دائما، هذه الأقوال التي يجري التلفظ بها بحكم العادة. نظر إلى الصدارة الحمراء والسلسلة الفضية التي كانت من النيكل. فهم أن هذا الرجل كان شخصاً على حدة، ربما أكثر من على حدة، ربما كان جنرال المسنين. كان يحس، حياله، بعداء مبهم.

تابعت الآنسة جولتها على طول الممشى. اقتفى مارتان خطاها في ممشى لا نهاية له. من داخل إحدى الغرف، كان يصل صوت مطرقة صغيرة. كانت تلك الحركة الأزلية لجون الأبدية التي ما زالت تتمرد. تذكر مارتان كريستوفر بولهيم، المخترع الكبير الذي قرأ قصته. قال في نفسه، على طريقة عجوز صغير، إيه نعم، الحياة غريبة. إنها فكرة تخطر لك بسهولة، فكرة عادية. في آخر الممشى، فتحت الآنسة باباً ودفعت بمارتان إلى غرفة عارية. كان، فيها، كثير من علاقات الثياب ودكة للجلوس ومشمع تحت الدكة. في أقصى الغرفة كان الحمام الذي يسمع منه خرير. كان الصوت الجديد يمتزج بالضجة التي تخيل مارتان أنها ضجة المسنين. قالت الآنسة:

- الآن، ستخلع ثيابك وتدخل إلى هناك. (ثم، وقد تبين لها أن مارتان كان خائفاً قليلاً) سوف تسر، بالتأكيد، هنا.

بدأ يخلع ثيابه، ثم تدبر أمره، وقد استولى، عليه الحياء، كي يؤخر اللحظة التي سيكون، فيها، عارياً تماماً. كانت الآنسة ما تزال هناك. عند ذلك، وكي يكسب الوقت، أخذ يحك شعره وكتفيه. سألته الآنسة عما إذا كانت على جسمه حيوانات صغيرة. تردد لحظة متفحصاً هذه

الإمكانية والنتائج التي كان يمكن أن تكون لها. قال أخيراً:

- كـلا... لا أظن... أن لدي منهـا... كـلا... يجب أن أكـون نظيفاً...

صرحت قائلة:

- هذا جيد، نظيف وحسن الثياب.

نظيف وحسن الثيـاب! هذا، أيضـاً، شيء يقـال بحكم العـادة. هذا يعني أن للشخص ملابس مرقعة بشكل مناسب وأنه قد غسل أذنيه.

ما زال لا يجرؤ على التعري تماماً، ولم يعد، بعد ذلك، يستطيع أن يحك نفسه أيضاً. صمت طويل، ثم قالت الآنسة لإراحته بعد أن لاحظت ارتباكه:

- حسناً، سأذهب لآتي بلينا.

ثم مضت.

بقي على الدكة يفكر في مسألة العري. سوف يرونه عارياً، وهذا ما كان يشق عليه. ها هو حيي وخائف دون أن يعرف كيف حدث هذا له. يجب أن يكون ذلك لأنه... لأنه قد كبر... و ...

استجمع شجاعته وقرر أن يخلع ملابسه قبل مجيء لينا. لو انتظر لكان الأمر أسوأ.

ما كاد يخلع سرواله حتى كانت لينا تفتح الباب. كانت لينا أماً لأربعة أطفال يربون على نفقة البلدية. كانت حميراء وذات هيئة حازمة. قالت دون كلفة: طاب يومك، ليس عليك سوى أن تدخل.

وفتحت باب الحمام. دخل إليه مارتان مرتجفاً متبوعاً بلينا حالاً. قالت:

- حسناً، هيا، الماء جيد.

مرت بيدها في الماء محدثة موجات صغيرة في المغطس. مر مارتان فوق حافة المغطس، بكل الدقة وكل البطولة اللتين كان قادراً عليهما، وغاص بجسده الفتي في الماء. خرجت لينا لتجلب منشفة. عندما عادت، كان قد بدأ، من قبل، يألف الماء، يأخذ قبضات كاملة من الصابون الأسود ويجعله يرغي على ذراعيه وساقيه. كان الماء يفقد شفافيته. أمسكت لينا، بعزم، بالفرشاة ومررتها على جسده في كل الاتجاهات. كانت الفرشاة تخزه كقنفذ، ولكنها كانت تتلطف في الماء الفاتر. قالت:

- هيا. سنقلب، الآن، على بطننا من أجل أن نمسح الظهر.

مررت الفرشاة على ظهره، من القذال حتى العقبين.

- والآن، سننهض لأخذ دوش.

نهض، وقبل أن يستطيع أن يقول أوف، كان تحت الدوش. كانت لينا تمسك به بقوة من أجل أن لايهرب. كانت شلالات نياغارا تسيل عليه، وتسيل أيضاً. كان الماء يبرد. وبعد قليل، كان القطب الشمالي. أوي، أوي. قالت لينا تقلده:

- أوي! هذا هو ما يفيد.

قطب شمالي - اثنان - ثلاثة - أربعة - خمسة - ستة - سبعة - ثمانية.

ثم تركت مارتان الذي أفلت من يدها كالبرق.

ها هي، الآن، تلفه بمنشفة، وكانت له، وقد ارتدى كله بياضاً، هيئة شبح، وفركت لينا جسده وفركته.

- والآن، سوف نرتدي ملابسنا.

تركت لينا ماء المغطس يفرغ وخرجت بالسرعة التي كانت قد دخلت بها. كانت ملابس داخلية نظيفة قد وضعت على الدكة. ارتداها بعد لحظة تردد. وفي الدقيقة التالية، كان في المشى. لم يكن هناك أحد مرئي. أخذ يتمشى «مفكراً» بما جرى وما سوف يجري. فجأة، لاحظ أن الحياة كانت، بعد الحمام، مختلفة تماماً. لم يكن الحمام هو الذي كان قد خاف منه - هو الذي كان، على ضفة البحيرة، قد اعتاد على أن يغطس من أعلى الصنوبرة الكبيرة! كلا، إنه كان قد قاوم شيئاً آخر - دخوله في طور جديد من فتوته، التقاء دروب يصعب فهمها على الطفل الذي كانه، مأوى مسنين! كان على أهبة البكاء وأخذ يضحك. بعد الآن، أصبح شخصاً آخر.

لم يعد صبي أولاف توماسون الصغير من نيت ولا «يا صغيري». كلا، أصبح، بعد الآن، أصغر نزيل مأوى.

تقدم نحو قاعة الطعام. بصق في إحدى المباصق التي كانت على الأرض. كان نزيلاً بعد كل شيء. رن الجرس. أسرع النزلاء بتيبس الشيخوخة، نابعين من السلالم والأبواب. انضم إلى الحشد. كانت للعالم رائحة مهروس اللفت.

مرت أيام ولاحظ أن شيئاً لم يكن يتوافق. لم يكن للحياة التي كانت حياته حتى الآن كريبب للبلدية يغير المزرعة والمربي باستمرار أية علاقة بالسكينة الشاقة في مأوى المسنين هذا. قالت له الآنسة:

- الشتاء سيمر سريعاً. في النهار، ستذهب إلى المدرسة، وعندما يأتي الصيف، سنجد لك أسرة. ستذهب إلى مكان جيد جداً، سوف ترى!.

كانت تؤمن بالأماكن الجيدة لأنها كانت، دون شك، جيدة بما فيه الكفاية هي نفسها، الآنسة العملاقة. كانت قد دخلت، بمئزرها الأبيض، مئزر المديرة، حياته كستار أبيض رائع. عندما كانت تغيب، كان يتخيل أنه «عاشق» لها. كان وحيداً جداً في كومونة العالم الواسعة. وكان يبكي أحياناً.

في اليوم الخامس، أرسل إلى المدرسة، عندما عاد مساء، كان الصبيان الآخرون قد ضربوه. لم يكونوا يحبونه. كانوا يقولون إنه كان يختلس النظر إليهم. وفوق هذا، لم يكن لديه مزلاجان. فقد كان صعلوكاً. وبما أنه لم يكن لديه مزلاجان، فقد كان ينزلق على قبقابه، سموه «مارتان المنزلق». هذا اللقب هو الذي عاد به إلى «البيت».

كون المرء ربيب البلدية وجود لم يكن ينقصه التنويع، ولكنه ليس مسلياً. أحياناً تكون فوق، وتكون تحت أحياناً أخرى. كان للبلدية الحق في أن تضعك على الأرجوحة، وكان للجميع الحق في أن يدفعوا الأرجوحة. في نوردا، كانوا يقولون كيت وكيت، وكانوا، في فيلناس، يقولون ويأمرون على عكس ما كانوا يقولون ويفعلون في تولين. من كان يجب أن تصدق؟ ومع ذلك، فإن مارتان لم يذهب ليجد العزاء لدى الآنسة. كان يحس بأنه لم يكن يوجد عزاء. كان يجب انتظار سنوات المستقبل السعيدة، والتفكير كالنزلاء، في كل مرة يولد أو يموت، فيها، أحد: كل شيء في حينه. كان ينبغي التفكير بأكداس من الأشياء، وإلا فلن يخرج المرء منها أبداً.

غسل مارتان عينيه على حنفية المأوى الجديدة تماماً والتي كان لها شكل إجاصة. ثم خرج ونزل إلى ضفة النهر حيث ذوبان الجليد. قفز فوق

كتلة جليد وسرعان ما جاءت تصطدم بالضفة. عند ذلك، قفز فوق أخرى. كان ذلك مسلياً وخطراً. بهذه الطريقة، وصل إلى الطاحون. هناك، ركض برهة على أعمدة السد الزلقة بدرعها الجليدي. في هذه البرهة، خرج الطحان الذي كان مشغولاً بصيانة الطاحون من أجل الربيع ووبخ مارتان. من هذا الذي أرسل لي عديم النفع هذا الذي يلعب بسحاب الطاحون؟ عاد مارتان، إذ ذاك، ببطء إلى «البيت» وقبقابه في ثقل حزنه. على الشاطئ، التقى لود-لارس، وكان نزيلاً سموه «صرعة» بسبب مرضه وأخذ يحدثه عنه. ترافقا حتى باب المأوى، ثم بدأ المصروع يثور وحده إلى أن أصابته نوبة في الممشى وراح يتدحرج على الأرض. كان وجهه يزرق والزبد يظهر على فمه. ذهب مارتان وقرع باب الآنسة التي ظهرت، عملاقة بيضاء. نادت ايمانويل، الأبله الذي كان قوياً ولينا، امرأة المهمات. حملا، وحدهما، «صرعة» إلى قاعة الطعام حيث انتهت نوبته. كان ايمانويل يمزح. كان ذلك شائعاً، بالنسبة إليه. قادت الآنسة مارتان إلى الممشى وسألته عما إذا كانت الأمور قد جرت بصورة حسنة في المدرسة. قال مارتان:

- نعم تقريباً.

ثم عادت الآنسة إلى غرفتها. رآها مارتان تختفي - كانت قامتها الطويلة وتفاصيل جسدها المهيبة تملؤه احتراماً. كان خائفاً منها وبقي، في الوقت نفسه، سراً، «عاشقاً» لها. كان فمه جافاً، وروحه الممزقة تبدو له مليئة بكل أشواك الجحيم.

كان كل شيء يجري هكذا في المأوى. كل شيء كان يجري، فيه، كما يلي: يدخل أحدهم، مصروع، أبله أو معتوه، وهؤلاء النزلاء -

المصروعون والبلهاء والمعتوهون - يقولون شيئاً، يفعلون شيئاً، ثم يذهبون. هكذا انقضى هذا الشتاء من عمر مارتان، أحياناً في المدرسة حيث كان هزأة الصف، وأحياناً أخرى في ممشيي المأوى، ممشى الرجال وممشى النساء.

كان ممشى النساء في طول ممشى الرجال بالضبط، وهناك كانت تروح وتجيء، طيلة اليوم، إليدا القلقة، غريقة الدين التي كانت، منذ عمر السادسة والعشرين، قد اقترنت بجنونها. كانت، في الواقع، معتوهة وكانت فريسة لنوبات تدوم خمسة أيام في الشهر – حوالي برهة دورتها الشهرية عامة. كانت تحبس، آنذاك، في زنزانة في آخر ممشى النساء. كان مارتان يذهب، أحياناً، يصغي عند الباب. كانت تطلق صرخات طويلة يخيل للمرء أنها زوابع ثلجية وتبكي بانتحابات ثقيلة، كثيفة وكما لو كانت مشعرة بحيث يظن أنها كانت تختنق تحت كمية من الصوف. كانت تخرج بعد مرور العاصفة. ولكن الاضطراب كان يستمر أحياناً، وكان يصعب تحملها أيضاً. كان يتفق لها أن تجرفها العاصفة التي كانت تحضنها حتى في وسط فترة هدوئها. كانت تصرّح للذين تلقاهم في طريقها قائلة:

– احذروا سهام الشيطان الملتهبة، الشيطان الذي يطير نهاراً، واحذروا عرباته السود التي تجري في الليل.

كان لها ابن في السابعة من عمره، لينار، كان يأتي لرؤيتها. كانت تقول له:

– لينار، يا صبيي، ماما في حال أسوأ من حالها في السنة الماضية. توقف عن المجيء لرؤية ماما، ماما ليست في حالة جيدة.

كانت تقول له هذا واقفة على مسافة بضعة أمتار منه جامدة، وكان لينار يذهب باكياً. كانت الآنسة تعنى به، كانت تعزيه، تقدم له قطع بسكويت.

هكذا كانت الحياة، هذا ما كان يجري. كان مارتان، ربيب البلدية يسكن المأوى وينظر كيف كانت الحياة فيه.

آنا الهضبة كانت صخرة المأوى. كانت، فيه، القديس بطرس والقديس بولس والقديسة بريجيت كسيحة الآلام. كانت، وهي، نفسها، نزيلة، تعنى بنزلاء آخرين - صلبة كألواح الشريعة، عذبة كالخلنج، وليس كالصوف أو الوبر. في المرة الأولى، التقاها مارتان في ممشى المأوى، كانت تحمل حوض مريضة وتتكئ، باليد اليسرى، على عكاز. وقفت ثابتة أمامه وبدأت معه حالاً. ما الذي كان يعرفه عن الله؟

أجاب مارتان بتعابير مراوغة. عند ذلك، انتقلت إلى الهجوم. كانت تؤمن بالله كما لو كان ايماناً مصنوعاً من صوان، راسخاً ولا يفنى، كجبل سيناء. من يشك، كانت تضربه بالعصا باسم الله. هكذا كانت.

كانوا يسمونها آنا الهضبة لأنها كانت قد أمضت حياتها في أحد هذه الأكواخ المتداعية، النموذجية في الريف والتي تغوص حتى منتصفها في هضبة أراضٍ خاوية. كانت تعرف كل شيء عن بيوت الفقراء وتبشر بقدر البسطاء الراسخ: العمل، السهر، الصلاة.

الضجة التي كانت تحدثها، وهي تذرع الممشى، لم تكن صوت عكازها فقط لأنها كانت، هي نفسها، بصلابة عودها المهيبة وإيمانها الذي يحرك الجبال، مثل قصف الرعد. كانت الصرامة والثقة تلمعان في

عينيها الرماديتين كالفولاذ والمنهكتين من كل ما رأته في سبعين عاماً.

يمكن أن يقال إنها اهتمت بمارتان منذ وصوله إلى المأوى إذا لم يكن الاهتمام بشيء أو بشخص تعبيراً أضعف مما ينبغي في حالتها. كلا، لم تكن تهتم بالناس، كانت متطلبة حيالهم. كانت تتطلب، باسم السلطة التي عهد الله بها إليها، أن يصلي كل واحد ويتأمل ويعمل في مملكة المسيح الحية. كانت تعمل في كل مكان تذهب إليه، كانت الحارث. من الناحية الجسمية، كانت تشبه بولس العاشر. من ناحية النفس والروح، كانت تشبه نفسها بإرادة الله. كانت تروح وتجيء في الممشى ونظارتاها المؤطرتان بالأسود على أنفها حاملة أحواض المريضات، وكانت تتوجه إلى كل شخص تراه في طريقها مغمغمة، في بادئ الأمر، ببضعة أقوال حول الله، الله البسيط والواحد، الله الحي. بعد ذلك، ذهب مارتان إليها غالباً. كان يحب أن يرتجف وهو يصغي إلى أقوال المزامير، خاصة تلك التي كانت تذكر الجحيم والتي كانت تلقيها بتفخيم.

كانت، وهي تقرأ، تضرب الأرضية بعكازها. ومن أجل أن لا يهرب مارتان، كانت توصد الباب بالمفتاح وتضع المفتاح في جيبها. لم يكن يستطيع سوى الخضوع لخطابها والجلوس على كرسيه هادئاً جداً. بين حين وآخر، كانت تمتشق عكازها، وكان لايمكن للمرء أن يخطئ في فهم نواياها. كان على كل واحد أن يصغي إلى كلام الله ويعيش حسب وصاياه. ذات مرة، انفجر مارتان في ضحكة مجنونة - لم يكن، على وجه الإجمال، سوى طفل. ولكنها انتصبت، إذ ذاك، ورفعت عكازها لتضربه ثم عدلت عن ذلك. كان يمكن أن يقرأ في نظرتها أنها كانت تتهيأ لعقوبة أخطر وأندر.

- أتعلم أيها الصبي الفاسد ما حدث للصبيان الذين كانوا يضحكون من النبي إيليزيه؟ هذا مذكور في الكتاب المقدس: عند ذلك، التفت إيليزيه لينظر إليهم، ولعنهم باسم الأزلي. وماذا جرى، إذ ذاك، للذين لعنهم باسم الأزلي؟ الكتاب يذكره: عند ذلك، خرج دبان من الغابة ومزقا اثنين وأربعين من هؤلاء الأطفال.

كانت آنا الهضبة تستمتع بالدراما وتبحث في الدين عن العنصر المثير. لم يكن هناك مكان في أفكارها من أجل أمير السلام. كانت تعبد الله المتشدد، الله ذا الأقوال القوية، الله الذي يخيف النفوس المتمردة من أجل أن تأتي إليه. كانت، هي نفسها، في حاجة إلى الله لتعيش لأنها كانت أكبر عمراً من أن تستعيد حميتها الأولية التي تستغني عن العصا.

ذات يوم، أحست الآنسة بأن مارتان كان يخفي شيئاً يهصر قلبه. فكرت في ذلك مساء، قبل النوم وتوصلت إلى نتيجة وهي أنه إذا كان هناك ما يثقل على ضميره، فيجب تحريره منه.

في الغد، أدخلته إلى غرفتها. أجلسته على كرسي منجد وحاولت أن تستعلم قليلاً عن حياته. قالت:

- أدعى الآنسة تيرا، وعندما تتوجه إليّ بالكلام فيجب أن تقول آنسة تيرا.

قال مارتان:

- نعم.

- قص عليّ قليلاً كيف كان الأمر قبل أن تأتي إلى هنا. هل كان على ما يرام؟

قال:

- ايه، نعم!

أحنت رأسها عندما سمعت هذه الإيه نعم المطوطة. ربما كانت تفكر في أنها تعرف كيف تجعل حياته لطيفة، مرضية ومرحة وتستخلص منه إيه نعم أكثر رشاقة وعفوية.

- وكيف كانت الأمور في نوردا؟ هل كنت راضياً؟

- ايه نعم.

- ولماذا هربت؟

نظر إلى الأرض. لم يكن يستطيع أن يجيب. لن تفهمه أبداً.

- حسناً، لن أطرح عليك أسئلة. آمل، على كل حال، أن لا تهرب من هنا أيضاً؟

قال:

- ايه نعم (ثم، وقد لاحظ هفوته) كلا نعم.

لم يكن هذا ما يريده بعد. كان تعبيراً غير موجود. أحس بنفسه مخطئاً، فأصبح أشد نفوراً. كانت أفكاره تتلوى كصنارة صياد ولم يعد يجرؤ على رفع عينيه. مر بيده على تنجيد الكرسي. كان الأمر كما لو كان جالساً على ردفي أحدهم، على ردفي غونيلا. احمرّ، خاف، أحس برغبة في أن يضحك. ولكنه كزّ على أسنانه ولم يرفع عينيه.

وضعت الآنسة يدها على رأسه تداعبه بلطف. كان يحب هذا، ولكن تلك كانت، بالطبع، بادرة بلدية. البلدية هي التي كانت تلاطفه الآن، بعد زمن الصفعات والسنوات التي انقضت على نفقة الجماعة.

قالت:

- قل لي، ألديك شيء يعذب ضميرك؟ هل اتفق لك أن سرقت مرة أو أخرى؟

ألقى على السجادة نظرة منحرفة، ولكن دون أن يراها. كان يحاول أن يتذكر ما إذا كان قد سرق شيئاً. كلا، إنه لايتوصل إلى تذكر ذلك. لم يسرق، بالتأكيد، قط. أكان يجب أن يكون قد فعل هذا أيضاً؟

كان حائراً، يفكر. ربما كان من الأفضل أن يقول إنه سرق قليلاً، إنه ذات مرة، سرق... ما الذي يجب أن يكون قد سرقه؟ قال:

- ذات مرة سرقت.

كانت أكذوبته تجعله يرتعش. رفع عينيه، وظنت الآنسة أنه كان ينظر إليها مواجهة. ولكن نظراته الغائبة والبعيدة هي التي كانت، قد حطت، مصادفة، على وجهها وعبرته من طرف آخر لتخرج من ضفيرتها وتغوص في اللامتناهي. استأنف قائلاً:

- سرقت حزمة.

سمع نفسه يتلفظ بهذه الكلمات التي كانت قد مرت بذهنه. جس تنجيد الكرسي وداعب القماش الناعم. كانت الآنسة تيرا مستمرة في مداعبة شعره باسم البلدية. سارع إلى تلفيق هذه الحزمة. قال في نفسه إنها ستكون صفراء ومثبتة في طرف عصا. قالت الآنسة تيرا بنبرة عطوف ومسائلة:

- أكانت إذن، حزمة؟

شرح الأمر قائلاً:

- نعم، حزمة من قش الشوفان (ابتلع لعابه). كانت على طرف عصا. أنا نادم اليوم.

ثقلت يد الآنسة تيرا على رأس مارتان - لا عن قسوة، ولا لتعاقبه، بل بصورة أشد تركيزاً بقليل. قالت:

- حسناً، حزمة شوفان ليست شيئاً رهيباً. ربما كنت تريد أن تفعل بها شيئاً. ولكن، ألم تسرق قط، حقاً، شيئاً أو مالاً؟

ألقى بنظرته على إحدى ذراعيها وفكر. ربما سرق، ذات مرة، مالاً عندما كان صغيراً، صغيراً إلى حد لم يعد، معه، يتذكر ذلك. كان هذا ممكناً في الزمن الذي كان له، فيه، بيت. نعم، لم يكن ذلك مستحيلاً. نظر إلى يد الآنسة تيرا وأظافرها التي كان يجدها طويلة جداً. هذه اللحظة هي التي حزم أمره فيها. لقد سرق مالاً. قال:

- سرقت مالاً، ولكن هذا منذ زمن طويل جداً.

كانت، الآن، تداعب رأسه. كان، الآن، قد سرق مالاً. سألته قائلة:

- كم؟

غمز بعينيه طويلاً جداً كما لو كان يحتفظ بهما مغمضتين. وقام بحساب عقلي سريع. أحد عشر كوروناً؟ هل كان يستطيع أن يقول هذا؟

- سرقت أحد عشر كوروناً واشتريت بها بطاقات بريدية وشوكولا.

- أين هي البطاقات البريدية؟ في حقيبتك؟

- ألقيت بها في البحيرة.

- متى؟

- منذ كومة سنين.

- كومة سنين؟ ولكنك لست كبيراً إلى هذا الحد.

- بلى، منذ زمن طويل، عندما كنت صغيراً جداً.

ومد يده ليبين كم كان صغيراً. كان يكاد أن لا يكون موجوداً، كان

غير ظاهر تقريباً، كان أصغر من المال الذي سرقه تقريباً. كانت يده ترتعش وهي تبين القامة الصغيرة.

أعرضت الآنسة تيرا عن رأس مارتان. ضمت يديها فوق إحدى ركبتيها وراحت، على سبيل اللعب، تربت على الركبة بيديها المضمومتين.

- سنتدبر هذا فيما بعد. ربما ستستطيع، ذات يوم، أن ترد المال وتريح ضميرك.

سمع كلمة «ضمير» وتاهت نظرته في السجادة. بدا له الضمير على شكل عجل، العجل الذي كان قد قتله في تولين، ذات يوم أحد، عندما حرم من يوم عطلته وأفسد العجل كل شيء. كانت ذاكرته تعرف أن ذلك كان رهيباً. أما كونه غير مخيف إلى هذا الحد، فهو ما لم يكن يعرفه أحد.

نهضت الآنسة تيرا من على كرسيها. رأت يدي مارتان المذعورتين ونظرته المواربة، التائهة بعيداً. قالت:

- سوف نتابع في يوم آخر.

خجل تقريباً. أعطته قطعتي بسكويت أخذتهما من صينية. انحنى مارتان انحناءة كبيرة وتسلل، وهو يمشي القهقرى، عبر الباب مغمغماً بكلمات شكر مرتبكة. أعادت إغلاق الباب، وابتعد وعيناه مثبتتان على السجادة والأرضية. لم تكن خطيئته قد سويت بقدر أكبر مما كانت عليه سابقاً. هل سيتوصل، قط، إلى محوها؟

في الممشى الذي كان يتوه، فيه، النزلاء مجترين ذكرياتهم كتبغ لا يفنى، سمع ضميره بشكل واضح. كان يصيح به، من المأوى، من السماء ومن قاع الهوة: أنت قتلت عجلاً!.

رآه المسنون يفزع ويستعجل على طول الممشى. أخطأ الباب ودخل إلى غرفة جون الأبدية. نظرة الازدراء الذي لا حد له التي رماه بها جون جعلته يتراجع وجعلت أفكاره تتوضح، أو أن جون أخافه بصورة أخرى على الأقل. كيف تجاسر هذا الخائب على أن يظهر في بلد صواميل الأبدية؟

هرب مارتان خارجاً. كانت حرارة النار تذيب الثلج على السقوف، وكان الماء يسيل. كان المأوى الهائل يتخلص من طبقته الثلجية. وفي وسط هذه الأخيرة، بين السلالم الاسمنتية الثلاثة، كانت أزهار ثلج تزهر، محولة الحياة إلى أسطورة.

كان الناس يمضون نحو فصل أكثر اعتدالاً، نحو عيد الفصح الذي تزهر فيه أزهار القبقب.

كانت قاعة الطعام واسعة. كانت ساعة الوجبة تعلن بالضرب على صنج، وهي وظيفة عهد بها إلى مارتان. كان يحس بأنه قد اكتسب أهمية خاصة حين كان، بسبق جيد، ينتظر أن تعطيه الطاهية إشارة. كان النزلاء الذين كانت لهم شهية جيدة يتوهون في الممشيين: ممشى الرجال وممشى النساء.

كان الممشيان يمتدان على محور غرب - شرق. من الشرق، كانت تأتي المسنات بمشيتهن التي تشبه مشية القنفذ. وكان المسنون يأتون من الغرب، يتقدمون بسرعة أكبر، فوج تبغ يمضغ. وحتى لو وجد، بينهم، من لا يتعاطى التبغ، فإن هذا الأخير كان، مع ذلك، ينتقل من واحد إلى الآخر، وكانت رائحة التبغ تفوح منهم. كانوا يأتون، لدى كل وجبة، وقد أضيئت نظرتهم بحشيش مأوى المسنين هذا - ولكنهم لم يكونوا يأتون إلا لدى إشارة مارتان الذي كان يراقب فوجهم.

وعلى الرغم من أهميته الهزيلة حيال النزلاء الآخرين، فإنه لم يكن يهمل دراستهم عن كثب.

كان المسنون يدخلون القاعة بعد المعاقين والبلهاء. كان المعاقون يبدون، في هذه المناسبة، حيوية لاتصدق، وكانت عكاكيزهم تدور كآلات. كانت العكاكيز المزدوجة تلتهم المكان أو تشقه كما لو كان ذلك بضربات فأس. كانوا يندفعون إلى الأمام ويتأرجحون بين الطاولات. كان

لارس الكبير، بعكازيه، يأتي أولاً. كان، بين ضربة عكاز وأخرى، ينقض بوسطه إلى الأمام كبهلوان يستعد للقفز. كان قد أصبح، في سنوات الإعاقة والتيبس، بهلوان البهلوانات. كانت تتبعه، كأقزام، العكاكيز المفردة والعكاكيز الصغيرة. ووسط هذه العكاكيز التي كانت تتحرك محمومة وتقرع الأرض كحوافر خيل أو كردحة ماعز أو مطرقة نحاتي الحجارة، - كان البلهاء يتقدمون على وقع قهقهات. كانت نفوسهم قد انطفأت، كاملة أو نصف انطفاءة: كانوا يقهقهون. كانوا يقهقهون بصدد مجالات مختلفة. البلهاء اللطفاء كانوا يتضاحكون بلطف. وكانت قهقهة البلهاء من أصحاب الإصابات الخطيرة مشروخة أو رديئة.

كانت تقهقه، في بياض عيونهم، لعنة، شجن، شرخ كان يرغم على محبتهم بعنف، على ترك الذات تحس ببؤسهم. كان يصعب حتى مجرد التفكير بشيء مؤذٍ بصددهم، يستحيل التفكير، حتى سراً، بالطريقة التالية: أنت تعاني، هذا يليق بك! يليق بك! كلا، هناك نقطة يولد، ما وراءها، التمرد الإنساني ضد القدر، يبدأ، عندها، الحب الكبير. يجب أن يكون هذا ما كان يحس به مارتان ذات يوم انفجر، فيه، باكياً دون سبب.

ولكن، فلنتابع العرض حتى المائدتين اللتين اتخذتا شكل حدوة فرس. كان المعاقون والبلهاء قد أخذوا أماكنهم عليهما. والآن، هاهم الآخرون: الذين يرتعشون والذين يغمزون بعيونهم - دون جدوى كما يقال - والذين كانوا يبقون محنيي الظهور تماماً وعيونهم مثبتة على الأرض. لو كانت هناك قطع نقدية على الأرض، فسوف يراها هؤلاء حالاً. إنهم يعرفون كل شقوق الأرضية، بل وعقدها. بل إنهم كانوا، أحياناً، وهم

يحركون رؤوسهم يرون، أيضاً، ماركات عكاكيز المعاقين، خاصة في الشتاء عندما يندفع عدد من المعاقين على عكاكيز في أسفلها حديد. كان بين المرتعشين ومحنيي الظهور طريفون مختلفون: سفن القصير الذي كان، كل الوقت، يمرر لسانه على شفتيه أو جون المزدوج الذي يغتسل سبع عشرة مرة في اليوم أو الحداد الذي يجمع الخيوط وقطع الخشب والذي تمسك، دائماً، كما يبدو، بالاهتمام بهذه الأشياء الصغيرة ليجد ما يعوضه عن مهنته القديمة. كل ما كان يبحث عنه، الآن، هو تجميع كل قطع الخيوط وكل قطع الخشب أو الشعر على السجادة. الحداد ماهر.

الحياة تنقضي كما يجب، وفي داخلها تتحرك حيوات صغيرة كما لا ينبغي. الجميع أخذوا أماكنهم. ينظر مارتان إلى الحشد بهيئة تنم عن الأهمية. ثم يكون آخر من يأخذ مكانه على المائدة ذات شكل حدوة حصان الحياة. يجلس في مكانه - تجاه الحداد، يحاول هذا الأخير أن يبتسم، بلطف، لمارتان، إلا أنه لم يعد في فمه أسنان، لقد خلعها حداد السماء الكبير، فلم تكن الابتسامة، إذن، كما يرغب في أن تكون، بل هي، بالأحرى ابتسامة مغارة. يبادله مارتان، كموظف، ابتسامة بابتسامة. إنه النزيل المفروز للمناداة على الوجبات، والحداد ينظر إليه ككائن أعلى. يمسك الحداد بملعقته على مهل ويأكل ببطء. يأكلون في قصعات مطلية عميقة إلى حد كاف. لايمكن أن يقال إن البلدية بخيلة بالغذاء، بل ويمكن، دون سخرية ولا كراهية، أن يعنون المشهد: «وجبة في مأوى المسنين»، في مأوى مبني بالحجر عام ١٩١٢.

حوالي منتصف الوجبة، تظهر الآنسة تيرا، المديرة من رأسها حتى قدميها. وبالفعل، فإن مئزرها الأبيض المبهر يغطيها من الكتفين حتى

أسفل الساقين كصفحة نقية للبلدية، كرؤية مؤثرة. لا حاجة إلى الكلام. فكلهم يعرفون ما الأمر. أوه أيتها العملاقة، ماذا نكون دونك؟ تهدأ أصوات الملاعق.

سلمت رسالتين لصاحبيهما ثم انسحبت. لبرهة قصيرة منحت صورتها فتح الباب قداسةً، كما في لوحة. وخلال لحظة، أيضاً، دوّى صوتها الجهير في القاعة حيث أعلنت:

- رسالتان لسفن جونسون وأندرس نيلسون.

مازال الصوت يتردد. كان سفن جونسون واندرس نيلسون يأكلان حساءهما بخشوع. كانا يجلسان مثل كاردينالين ورسالة كل منهما موضوعة إلى جانب قصعة الحساء، بيضاء ومكوية حديثاً كفوطة الأغنياء. كان الجميع ينظرون إليهما خلسة. تابعا، من جانبهما، إن صحّ هذا القول، طعامهما هادئين. كانا، في سريرتهما، يستمتعان بهذه اللحظة. كانا، في سريرتهما، على أهبة الوقوع مغشياً عليهما لكونهما قد قذف بهما، على هذا النحو، إلى المستوى الأول.

أحس مارتان بنفسه وحيداً، ابتلع سبع عشرة ملعقة من الحساء في حين كانت الحياة قد توقفت فيه. نظر إلى النجمين. كفّ صوت الآنسة تيرا عن الدوي. ومن جديد، كانت طقطقة الملاعق، ولكن بقدر أقل من الضجة، فقد حدث شيء ما. إلا أن مارتان لمح، الآن، أن إحدى الرسالتين كانت مؤطرة باللون الأسود. كانت عيناه، الآن، مثبتتين على الرجفة الكبيرة التي كانت تهز ملعقة نيلسون المصنوعة من الصفيح... آه!... في الجانب الشرقي من مائدة حدوة الحصان يعلمون فعلاً، ما كان عليه الأمر. أما في الجانب الآخر، بين الخادمات والمسنات، فلم يكنّ يعرفن

حقيقة الواقعة، ولكنهن كنّ يتهامسن، يخمنّ. أخيراً، ترك اندرس نيلسون نصف حسائه، ووضع رسالة الحداد تحت إبطه وأخذ عكازيه وعبر المشهد بحركات كبيرة متقطعة لكل جسمه. وجه إليه الحداد ابتسامة لطيفة ومتفهمة. ونهض سفن، بدوره، وخرج - على ساقيه السليمتين تماماً من جهته. كان يبدو معافى. ثم سرعان ما نهض كل النزلاء في فوضى. دوت قاعة الطعام بضجة العكاكيز. خرجت دفقة من المسنين والمسنات من الأبواب قائلين: المجد لله على غذاء هذا اليوم. فرغت القاعة. عكاز أخير، خمار أخير، وانتهت الوجبة. آخر من خرج الأبله ايمانويل البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً وذو البنيان الهرقلي. كان يبتسم للحياة - ابتسامة الأبله المستبطنة الممتدة إلى كل شيء.

ذهب مارتان لمساعدة لينا، امرأة الخدمة، على إخلاء المائدتين. طردا ايمانويل الذي كان يرمق لينا عن قرب شديد. أعادا إغلاق الباب عليه. ثم جمعا القصعات التي أخذاها أكداساً إلى الحوض الذي كانت الآنسة تيرا تقف إلى جانبه.

هكذا كانت تجري الأمور لدى كل وجبة تقريباً.

إلا أنه كان هناك، حول مائدة حدوة الحصان، أحداث على حدة. فنفس ايمانويل تمتلئ، مرة كل أسبوع، سعادة اسمها الفاصولياء الحمراء. في هذا اليوم، يكون ايمانويل في حالة عيد، فيتقدم على الأرضية بجوربيه بخطوات كبيرة وفرحة. فهو يعلم أنه ستكون هناك حصة إضافية. ذلك أن كثيرين ممن ابتلاهم العمر لايتحملون، أبداً، الفاصولياء الحمراء. فقد عسكر العمر داخل أجسادهم، يزمجر، يشاكس. والمعدة هي التي غالباً ما تقيم الشيخوخة فيها، ومن هناك تنتشر، عبر كل ما هو

على هذه الأرض، جسد وروح، الخرف والخيبة. عند ذلك، يحاول الإنسان أن يحد من كميات الغذاء التي تكون من نموذج لا تقبله أجهزته. ولكن الخوف الجسدي يسمع، مع ذلك، مساءً، في المزمور المرتعش: «هكذا يمر يوم من زماننا لن يعود أبداً».

لماذا أعطانا الله جسداً؟ لا عجب في أن تكون الأجساد قد حلمت بأسطورة الحبل دون دنس أو حبل الأرواح النقية والقديسين الذين يستغنون عن كل غذاء.

بسبب الجسد والشهوة، غالباً ما لا ترى الشمس على الحقول. وينهار المرء في فوضى الألم من أجل ورم معدة حقير، وبسببه تطفأ لدى الآخرين نيران الفرح العابرة. ألم يقل في الكتب إن نابوليون كان يعاني سرطاناً في المعدة؟ هل كان ينبغي أن يفاجأ المرء بكونه قد عاش كما عاش وبكونه قد حاول أن يتلهى عن آلامه بالحرب؟ كانت المسنات من هذا الرأي تماماً. «يمكن فهمه جيداً جداً، هذا الرجل كان مصاباً بالسرطان. والمصاب بالسرطان، حتى في بداياته، لا يبقى هادئاً أبداً»

– ألم يقل في الصحف إن روكفلر، في أمريكا، كان يعاني من معدته؟ ألم يرد، دائماً، المزيد من المال؟

وافقت جوقة المسنات على هذا الرأي.

المسنة التي أتت على التعبير عن الرأي العام تحمل لقب آه-لا- لا. كانت امرأة قصيرة ذات خميرة معدية ضعيفة. كانت تكشر أمام الطبق المطلي الذي كان يتصاعد منه بخار الفاصولياء الحمراء، والجلد يتغضن على عنقها الهزيل الذي يشبه عنق طائر منتوف الريش عندما كانت تتكلم بصوتها القاطع الذي كان يبدو أنه يستعجل ليقول كل شيء، حقاً، كل شيء، بين نوبتي ألم معدة.

كـانت تعلم. كـانت تعلم بطريقة جسـدية خـالصـة. فعلى الرغم من كونها فقيرة جداً، فقد كانت تعاني من حرقات معدة جديرة بشخص مثل روكفلر. كانت تنقل، حولها، نظرتها التي جعلتها آلام معدتها لاذعة منتظرة دعماً، احتجاجاً ضد الفاصوليا ء الحمرا ء. عند ذلك، تلتقي نظرة آنا الهضبة التي اتخذت عيناها، في الربيع، لون الصدف. قالت آنا الهضبة:

- الأغنيا ء تحولوا عن الله. الرؤوس الكبيرة تقدر، اليوم، أن الله ليس لطيفاً إلى درجة كافية معهم.

توقفت وغاصت، لحساب الله، بنظرتها في عيني آه-لا-لا اللتين كان لهما، اليوم، لون شاهدة قبر. تابعت قائلة:

- ولكن الذهب لن يفيدهم أبداً. إنه سيجرهم، على العكس من ذلك، نحو السقوط.

هكذا تستمر المحادثة، تمضي من عجوز إلى أخرى حول المادة. إنها تهرس، وهي تمضي في طريقها، وتعاد صياغتها من جانب أكثر النفوس تنوعاً وتتابع طريقها كمحادثة جديدة كل شيء، فيها، قد عدل أو طرح أو أضيف. ترتفع بلبلة أقوال حول المائدة. أصحاب المعدات الضعيفة يغادرون القاعة وينسحبون إلى غرفهم حاملين خبزاً وشحماً. سيكون هناك، اليوم، كثير من الفاصوليا ء لايمانويل، ولكنه سوف ينبغي عليه أن يقتسم مع جون المزدوج الذي يسهر دائماً، على نصيبه. هذان الاثنان يتبادلان نظرات مواربة إجرائية، تقريباً، عند الاقتسام. يجلس إلى جانبهما نحات حجارة أعمى، سفن سيبريا. كان معتاداً على القول: «كم صنعت من شواهد قبور في حياتي، ايه نعم!». عندما انتهى من تناول

حصته ووصل إلى قعر طبقه المطلي، بدا عليه أنه يود أن يأخذ المزيد لأنه يبقى جالساً يبتلع لعابه كما يفعل المرء عندما يكون جائعاً.

يقول لنفسه: لدي الشهية، نعم، لدي الشهية!

ولكنه أعمى، لايعلم أنه بقي المزيد من الفاصولياء. لقد جرى الاقتسام بصمت. كان جون المزدوج وايمانويل يلقيان، بين حين وآخر، نظرة على سفن، ويحس جون المزدوج بشيء من الشفقة، ويرثي لكونه أعمى. لاينبغي أن يكون ايمانويل قد فكر كثيراً، وعلى كل حال، لم يكن يحتمل فكرة اقتسام الفاصولياء مع شخص آخر، أيضاً، أكثر مما كان يتحملها جون المزدوج. الاقتسام بين اثنين صعب فعلاً. فكيف سيكون بين ثلاثة؟

كان جون المزدوج يقول في نفسه: نحتاج إلى كل ما يمكن الحصول عليه، ولدينا أكثر من حاجة إليه.

بل إن ضميره صاغ نظرية صغيرة كان يجترها في صمت. هذه النظرية هي أن سفن الذي لم تعد لديه عينان أقل حاجة إلى الغذاء من ذاك الذي له عينان. ولكنه ينسى أن المرء في حاجة إلى كميات كبيرة منه ليجد القوة على الحلم عندما يكون أعمى: إنه يكتفي بالتفكير في أنه يلزم كثير من الغذاء لصيانة البصر عندما يكون ما يزال موجوداً ويحرص المرء على الاحتفاظ به واضحاً وجلياً. من الممكن أن يكون أفضل ما يؤكل مكرساً، على وجه الدقة، للرؤية. لقد كتب: «العين هي مرآة النفس».

نظر جون المزدوج إلى ايمانويل دون ود، وتابع طعامه بعد أن هدأ. لقد حذف سفن سيبريا بفضل محاكمته، أما سفن، فقد بقي في مكانه

وضمّ يديه، يدي رجل كان، خلال أربعة وخمسين عاماً، نحات حجر، ونظر حوله عن طريق أذنيه إلى حد ما. لم يكن هناك سوى سكاكين وشوكات، لاشيء للرؤية. الأفضل للمرء أن يحتفظ بذكرياته.

نهض سفن عن المائدة وسار نحو الباب متلمساً طريقه. في الممشى، سمع حفيف تنورة تيرا الثقيل، وابتعد في ليله. كان يعلم أنها تيرا. يعرفها من حفيف تنورتها الأصم الحازم. قال في نفسه إنها لطيفة. إنها تنتعل خفين من لباد في الممشى كي لا تزعج المرضى.

أعاد ابتلاع لعابه، وكان يضغط عليه جوع كان ويبقى من هذا العالم.

ثم صعد الدرج.

وعند ذلك، كانوا يقولون بعضهم لبعضٍ: حسناً، ها هي المرأة المكتملة. أليست جميلةً؟ كانوا يقولون: نعم، إنها لطيفة جداً. وعندما كان الملاحظ يعود ليلقي أوامره، كانوا يسألونه: ما اسم الميت؟

ايه نعم!

في ذلك الربيع غرق المصروع. كان النهر قد تضخم بسبب ذوبان الجليد وكل الماء الذي أتى من الغابات، وكذلك بسبب أعمال التصريف التي بدأت منذ بعض الوقت لتجفيف بعض المستنقعات. كان في وسط حوضه تيار، سريع يدفع مياهاً سوداء وعميقة. وعلى طول الضفاف، كانت موجات باردة تأتي لتداعب عشب السنة السابقة المصفر. وفي بعض المواضع، كانت الأراضي المنخفضة عند سفح الهضبة قد تحولت إلى بحيرة بمائة دوار. كانت مكاسر صغيرة تنبع حول التلعات مسببة غرق القوارب التي يطلقها الأطفال. عدة أطفال أصيبوا، فضلاً عن ذلك، بذبحة صدرية. كادت حجرة الاستحمام أن تحمل من جانب الموجات الجليدية التي كانت تتزاحم، تغلي، تحت القوس المزدوج للجسر الحجري القديم الذي كان يفتح شدقيه المنفرجين بشفتيهما المطحلبتين اللتين تسيل منهما المياه.

وفي بعض الأحيان، كانت كتلة جليد لم تصبح، بعد، ماء، ساقية ونهراً محمولة بالتيار تتسلل كرسالة بين أقدام البحيرة المرتعشة لتخرج من الجانب الآخر.

بعد عيد الفصح بستة أيام جرى غسل الثياب في قبو المأوى. كان الفيضان يقترب ومن أعلى مستوياته. كان المصروع يحمل سلال الغسيل حتى الضفة حيث وقفت لينا عند المغسل. كانت تشطف، متجاهلةً المصروع، الغسيل الذي كانت تأخذه من السلال الممتلئة تماماً والموضوعة

إلى يمينها كبطون ضخمة جالسة إلى جانبها على لوح المغسل. كانت، بعد ذلك، تضع على اليسار، وراءها، سلال الغسيل المشطوف والمعصور كما يجب. وهناك كان «صرعة» ينقض عليها ليعيدها إلى المأوى في أعلى الهضبة.

دام الغسيل ثلاثة أيام. كان البخار يفلت من كوى قبو المأوى، وكانت تسمع، بالتناوب، قرقعة القباقيب والثرثرات والأغاني. أحياناً، بين المهمات وسخرة الحطب، كان مارتان يرسل إلى هناك للمساعدة. كانت الغسالات يضعن، عندما يظهر، تحت سحب البخار، على الأرض الاسمنتية، حداً لثرثراتهن التي كانت تجري من شفاههن مخففة وأكثر لطفاً. وإذا نزلت ماريا الطاهية، فإن الضجة تخف أكثر من ذلك أيضاً، وإذا كانت الآنسة تيرا هي التي حضرت، فإنه لا يعود يسمع سوى همس حيي.

في ذات مرة، مرّ مارتان لدى دخوله القبو، غير مرئي تحت سحب الغسيل وستائر الماء المغلي. لم يكن ينوي الاختباء، بل إن الأمر جرى كذلك فقط. غمرته جلبة الأصوات الأنثوية، وكانت تتكلم، بفجاجة تامة، عن الليالي العميقة وألغاز الحياة.

تسلل من باب المغسل وصعد ليسأل عما إذا كان هناك شيء يفعله. قالت له الآنسة تيرا:

- كم أنت أحمر الوجه!

وسألته عما إذا كان على ما يرام.

أرسلت مارتان إلى البريد. كانت الأسلاك الهاتفية تغني نشيد الربيع، نشيداً حزيناً وعميقاً ودون نهاية نوعاً ما ربما كان خارجاً من قلب العوالم، بعيداً وبعيداً جداً ومحمولاً عبر المقاطعات والكانتونات،

كما لو كان ذلك بأوتار قيثارة أزلية. كانت الأعمدة تطل على طريقه كما لو كانت قد حبست داخلها جوقة نحل أو نمل. كانت مثل غرابيل أسطوانية عالية يمر، فيها، دقيق قاسٍ كالفولاذ مزمجراً. كان كل شيء يغني، كان كل شيء عذباً عذوبة مخيفة. كان مارتان يود، نوعاً ما، أن يعض الريح التي كانت تتقدم نحوه. كان يود، نوعاً ما، أن يلقي بنفسه في الفضاء، أن يغوص في البحيرة التي لا تروض والتي تمتد وحدها حتى كاليفورنيا.

كانت على الأسلاك شحارير مصطفة إلى ما لانهاية. عند ذلك بدأ مارتان يغني، هو أيضاً، كأعمدة الأسلاك، كالريح. في الذهاب غنى: مكتب البريد القرميدي، شعاره بوق أصفر، موظف البريد أبكم... وفي العودة غنى: مأوى المسنين، من حجر شيّد عام ١٩١٢.

كانت هناك خمس رسائل إدارية لتيرا ورسالة أخرى جعلتها تحمر لحظة وتعيد النظام إلى شعرها المرتب دائماً. أشارت برأسها إلى مارتان، وهي بكماء بصورة ملفتة النظر، بأن يذهب، وذهب. ثم جاء الغسق وجمع في مسورة مضطربة قطيعاً من أفكار انبثقت طوال ساعات.

في اليوم الثالث من الغسيل، في الساعة الثالثة، وحين لم يعد الغداء يثقل على «صرعة»، وقع هذا الأخير من على المغسل، وشاء القدر الذي جعله يقع دائماً على أرض ثابتة أن تندلع أزمته في الماء. طفا لحظة فوق التيار، ولكنه سرعان ما غاص وقبضتاه مطويتان على صدره وأسنانه تصطك. طلبت لينا النجدة. وصلت صرختها إلى المستديرة كعجلة من رماح اخترقت المنطقة بكاملها. هرع أناس من الهضبة ومن مزرعة صغيرة على الضفة المقابلة. هرع نزلاء معاقون أو

عرجان، وبلهاء ممتقعو الأحداق وخدود ضعفاء العقول المغطاة بلحى وبرية. كلهم تسابقوا في القدوم منحدرين على الهضبة المعشبة كحشدٍ من أقزام.

جاءت تيرا، أيضاً، مرتدية مئزراً جديداً كان يغطيها من أعلى إلى أسفل. كان الثديان ينفخان المئزر كما تنفخ الريح شراعاً. هرعت تيرا، كانت قارب الخوف الأبيض. تجاوزت كل الآخرين وجعلتهم يفتشون عن حبال في الحجرة. ولكن الأوان كان قد فات، كان «صرعة» قد اختفى.

تعنتوا طيلة ساعات وتزايد مجيء أناس من الجوار، ووقف الطبيب على الضفة لينعش الذي ربما لم يكن قد مات بعد إذا وجدوه. ولكن كلا.

في الغد فقط، عثر على جثة «صرعة» محشورة في سكر الطاحون. كانت تيرا تجتاز مماشي المأوى مرتجفةً ومحمومةً. أصابها برد أثناء عمليات البحث. وفي حين كان الغسيل يجف في ريح أيام الربيع الأولى هبط صمت على المأوى أرادت اللياقة قسماً منه وكان عفوياً في جزء آخر.

كان مأوى الكانتون المجاور أبسط وأفقر. من المؤكد أنه كان أكبر ويضم عدداً أكبر من النزلاء، ولكنه كان، من جهة أخرى، مبنياً من الخشب وكان، خاصة، مسطحاً. كان بناء من طابق واحد يمتد على كامل عرضه بأبنية جانبية أو مشكلة زاوية قائمة معه وأجنحة ملحقة. وباختصار، كان مأوى متشعباً، مأوى من سبعة فروع. كان، في زواياه، مكان للعكاكيز وآخر لأحواض المرضى وزاوية لأصحاب الحنين الذين لم يعودوا يتحملون حنينهم، وأخرى للبلهاء وثالثة للبحارة في ختام الرحلة، وربما كان هؤلاء أكثر كآبة من الآخرين.

تيرا ذهبت إليه لتلتقي زميلتها آنسة الفقراء في سبعة فروع. كان ذلك في نهاية نيسان. أخذت معها مارتان. سوف يحمل لها رزمها.

ركبا القطار ونزلا في أول محطة. كانت الرحلة قصيرة إلى حد لم تكن معه، رحلة. تيرا الشاردة لم تتكلم أبداً، كانت تبدو محمومة وقلقة. لم يعد لديها الثقة في نفسها التي كانت لها في الزمن الذي رآها مارتان فيه، عند إطار الباب الذي تحول إلى لوحة. أصبحت، بعد ذلك، تذكر بالصور المرتعشة للفيلم الذي عرض في البيت البلدي. كانت نظرتها في البعيد واحتفظت بالصمت برهة طويلة. قالت:

- هذا الصيف سوف تغادرنا يا ماتي.

ألقى مارتان نظرة من النافذة وتبين له، بأسف، أنهما سيصلان إلى

غـايتهـما قـريباً. ومع ذلك أحسّ بنفسه، فـجأة، سـعيـداً كل السـعادة لسماعه تسميته بماتي. كان هذا يبعث الدفء في قلبه. كانت الوحيدة التي تطلق عليه هذا الاسم، وفي كل مرة، كان هذا يسعده، قال:

- نعم.

وشعر بأنه أحمر تماماً.

- في تلك البرهة ستكون حسن السلوك، هه، لأستطيع أن أفخر بك.

- نعم آنسة تيرا.

خفض عينيه ومر ظل حزن على جبينه. كانت الدموع ستأتي إلى عينيه لولا أنه تمالك نفسه. ابتلع لعابه. لم تكن نظرته الوادعة والخاضعة تغادر يد الآنسة. وعندما كانت هذه الأخيرة تغير وضعها وتحرك يدها، كانت نظرة مارتان تبقى مثبتة على التنورة الصوفية دون أن يجرؤ على متابعة حركة اليد. ذلك أنه كان ينتظر، بصورة مبهمة، من هذه اليد شيئاً. في هذه اللحظة، رفعت الآنسة تيرا يدها وداعبت خده.. ابتهجت كل كينونته وملأه شعور يمكن أن يسمى امتناناً بنشوة ثقيلة. ولكنه لم يجرؤ على رفع رأسه نحوها. لمس بإصبعه المقعد الخشبي وأصدر صوتاً ضعيفاً ليطمئن إلى أنه لم يفقد صوته. وتمتم بصعوبة، معتقداً أنه لم يجب عن السؤال: «نعم آنسة تيرا». في اللحظة نفسها، اكتسحه شعور وقع، بكل بساطة، فوقه، لم يكن يحمل اسماً في كتاب نفسه التخيلي الصغير.. كان تفكيره على أهبة أن يتبين شيئاً. كم يصعب أن يقول «آنسة» وحتى قبل أن يصل إلى هذا، وفي حين لم يكن ذلك يهصر غير حنجرته، قال الفكر: أنا جائع! جائع جداً إلى أن لا يعود عليّ أن أقول

«آنسة»! وفي اللحظة نفسها وقف القطار، كانا قد وصلا، أخذ مارتان الحوائج في الشبكة وسارع إلى النزول. كان أنف رئيس المحطة في احمرار رايته تقريباً.

ألقى على تيرا نظرة خبير والتهمها بعينه كمستهلك للنساء. لم تلاحظ الآنسة تيرا شيئاً. كانت تمشي في مشهدها.

رحل القطار. تقدما، الصبي مارتان والآنسة تيرا، مارتان وتيرا، على درب، في منظر طبيعي. قالت إنها ستحمل رزمتين فقال:

- ولكن كلا، ليس هذا ثقيلاً، حمله سهل جداً.

وأضاف أيضاً ليحسن الأمور:

- درب جميل.

سارا برهة صامتين. قالت فجأة:

- يا له من يوم جميل يا ماتي! سوف يكون الربيع جميلاً ودون مشكلات بالتأكيد. انظر، العشب مرتفع فعلاً وتنبت فيه حشائش السعال.

ألقى مارتان نظرة على جانبي الطريق. نعم كانت هناك حشائش سعال.

- هل تريدين... أتريد الآنسة تيرا أن أذهب وأقطف لها بعضاً منها؟

- لا، دعها حيث هي! إنها تكون أجمل حين نتركها تكبر.

- نعم، إنها جميلة، ولكن واحدة فقط يا تيـ... يا آنسة تيرا!

انحنى وأمسك بواحدة منها بسرعة مع متابعته التقدم. قال:

- مظلة صغيرة، مظلة لك مني.

وجد ما أتى على قوله نحيباً، ولكنه كان، مع ذلك، أكثر سروراً مما لو كان قد قاله لجرترود. لو قاله لجرترود لبقي متجمداً لتلفظه بهذه الحماقات. ولكن الكلمات كانت، في هذه اللحظة، تمر على شفتيه وتتبخر دون أن تترك أثراً.

ابتسمت الآنسة تيرا، وترافقت الابتسامة مع ضحكة حنان صغيرة، مع جزيئة ضئيلة من الحنان تحررت فجأة. قالت:

- يخيل للمرء أنها فطر أصفر. هل تعرف هذه الفطور التي تنمو في الخريف؟

قال مارتان:

- نعم، هناك الكثير من الأشياء الجميلة.

وملأه كونه قد قال ذلك فرحاً، فرحاً لا يقاس بكورونات وأورات ولا حتى بلآلىء. وجاءت لتضاف إلى ذلك فكرة كون تيرا جميلة، ولكن العالم كله هو الذي كان في ذهنه، عندما قال إن هناك الكثير من الأشياء الجميلة، النيلوفر، كولومبيا في الكتاب المدرسي، نهر الأوب والنييسي، الغزلان التي تهرب في الغابة الافريقية كاليحمورات في غابة الدولة.

كان، الآن، يشتهي أن يكرر ويكرر قوله: «هناك الكثير من الأشياء الجميلة»، وكان، وهو يقول ذلك، يتصور على نحو خاص جداً، اللوحة مع تيرا. ولو وضع فيها كل روحه، فربما لاحظت أن ما كان من خصوصية في هذه اللوحة هو ما كان جميلاً فيها. إلا أنه لم يكن يمكن أن يقال بغتة: «هناك الكثير من الأشياء الجميلة». فينبغي، أولاً، أن يقول شيئاً. ربما سيقول شيئاً يسمح له بأن يعيد، مرة أخيرة أيضاً، قوله:

«هناك الكثير من الأشياء الجميلة». انتظر. مرا أمام بيوت مطلية باللون الأبيض. مرا أمام سنديانة عتيقة في عرض مائة واثني عشر برميلاً. ومرا أمام صفصافة، وتبعهما كلب جميل جالس عند فتحة بيته بعينيه الكبيرتين الصافيتين. ومرا قرب هضبة مغطاة بأيكة هزيلة من البلوط، وكانت تنمو زهور شقائق النعمان عند طرف حقل كقطرات صغيرة زرقاء، وكان في الحقل برميل ماء على عجلات وكان مطلياً باللون الأخضر وغاصت عرائشه في الأرض. كان أحدهم قد ترك كلساً على الطريق، وكان هذا الكلس يرسم خريطة جزيرة سيليب.. ولكن تيرا لم تعد تقول شيئاً أبداً، وهكذا لم يستطع أن يقول ما كان يرغب في قوله. سلكا درباً آخر قادهما إلى بوابة حمراء. لقد وصلا. شاهدا فئة من نزلاء خائفين وخجولين تجمعت للنظر إليهما. وثبت النزلاء عيونهم، طيلة الوقت الذي تجرؤوا فيه على ذلك، على هذين الشخصين اللذين كانا يجتازان الممشى المغطى بالحصى. ظلوا في مكانهم، نفورين وخائفين، حتى اللحظة الأخيرة ثم اختفوا، أخيراً، في الأبنية العديدة. كانوا نزلاء مأوى آخر، كانتون آخر، أغراباً تقريباً. ظهرت آنسة المأوى ذي الفروع السبعة على سلم المدخل، وحيتها تيرا بصرخة ودية داعية إياها «عزيزتي إديث». وبعد أن تصافحتا أولاً، تعانقتا وتبادلتا القبل على الجبين والوجنات، قبلة للزميلة، قبلة للرفيقة وقبلة للصديقة.

– عزيزتي! ادخلي! ادخلي إلى قصري! أتيت بصبي معك كما أرى. حسناً، يوجد أطفال هنا، وسوف يستطيع أن يلعب معهم بينما نتحدث، نحن المديرتين، في شؤوننا. لدينا أمور كثيرة نناقشها، نعم، نعم، اذهب، إذن، لإيجاد ستيغ وسيغريد يا بني، اذهب للعب، الطريق من هنا.

فتحت باب ممشى أسود كقعر علبة تبغ وطويلاً كورشة صنع حبال.

«على مهل على مهل» - قادت مارتان أو دفعت به إلى الممشى، وبعد أن أخذت منه الرزمة، أغلقت، فجأة، الباب بلطف. رأى مارتان، جيداً، أن تيرا كانت تود أن تقول شيئاً، ولكن الوقت لم يتيسر لها إذ غمرت بصرخات فرح «صغيرتي العزيزة»، «ولكن هيا!»، «كيف إذن؟». سمعهما مارتان تدخلان شقة إديث. يجب أن تضم غرفتين أو ثلاثاً لأن الصوتين كانا يتزايدان تلاشياً. ابتعد مارتان كئيباً، في ظلام الممشى.. كان نزيل يطل هنا وهناك، برأسه، جمجمة صلعاء أو شعر كث أبيض. كانت نظرات خاضعة، عذبة وورعة، عيون بلهاء وعيون عدوانية، تنظر إلى هذا الصبي يجتاز الممشى ببطء وضد إرادته بحثاً عن شخص اسمه ستيغ وعن شخص اسمه سيغريد، وفجأة قال أحد المسنين:

- هذا الذي جاء مع الآنسة الطويلة، هل سيأتي إلى هنا؟ أهو، إذن، لقيط؟

مر مارتان أمامهما دون أن يرياه. كان الممشى يستطيل في نهايته، بزاوية قائمة، بممشى أخير يساويه طولاً. هناك وقف كي يفكر.

كانوا يسمونها الآنسة الطويلة. لم يكن الوحيد، إذن، الذي كان يجدها بالغة الطول، بالغة المهابة. ولكن، ربما لم يكونوا يجدونها طويلة جداً، ربما كان، هو، يجدها أطول منهم. ما الذي كانوا يستطيعون أن يعرفوه عنها حقاً؟ ابتسم ابتسامة ازدراء، وهتف، وهو وحده تماماً في الظلام قائلاً: يا لكم من عصابة تافهين!

ما هذا الكوخ؟ تفحص، وهو يقهقه، كل صفيحة على الأرضية، كل

شريحة في الخشبية. اجتاز هذه الأخيرة عدة مرات بنظرة متزايدة المواربة. وكانت نظرته تزيد احتقاراً كلما زاد تفحصاً. كان هذا الجدار، حقاً، على غباوة لا تصدق.

اهتم، بعد ذلك، بأبواب الغرف وقام بمقارنات بين هذا المأوى ومأواه. مأوى مثل هذا شيء لا يصدق. ومرة أخرى، ألقى بنظرته، بازدرائه على هذه الأرضية البائسة، صفيحة بعد صفيحة، ثم تابع جولته حتى آخر الممشى فخوراً كل الفخر بمأواه هو.

كان الممشى يؤدي إلى نوع من بهو. كانت هناك بعض الدكك والمقاعد، وكانت نار جمر تحترق متثائبة في مدفأة. كان وميضها يضيء بتقتير ثلاث صبارات شبيهة بمغارز إبر، وكان قط عجوز جالساً عند فتحة النافذة يلقي على الجمر نظرة ناعسة.

جلس مارتان على إحدى الدكك. كان الغسق ينتشر في المماشي كروح تبغ الاستنشاق نفسه. بدأ مارتان في تثبيت نظره على الجمر، كالقط تماماً. عند ذلك، أخذ القط يهر لحسابه الخاص كقط هندوسي ممتلئ حكمة أو قط خارج من حكايات غريم بساحراتها اللواتي يمتطين مكانس وموسيقيي بريم. تحول الغسق إلى ليل. ربما كانوا، في هذا المأوى، يرعون طقوس الغسق قرب النار، ربما كان أحدهم سيأتي ليدفئ أوجاعه برهة وهو يئن بصوت منخفض.

انقضى ربع ساعة على هذا النحو، وانتهى مارتان إلى إيجاد نوع من السكينة قرب النار والقط الذي يهر في فتحة النافذة. كانت أفكاره تنصب، أحياناً، على الآنسة الطويلة، على تيرا، نعم، خاصة عليها، في حين كانت ظلمة عاتمة تبتلع الآنسة إديث بمعبدها، معبد تبغ الاستنشاق

ومأواها المظلم العتيق! مغارة للفقراء بأنفاق يفوح منها نتن التبغ. تيرا! تيرا العظيمة!

جاء، الآن، الليل الأسود. ظهر من ممشى نزيلان جلسا على إحدى الدكك دون أن يريا مارتان.

أرخى أحدهما عكازه وشكا من ألم في ظهره وكتفه ووركه وركبتيه وربلته وفي إحدى قدميه. وضع الآخر يده على إحدى ذراعيه وذكر اسم العضلة المصابة، ولكن هذا كان أفضل، الآن، طبيعياً تقريباً، والحمد لله! شيئاً فشيئاً، انتقلا إلى أشياء أخرى خلاف أوجاعهما، ذاكرين الآنسة الطويلة ببطء مدغدغ. «بنت جميلة ممتلئة جيداً». أما بالنسبة للطفل الذي كان معها، فيجب أن يكون أحد لقطاء البلدية، ابن لخادمة زلت مع السيد المركيز.

كان مارتان يصغي وتزايد الخوف من فكرة أن يُكتشف. كان يجب أن يحييهما عندما جاءا، ولكنه كان غارقاً إلى أبعد مما ينبغي في أفكاره دون شك، فلم يفعل ذلك. قال لنفسه إن الأوان قد فات الآن.

مضت محادثتهما في سبيلها. كانا يطوفان حول الكانتون. في هذه البرهة أو تلك وقع هذا الشيء أو ذاك، القدر أراد ذلك، الموت ضرب ضربته، حمل أنطون إلى التراب وسار كل شيء على حاله. وفي النهاية، غرقا في ذكرياتهما الشخصية، الواسعة والمبهمة، وقد تاهت أفكارهما في آفاق متزايدة البعد عن الكانتون ليصلا إلى سيدني ومالاقا. أصبح صوتاهما أصمين في تواطؤ ولد من معرفتهما الحميمة بموضوعهما، كما لو كانا يقرآن قداساً. كانا، الآن، مجوسيين يتكلمان. كان كلاهما بحارين في زمن السفن الشراعية التي كانت تنقل الشاي إلى الهند.

نسي مارتان كل ما كانا قد قالاه قبلاً. ترك نفسه في الظلام، محمولاً معهما على أمواج المحيطات المضطربة الأزلي.

عندما كان كلاهما يبحران، رأيا في هوراس راقصة سوداء رُبطت أجراس صغيرة حول فخذيها. قالا:

- في ذلك الزمان..

وكانت العكاز تقرع الإيقاع.

كانا يعرفان كل شيء عن شراعات سفن الأطلسي، يعرفان المساحة المضبوطة للأشرعة وتركيباتها، أي، باختصار، كل ما يصنع قوام مركب أو سفينة بثلاثة صوارٍ، أو قلع زاوي أو سفينة شراعية. أطول حبل يستخدم في البحرية هو الشراع المثلث وأقصرها هو حبل مدق الجرس. تحدثا عن سبعة آلاف عقد مختلفة - عن مؤخرة الخنزير المزدوجة ذات رأس القبرة، عن العقدة المجعدة والعقدة المنجمة والعقدة الماسية وعقدة عين اليزابيت وعقدة عين الريح.

كان درساً قاسياً ومتغيراً عاشاه في زمنهما. من أوستراليا كانوا يتقدمون وهم يجتذبون الرياح، يشقون طريقاً عبر مملكة رياح الغرب الأزلي ومائه ومن جحيم الغرب الأزلي الجليدي الذي يحول عتادك إلى كبة أسلاك حديدية شائكة وحيث تلمع قطع الجليد كبروق بيضاء وجامدة، أعطوا السفينة اتجاه هرب يائس على الموجة الهائجة. انثنت الأشرعة ورفع شراع مرتجل. كانت العاصفة الزرقاء من الغضب تلتف حول قرن أوستراليا وتدفع بهم إلى رياح الشتاء الموسمية وقد رقت عظامهم ودميت لثثهم. ظلوا أياماً كاملة على ركبهم، ينظفون الأرض بحجر الكدان. كان ذاك انضباطاً يجعل الملعونين يصرخون. قرب هل

المتسخة من الفحم، هرعت سفن الله الكريم تحمل قمحاً.. كانت آتية من وولووموولوو، وهي مدينة أطلق عليها هذا الاسم شعب بربري زال اليوم، أناس كانوا يعيشون كأطفال كانوا أسرى لعبة لم يعودوا يستطيعون الإفلات منها... وولوومووولوو، المدينة ذات الثماني «واوات».

كبر هذان البحاران. البحار العجوز لا يموت أبداً، تقريباً، بديناً. إنه يتيبس مثل القديد على سفن المسافات الطويلة.

في مدينة في انكلترا يوجد متحف. في إحدى القاعات المظلمة، توجد سفينة من قديد مجفف أقسى من الخشب أصبح، من تلقاء ذاته، في قوة جلد فرس النهر. وضعت أوتار محل الدعائم والحبال، ومحل الهيكل لحم ثور مملح، ومحل الأشرعة لحم خروف، ومحل القمرة وعلبة البوصلة عظام. وقد بنى كل هذا، بشكل تام، ضابط صف ثان تتحلل كرتا عينيه المطفأتين في ايسكس.

تبادلا الرواية، رازا بصورة متبادلة ذكرياتهما على ميزانيهما، كانت العكاز تقرع الإيقاع كبكرة في إعصار نيهوا. وفي النهاية، أخذا يتشاجران ويكشران عن أنيابهما. كانا يتخاصمان حول حرارة تيار الخليج وعرضه في شرق تامبافلا.

عند ذلك أتت مستخدمة كي تضيء البهو وأمكنت رؤية المجوسي والقط والصبي في زاويته. كان التأثير غريباً.

على طريق قرية إيد، كان يوجد مستوصف المنطقة. كان يبدو أصفر. متميزاً بين جذوع أشجار صنوبر الحديقة. رئيسة الممرضات كانت تدعى مالان. كانت تبلغ الثامنة والخمسين من عمرها وتضع نظارتين وتشغل وظيفتي المديرة والمحاسبة. وكانت مساعدتها امرأة مستديرة قليلاً جاءت من أوبسالا. كانت الاثنتان تتكلمان سويدية الوسط المقبولة لغة قومية رسمية، ولهذا السبب كانتا تمارسان على الأذهان تأثيراً ملحوظاً. وكانتا تعيان ذلك وتتكلمان من أجل ذلك، لغة أنقى أيضاً. من المؤكد أنهما لم تعبرا عن ذاتهما في منطقتهما، الأوبلاند، بلغة في هذا التهذيب قط. كانتا تزقزقان، تستخدمان لوينات، تتوسعان في هتافات تعجب وضحكات بلورية وتنتقلان، أخيراً، من نغمة إلى أخرى كعصفورتين.

كان المرضى الصغار الذين يعانون الحمى القرمزية أو الخناق يشعرون، في فترات الهدوء بين الآلام ونوبات الحمى، بأنهم موجودون في الجنة، في صالون لا يجري الكلام فيه إلا بالسويدية النقية، بين الطب وموسيقا اللغة. كانت الصماخات الريفية ترتعش راحة وامتناناً. الطبيب الذي كان يأتي في الساعة الثالثة تماماً من كل يوم في عربته للقيام بزيارته وإعطاء الوصفات أو إجراء عمليات سبركان، هو أيضاً، يتكلم السويدية النقية - ربما لم تكن نقية تماماً، ولكنها كذلك تقريباً.

كان من شأن هذا أن ينمي لدى الأطفال الفكرة التي كانت لديهم من قبل والقائلة إن كل ما كان نقاء وروعة - ولماذا ليس الله نفسه؟ - كان يأتي من مقاطعات الوسط هذه. وعلى كل حال، كان كل ما هو نظيف ومميز ويرن جيداً يأتي من هناك. وربما كانت أنظار أطفال شمال البلاد وغربها مثبتة أيضاً على الأوبلاند احتمالاً. كل الكتب في الجغرافية أو العلوم الطبيعية، في الدين أو في حكايات الهنود الحمر، مكتوبة بهذه اللغة. وكل الناس الذين يأتون من هذه المقاطعات كانوا يتكلمون كالكتب.

كان الآنسة تيرا قادمة هي أيضاً، بالطبع، من هذه المقاطعة المتميزة. كانت غالباً، أيضاً. ما ترى الآنسة مالان. كانتا تقومان معاً، كل يوم، بنزهة صغيرة. كانتا تذهبان في اتجاه قرية إيد. فعلى مسافة ثلاثة كيلومترات، كات تعيش صديقتهما المشتركة التي كانت مربية في سكانيا. كانت تدعى آنا، وكان يقال لها آنسة.

في بعض الأحيان، عندما لا يكون هناك وباء في المنطقة، كان مستوصف أيكة الصنوبر يغلق أبوابه تقريباً. لم تكن ترى، بعد، عربة الدكتور عند المنعطف. كانت تيرا والآنسة مالان تتنزهان مدة أطول وتقضيان ساعات لدى الآنسة آنا. كانت هناك عريشة جميلة جداً في دارتها المحاطة بالبلوط.

في هذه الأوقات التي لا تعود فيها المنطقة فريسةً للأوبئة، لم يكن في المستوصف سوى المساعدة التي هي من أوبسالا. كانت تطهو لاثنتين وتشن حرباً على الجراثيم التي أمكن أن تبقى حيةً في غرف المرضى. حوالي المساء، كانت الآنسة مالان تعود إلى المستوصف للعشاء بعد أن تكون قد حاكت دانتيلا أو طرزت تحت عريشة الآنسة آنا عاكفة على

دراسة الحالات. كان ذلك نوعاً من الثرثرة، مع قليل من الطب. كانت هذه السيدات المتمدنات والديمقراطيات بأكمامهن، أكمام الممرضات البيضاء والمكوية جيداً، يلفَون حول أكثر الحالات تشويقاً بعيدات كل البعد عما هو صغير. من كان يراهن يستطيع أن يستخلص منهن، بسهولة، أن العالم في خير. كانت «الأهوال» التي قد تذكر تحت العريشة تافهة، صغيرة، لطيفة تقريباً، كان يجري الحديث عن حزن كلب صغير فصل عن سيدته، عن مسألة معرفة الأزهار المفضلة لدى كل عضو من أعضاء الأسرة المالكة، ثم القليل من كل شيء، بعض الشائعات التي تذكر بكل أمانة، وأحياناً مع خفض الأصوات (لأنه يمكن لأحد، في غابة البلوط أن يسمع)، بعض الإسرارات التي كانت تبدو، بفضل الهمس وشيء من اصطناع السرية، أشياء هامة في حين أنها لم تكن سوى ثرثرة خفيفة تقدمها للريح خادمات الصحة البيضاوات والمتعففات.

كان الجو عكراً إلى درجة كافية. كان مارتان في نظر الآنسة مالان، «صبياً طيباً» عندما كان يذهب لأداء مهمات. وعندما يكون جدياً، كانت تصرح قائلة: «لا ينبغي لصبي أن يفكر» أو بشيء من هذا القبيل، مناسب واصطلاحي، فتات لطيفة يلقى بها إلى العصافير كانت، في الحقيقة، بتفاهتها، مهينة وجارحة للحياة في الطفل، للحياة في الحياة، مناخ «مذكرات البيت» الذي يقنّع هستيريا ثرثارة مبهمة.

كانت تيرا تشارك في ذلك، وهذا شيء بديهي، ولكنها لم تكن، مع ذلك، تستطيع أن تخضع له كلياً لأسباب جسدية تقريباً. كان فيها أكثر مما ينبغي من الثراء، وكانت غزارتها تعبر عن نفسها في انثناءاتها وحركاتها. كانت آنا، بالأحرى، ذات مستوى وكان يتفق لهما، معاً، أن

يستولي عليهما شيء من الخفة. كان مارتان يسمع أشياء تقال لم يكن يتوقعها منهما.

وحوالي نهاية الصيف، انضمت صديقة جديدة، إيلي، إلى حلقتهما. كانت، إذ جاءت لتناول القهوة، قد أتت معها بالأطفال الثلاثة الذين كانت مربيتهم. جرى تملق محميها كأمراء، قدم لهم الشراب الذي تناولوه بأطراف شفاههم وهم يتوقفون ليسألوا باستمرار، بصوت جاد: «عفواً ماذا كنت تقولين؟»

مارتان الذي أفرغ كأسه بجلبة جالساً، وحده، إلى جانب الممشى، على العشب، قال لنفسه إنهم يجب أن يكونوا صماً.. كان صوت الآنسة مالان مختلفاً تماماً عندما كانت تتوجه إلى أبناء الأغنياء هؤلاء، تتلفظ بكلمات عذبة جداً، مثل «آه، حقاً» و«بالطبع» إلى ما لانهاية. كان هذا يسمى، في لغة الشعب، لعق المؤخرات.

استطاع الأطفال المدللون الثلاثة الذين أكسبتهم هذه الحلاوة ثقة بالنفس أن يثرثروا لبضع لحظات بطمأنينة كاملة. تحدثوا عن مهاراتهم في لعب الكرات، عن «كلبي الصغير» و«درسي في البيانو». بعد برهة، أعاد مارتان كأس الشراب إلى الآنسة مالان وانحنى ثم ذهب.. كانت الآنسة مالان جالسة تصغي، فاغرة الفم، إلى هؤلاء الملائكة الصغار الواثقين جداً من الإرث والذين استطاعوا، بفضل موارد آبائهم، أن يستحموا، من قبل، في الساحل الغربي وأن يلقوا بكرات ثلج، في ذات يوم صيفي، في جبل في النروج. بدت الآنسة مالان متضايقة قليلاً عندما مد لها مارتان الكأس. لقد نسيت، بتحريضاتها المحتومة حول ما يناسب، الأطفال الأصحاء جداً، الشقر جداً - أن يبدوا دائماً، رشيقين،

مـرحين وجـريئين وهكذا دواليك. عندمـا عـاد مـارتان إلى المأوى، كـان مـايزال يرى أمامه، على الرغم مـن أنه قد اجتـاز جزءاً جيداً من الطريق، فم الآنسة مالان الذي كان على شكل قلب.

عاد إلى البيت في ساعة قهوة النزلاء. كان هؤلاء ينتظرون، من قبل، في الممشى. الأبله إيمانويل بحزمة لحيته، جون المزدوج بنظرته النهمة والثاقبة الملونة بزرقة الآس، سفن ناحت الحجارة الأعمى الذي كان يتلمس دعامات الباب ثم يمرر راحته على طول الجدار القذر. وعندما عثر على الزاوية التي كانت فيها المبصقة، بصق بصورة تخمينية دون أن يخطئ الهدف. كان، هو أيضاً، قد شرع في مضغ التبغ.

كانت ترى، من جهة النساء، آنا الهضبة، كانت، بعد الظهر، أول من ينتظر على الباب لأنها كانت تحب القهوة كثيراً. توجهت مستندةً بتثاقل على عكازها إلى مارتان، من خلال الباب المنفرج، بنظرة قاضٍ: «أنت متأخر أيها الصبي الوقح». وضع مارتان بمنتهى السرعة، على الطاولات، ثمانية وثلاثين كوباً وصحناً وعدداً مماثلاً من الملاعق، بالإضافة إلى ست وسبعين قطعة سكر، بمعدل قطعتين للنزيل. لم يكن الحليب يقدم على حدة، بل كان يسكب في إبريق القهوة من أجل أن يحصل الجميع على حصة منه. كانت ماريان الطاهية قد خرجت لأن الصيف كان جميلاً. كان مارتان قد ألقى، وهو يمر، بنظرة من النافذة، على ضفاف النهر ولمحها واقفة عارية في الماء. كانت قد أفادت من ساعة القهوة لتستحم. بهذه الطريقة، كانت واثقة من أنه لن يكون هناك عجائز يتلصصون عليها بين الشجيرات. إلا أنه لا يمكن للمرء أن يكون

واثقاً من شيء. في هذه اللحظة، كان مارتان هو الذي جمد في مكانه وإبريق القهوة في يده. لن تكون للحياة جاذبية دون جاذب العري. نسي مارتان، في انفعاله، النزلاء، مال، والإبريق في يده، فسفح قهوة على قدمه. هتفت آنا الهضبة، غاضبة من التأخير، قائلة: «اقرع! اقرع، إذن، أيها الصبي الوقح بحق الشيطان!» عند ذلك، وضع الإبريق من يده وقرع على الصنج بكل قوته. ادخلوا، ادخلوا، أيها النزلاء! تولى القيادة بمبادرة منه، مراقباً المداخل، بعجرفة كقيصر أو كعريف. النزلاء لم يلحظوا ذلك. كان كلٌ منهم في عالمه. أخذوا أماكنهم حول مائدة نعل الفرس وأخذوا يرشفون قهوتهم، هازين برؤوسهم، مغمغمين لمجرد تمرين حبالهم الصوتية. أعطى مارتان، دون أن يراه أحد، قطعة سكر إضافية لآنا الهضبة. ابتسمت له ابتسامة بيوس العاشر نفسها وسعت إلى مكانها إلى جانب آه- لا- لا، العجوز القصيرة، ناقلة الشائعات ذات الذهن الحاد وحرقات المعدة. مررت آنا، بدورها، خلسة، قطعة السكر إلى إيلنا، وهي نزيلة ذات نظرة ذابلة وابتسامة وجيعة. كانت إيلنا، لفترة طويلة سابقة، فريسة لهلوسات دينية وأمضت ثلاث سنوات في مصحة لوند للأمراض العقلية وأرسلت، في نهاية الشوط، إلى هنا. كانت، أحياناً، تحدث مارتان عن الزمن الذي أمضته في لوند دون أن يخلو ذلك من بعض الزهو واصفة إياه على أفضل وجه ممكن مع جهد لياقة مؤثر. كانت تتحدث عن القرى والأشجار المرئية من القطار. كانت تصف القطار وهذه الرحلة الكبيرة الأهمية بالنسبة إليها.

«توقفنا في أوسبي، كان هناك شيء لا يعمل جيداً في القطار. وأعطاني الحارس أقراص عسل». كانت تتحدث عن الحارس بود خاص،

«إلا أن الرجيم، وهذا شيء سأتذكره دائماً، صعد إلى القطار. لم يره الحارس ولكني، أنا، رأيته. دللته عليه، وعند ذلك ألقى به خارجاً».. قال الحارس: «أعتقد أنه قتل». قلت له: «أوه، كلا! الشيطان لا يموت». أخذ الحارس يضحك، وضحك الطبيب الذي كان هناك بدوره. «سافرنا في مقصورة خاصة. نعم، كانت ترى هناك أشياء كثيرة جميلة».

كانت إيلنا تتوقف عند متعة السفرة نفسها. كانت شيئاً لا تستطيع أن تنساه. كانت سفرة جميلة، السفرة الوحيدة التي قامت بها في حياتها. كانت، هنا، صديقة آنا الهضبة. كان بينهما شيء من التواطؤ. والأمر الطريف جداً هو أنهما لم تكونا تتحدثان، فيما بينهما، عن الدين أبداً. كانتا متفقتين كحجرين متداخلين إن صح هذا القول.

ربما كان لدى آنا نوع من الضمير أعلى من ضميرها العادي، زاوية في قلبها كان يسودها حس كانت تلوذ به عندما يدور الأمر حول أختها، إيلنا.. ذلك أن عقل إيلنا قد عانى الأضرار من الله ولم تكن في أدنى حاجة إلى أضرار جديدة. كانت تيرا تسأل أحياناً:

- كيف حال إيلنا؟

وكانت إيلنا تجيب:

- شكراً، لا بأس.

كانت راضية في المأوى. كان لقط المأوى الضخم المدلل سلته وقصعته في غرفة إيلنا. كان يجد طريقه، دائما، في الممشى ولا يخطئ الباب أبداً. زاويته، مسكنه على الأرض، كانت، حقاً، في الغرفة رقم ١٤. كان يذهب إليها ليهر بلحن قصير تحت يدي إيلنا المتغضنتين ويلعق قليلاً من حليب إفطارها.

كانت هناك عجوز أخرى كانت تسمى لينا السلال. كانت قادمة من الجزء الشمالي من الكانتون، منَ قرية صانعي سلال. كان عمرها ثلاثة وثمانين عاماً، وكانت متطيرة إلى أقصى حد. في عهد صباها، ذهبت إلى بوميرانيا -مثل معظم صانعي السلال في تلك المناطق- وهناك تعلمت صنع سلال من نوعية جيدة، على شكل صليب وشكل قلب، كما تعلمت الضفيرة البوميرانية. كان أخوها باتريك في المأوى أيضاً.. هو لم يعد من بوميرانيا، مثلها، بعد سبع سنوات، بل بقي فيها أربعين سنة. كان خادم اصطبل في اثني عشر قصراً بوميرانياً. كانت ساقاه ملتويتين، ساقين معقوفتين في كل الاتجاهات إن صح هذا القول. كانت ساقاه، بتمفصلاتهما الملوية والبنطال المعلق بهما، تشبهان جذرين كبيرين مشوهين. كان يتكئ على عكازين ويرمي إلى الأمام بما كان يقوم مقام الساقين، وكان فيه كل شيء من أرومة متجولة. بين حين وآخر كان يندفع على طول ممشى النساء ليذهب لرؤية شقيقته. لم يكن لديهما ما يقولانه لبعضهما بعضاً، ولكن، «هذا ما ينبغى أن يكون». كان يجلس برهة بقدر ما كان يستطيع الجلوس لأن «هذا ما ينبغي أن يكون». كانا يبقيان هناك يستمعان إلى تكتكة الساعة كما كانا يفعلان في بيتهما سابقاً. كانت ساعة بثقالين حجريين كبيرين يلمعان من البلاء بالأيدي المتراكم خلال أكثر من قرن ويصعدان ويهبطان على طول الجدار. كان قد «سمح» لإيلنا بأن تأتي بهذه الساعة معها. وفضلاً عن ذلك، كان لديها بعض الذكريات الشخصية منها ختم يمثل قلب يسوع الأقدس نموذجي لمبتذلات نورمبرغ. كان ليسوع عينان عذبتان وبشرة ملساء لطفل اغتسل جيداً بالصابون ولحية سوداء معتنى بها جيداً. كان المعطف قد

انزلق انزلاقاً خفيفاً. كان يسوع يشير بإصبع بيضاء نظيفة وناعمة إلى قلبه الأحمر الكرزي. كان مارتان قد رأى هذه الصورة نفسها في عدد من البيوت. كان تجديفاً لذيذاً مصنوعاً بالجملة من سلاف توت العليق. كان ختم شعبي جداً، صيد الذئاب بالترويكا، معلقاً تجاه قلب يسوع الأقدس، ثم كانت، هناك، أختام أخرى أيضاً، بحيث يخيل للمرء أن «هذا ما ينبغي أن يكون». لم يكن لدى الناس أي حس تصويري، ومع ذلك كان يلزمهم شيء منها لأن «هذا ما ينبغي أن يكون». هذا ما فكر فيه مارتان غالباً، فيما بعد. كان الأمر يدور بالتأكيد حول عرف ينتشر من مزرعة إلى مزرعة دون دلالة عميقة أبداً، ومع ذلك كان الأمر هكذا عبر كل البلد.

كانت إيلنا وباتريك يظلان جالسين صامتين تحت هاتين الصورتين لأن ليس لدى أحدهما ما يقوله للآخر. كان وقع خطوات والديهما الميتين منذ زمن طويل العائدين من السخرة يتصاعد إلى آذانهما كصدى لتكتكة الساعة. من حين إلى آخر، كانا يرفعان عيونهما نحو هاتين الصورتين، العملين الفنيين اللذين كان لهما وجود فارغ وروتيني.

عندما حاولت الجرائد أن تعطي، بصور مشوشة مطبوعة بحبر زمن الحرب الرديء، فكرة عن مجزرة السوم الثانية قال باتريك لمارتان:

- لا يوجد من يرغب في الحرب سوى الناس المفسدين والكسالى. هؤلاء الناس لم يعرفوا، قط، العذاب الذي يتربص بك ويقضي عليك. هؤلاء الناس لم يلتقوا، قط، الشيطان عندما يتنزه على طول المستنقع ينفخ بالجليد على حقل الفقير، ولم يصابوا، أبداً، بالتشنجات على مواقع التراب والمعزقة في يد الواحد منهم، لم يعرفوا، من هذه الحياة

على الأرض، جحيم السرطان الذي يحرق معدتك. الذين لا يعرفون الألم يبحثون عنه. لقد رأيت ذلك، حقاً، في بوميرانيا، عام ٧١. لقد ذهبوا وكانوا يغنون ثم عادوا عور العيون أو مقتلعي السيقان، وأرادوا أن يعطى لهم المجد، أن يجري الحديث عنهم، أن يرثى لهم في بوميرانيا. وقد رثي لهم. هذا ما كانوا يريدونه حتى لو كان منهم كثيرون ممن ندموا على ذلك ولعنوا من كانوا يرثون لهم. ولكن الوقت قد فات في تلك البرهة. معظمهم هكذا. يجب أن يرثى لهم، أن يرثى لهم، أن يرثى لهم. أما أنا، فأعتقد أنهم سيذهبون للقاء الشيطان نفسه من أجل أن يرثي لهم. البطل يريد أن يقال عنه: المسكين! ولكنه لا يريد أن يقال إنه ليس سوى شخص مسكين.

بيّن باتريك، أيضاً، كيف التوت ساقاه في بوميرانيا. كان خادم اصطبل، وكان قد امتطى الحصان أربعين سنة في حقول بوميرانيا حيث كانوا يشتغلون الأرض بكدن من أربعة خيول. قال:

– إن ما أعانيه هو مرض الركاب. خدم الكدن يصابون بذلك بسبب الركابات الكبيرة الباردة كالثلج، ركاب الفلاحين البوميرانيين الثقيلة. إنها تجمد دمك. في السنة الأولى، أنت لا تحس بشيء، ولكن، استمر في قيادة الكدن أربعين سنة وسوف تنقل إلي الأخبار! بعد ذلك تستطيع أن تشتري لنفسك عكازين أو تدع نفسك تتدحرج حتى الملجأ. ذلك أن هذا هو أنا. انظر إلي يا بني! خادم بوميرانيا، آه! آه! لماذا، وحق الله، لم أصبح صانع سلال كالآخرين؟ (كان يحقد على نفسه لأنه لم يصبح صانع سلال). كان من شأني أن أكون ما أزال أتنزه في منطقتي على ساقيّ الجميلتين المستقيمتين: كنت سأصبح ضخماً بديناً وهادئاً مثل باتيست

مع أيام خلفي وأيام أمامي. كل أناس الأرض البراح مغطون بالسلال كمعطف. لم يكن هناك من سلك الدرب الخطأ غيري في جحيم بوميرانيا هذا. أود أن يراني، الآن، فون غولدن كرويتز، الوغد البروسي. في الصباح كان يستعرض الكدن في باحة القصر المبلطة. كنا نصطف كما في المدفعية. كان الخنزير يصرخ: اختونغ*! «كان ينتصب كديك يأمر الشمس بأن تشرق» كما يقال. آمل أن يكون قد تلقى رصاصة هو أيضاً، هذه البقرة. من يلعب بالبارود، بالبارود سوف يموت.

كان مَزاج باتريك يتنوع حسب حدة آلامه، وكان لكل مزاج حقائقه. كان يجعله، أحياناً، غاضباً، فلا يغادر مقعده ويضرب الأرض حوله ضربات عكاز قوية. في هذه الأوقات، لم يكن يرغب في شيء، سوى أن يترك هادئاً مع وحدته وصياحه. كان يرفض، فيها، أن يتلفظ بأي شيء كان. في أحد هذه الأيام، فتحت الآنسة تيرا الباب قليلاً ومدت رأسها قائلة كالعادة:

- ماذا، إذن يا باتريك؟

كان كل جوابه أن رمى بأحد عكازيه في اتجاه الباب. تجنبت تيرا الضربة بانحرافها جانباً، فوقعت العكاز على الباب بعنف منجنيق. التقطتها ووضعتها على متكأ المقعد وهي توجه إلى باتريك نظرة قاسية.

- ماذا يا باتريك؟ ألست مضطرباً قليلاً؟ هل لديك شيء ضدي؟

نظر إليها بعين دامعة هازاً رأسه بقوة حتى ليقال إنه كان يريد التخلص منه.

(*) - انتباه بالألمانية .

- نعم يا آنسة، أنا مجنون، مجنون من الألم. ألا تستطيعين إعطائي شيئاً؟ سماً؟ وأنت التي تعدين ممرضة.

- سم؟ ماذا تعني بذلك يا باتريك؟

- سم، هذا ما أعنيه، سم للموت.

- لا يحق لأحد أن يتكلم هكذا يا باتريك.

- يسهل هذا القول عندما لا تتألمين.

- أهو، إذن بهذه القسوة؟..

- هناك، مع ذلك، شيء يدعى المورفين.

- نعم، ولكن لا يحق لنا أن نعطي منه هنا.

- هذا ممكن، يجب أن يكون الغبي أنا لأني طلبته.

- ولكن لدينا مساحيق تريح قليلاً. سأعطيك منها مظروفاً تأخذ منه على هواك.

- كلا، هذا مسكن فقط، سأستمر في الأنين، لا بأس.

لم تنسحب تيرا. كانت تنظر من النافذة ممررة أصابعها على شفتيها المكتنزتين. كان جلياً أنه كان في رأسها دواء آخر. تدليكات؟ كمادات؟ كلا، لقد جربت ذلك من قبل وتذكرت ما كان الطبيب قد قاله: عواقب كساح، تشوهات عظمية وفي الأربطة، انقباض في مفاصل الظنبوب ورسغ القدم والركبتين. لقد بقي، دون شك، جالساً لفترة طويلة، كسائق كدن في بوميرانيا. لا شيء يمكن عمله. إنها حالة تقويم أطراف لم يهتم بها أحد في الوقت المناسب. فلنجرب قليلاً من الانتيبيرين، ماء مغلياً، بعض الهواء...

قالت تيرا:

- لدي مسحوق، انتيبيرين، ربما...

- كلا، لا تحاولي إعطائي مساحيقك. ليس هناك سوى دواء واحد لهذه العظام (دل بإصبع ذات عقد على ركبتيه المتورمتين والمشوهتين) وهو رافعة! ولكن ذلك يقتضي أن توجد سكك للسيقان، وبما أن هذا الصنف غير موجود عندي، فليس هذا ما سوف يسوي الأمور. لقد رأيت، مرة، كيف سحبوا قاطرة كاملة من مستنقع غروزون بعد خروجها عن الخط. ولكنك لن تعرقلي شيئاً يا بنتي المسكينة. أوي! أوي! ماذا بك تنظرين إلي ما دمت لا تستطيعين شيئاً؟ لا تعودي إلى القدوم لإزعاجي بسؤالك عن الحال. إني أتوجع، بحق الشيطان، وأنت تعلمين ذلك، أتوجع! أعطني كأس مورفين أو أي شيء لعين، وهل أعرف ماذا تسمون ذلك؟ وإلا فإنك تستطيعين أن تذهبي، يا بنتي، إلى الجحيم.

- ولكن، يا باتريك الطيب!

- كلا، ليس معي، هذا يجعلني شريراً. ثم أنه لا ينبغي لك أن تبقي هنا لتؤرجحي ثدييك الضخمين أمام عينيّ. هذا شاق بالنسبة لمعاق، أتستطيعين أن تفهمي هذا؟ هيا، اوست، ارحلي قبل أن أحطم جمجمتك بضربات عكازي.

انسحبت تيرا بقدر ما استطاعت من الوقار. توقفت قليلاً في المشى. كان باتريك قد أخذ في الأنين. كان نحيباً نصف متحفظ ونصف راضٍ. نزلت تيرا على السلم وفي الأسفل التقت مارتان في المشى. كان عائداً من المدرسة وكتبه تحت إبطه. كان يصفر نشيد «في بلاد السويد، كنيسة آبائنا، حلفنا المقدس على هذه الأرض».. أنبته تيرا دون أن تحييه.

- لقد منعتك من الصفير. يوجد مسنون يسكنون هنا ويريدون أن يعيشوا بسلام. إنه بيت مسنين. هل فهمتني؟

- نعم يا آنسة.

استعاد مارتان أنفاسه خجلاً. في سريرته، كان غاضباً من نفسه لأنه صفر. وفي الوقت نفسه، اضطرب فجأة واغتم وبلغ حد اليأس تقريباً. فالآنسة لم تكلمه، قط، بهذه اللهجة.

اختفت الآنسة تيرا في غرفتها شامخة، متباعدة.. وضع مارتان، في غرفته كتبه ثم نزل إلى قاعة الطعام وأخذ يعد الطاولات لقهوة بعد الظهر ناظراً، بثبات، إلى قعر الأكواب كما يسائل المرء مرجعاً. ولكنه لم يلق أي رد على ندائه. عرت أرنبة أنفه رعشة خفيفة، واستولى عليه حزن حصل لديه، معه، الانطباع بأنه يختنق. ساورته رغبة في الصراخ مثل إليدا المجنونة تماماً. فلأول مرة أحس، بمرارة، إلى أي حد كانت نفسه وحواسه تحت رحمة تيرا. كانت نوبة مزاج سيىء تتخذ في نظره أهمية غريبة. كان يباركها وهو يلعن نفسه لأنه صغير. عض على شفتيه اللتين صفرتا إلى درجة الألم، الألم الشديد وإلى أن بدأ الدم يسيل منهما. ما استعماله لهما؟ ماذا يفعل بهاتين الشفتين الملعونتين؟ غادر القاعة، بعد أن نادى على النزلاء من أجل القهوة، شاقاً طريقه بين موجات الداخلين. مضى نحو أبواب مدخل المأوى المزججة. كان الجو جميلاً في الخارج. كان شهر أيار. حث الخطا حتى النهر وخلع ملابسه ودخل في الماء. كان الماء بارداً. وبعد اللحظات الأولى، تكيف معه. سبح مائلاً من خلال التيار. لم يكن النهر عريضاً، كان عرضه يكاد أن لا يتجاوز خمسة وعشرين متراً. اقتلع بضع سنابل ماء كانت تشكل ما

يشبه سجادة على السطح وتتأرجح مع الموجات. كانت في قاع النهر طحالب تتمايل مع التيار كمزق من راية. كانت ارتعاشة جليدية تشد المرء من قذاله. هرب سرب من أسماك صغيرة جداً نحو ساقية كانت تصب في النهر. كانت تتلألأ كقبضة من لآلئ.

غالباً ما كانت الساقية تستثير خيال مارتان فتصبح، تارة، المخاضة التي هزم فيها غوستاف فازا الدانماركيين وتصبح، تارة أخرى، نهراً في أمريكا ينزل فيه الهنود الحمر بقواربهم، مع التيار.

بين حين وآخر، ومساء الأحد بصورة مفضلة، كان ادفين ينضم إليه. كانا يلعبان بأسلحة خشبية ككل الأطفال ويلعبان لعبة الهنود الحمر بين أشجار الجوز. ذات مساء زارا فرقة كشفيين كانوا قد نصبوا خيمتهم في واد صغير في طرف غابة بلوط. استقبلهما الكشافون بنوع من اللطف المتباعد، من تهذيب أكبر مما ينبغي، كعجائز صغار ممتلئين ادعاءً. لم يقم أي اتصال بين الطرفين. حصل لدى مارتان والفتى انطباع بنفاق صبياني. انسحبا بعد أن شهدا توقيع عقوبة. فقد قال أحد الكشافين كلمة بذيئة خلال النهار. صب في كمه كوب ماء بارد. في طريق العودة، اتفقا على القول إن ذلك كان مشهداً غبياً.. وكي يزيدا اقتناعاً بذلك، أخذا يتلفظان بشتائم وكلمات بذيئة. كان يجب أن يكونا قد شعرا بشيء من الغيرة (كان لدى الكشافين قبعات ومدي) - حسناً، وماذا بعد؟ لم يكونا، على الأقل، يحسان بأنهما رأيا نافذة على العالم تنفتح أمامهما.

في تلك السنة، ظهرت القبرة في كل القرى، تقريباً، حتى طرف أرض الخلنج البراح. كان الناس يغادرون قراهم، قرى صانعي السلال ويتنزهون أو يجلسون بين العليق ليصغوا، وكانت هناك عجائز بخمارات -صانعات سلال عشن نصف حياتهن في بوميرانيا. كانت لغتهن من الغرابة بحيث أن كثيرين لم يكونوا يفهمون ما كن يقلن. ولكن هؤلاء العجائز ذوات الشالات البوميرانية كن يتجمعن حيث يغوص درب الخلنج في الغابة كساحرات. وكن، خلال ثرثراتهن، يصغين إلى القبرة شاربات قهوتهن، متذكرات لأيامهن في بوميرانيا. كانت الأراضي البراح التي لم تشجر بعد قد وفرت لهن النظر إلي البعيد. كن يرين الدرب الذي يضيق هناك إلى خط رفيع كشعرة غير مرئية فجأة. وبمتابعة هذا الدرب عبر الخلنج، نحو مغيب الشمس، نحو غيوم الربيع الصوفية، أو نحو سماء عاصفة بلون الآس تتلوى، فيها، البروق كالأفاعي، كان يرى، يُحس أن هذا الدرب كان شيئاً أكثر من درب.

ربما كانت الأرض البراح المغطاة بالخلنج، من قبل، بحراً، ربما كان لدى العجائز هذا الإحساس. كانت تدخل في ثرثراتهن، دائماً، فكرة «الإبحار» على الخلنج محاطات بالطنانات. ذات يوم، قالت عجوز كانت تدعى كاجا الرمادية، وهي تتحدث عن كل شعب صانعي السلال:

- «نحن البحارة». عند ذلك وافقت كل الأرض البراح.

ولكن هذا الصيف جميل إلى حد اجتذب معه القبرة إلى أرض أوركينيد البراح، سبب، أيضاً، ظواهر أخرى. عن طريق الغابة، وصل خط طويل من أشخاص انتشروا في أراضي الخلنج. كان رجال ببزات رسمية يتقدمون الجميع ويشيرون إلى المواضع المحددة. ثم جاء رجال آخرون، عمال غابات شرعوا يقتلعون الخلنج ويحرثون الأرض في النقاط المحددة على هذا النحو. وأخيراً، كان أطفال يصنعون، في كل موقع معرّى، قمعاً مزوداً بنوابض.

وهكذا، شيئاً فشيئاً، وفي نحو بضعة أيام، كانت كل الأرض البراح مبذورة أو مزروعة برعاية إدارة المياه والغابات. كان أهالي المكان يجلسون مصعوقين. كانت أيدي الرجال وهم ينفخون في غلايينهم الرطبة المصنوعة من الخلنج ويرسمون بالحديد الحامي النقوش التي تزين السلال، ترتعش. وكانت العجائز يصعدن التعبير عن ازدرائهن.

في مساء اليوم السابع، لم يعد يسمع صوت القبرة، بل سمعت في الأرض البراح أنات الزقزاق. كانت شتلات الصنوبر قد بدأت تكبر.

بعد بضعة أيام، شوهدت امرأة عجوز تمشي وعكاز في يد ودلو في الأخرى. كانت تهيم على وجهها في كل الاتجاهات، مثل قنفذ، دون أن تقيم وزناً للدرب القديم المرسوم في الخلنج. كانت تلك كاجا الزرقاء. وكانت عجوزاً ماكرة ودون أسنان، شقيقة كاجا الرمادية، ولكنها كانت على عكسها. كانت، في كل ليلة، خلال خمسة عشر يوماً على الأقل، تحمل دلوها في الأرض البراح، تائهة هنا وهناك.. كانت تمضي من شتلة إلى أخرى وترويها، جميعها، بالماء المالح. وكانت تنبش البذور بطرف عكازها.

جرى ذلك في منتصف تموز. وفي نهاية الشهر نفسه ماتت من الشيخوخة والإنهاك، ولكن كل الشتلات، تقريباً، كانت، في هذه البرهة، ميتة بدورها. كانت كاجا الزرقاء تبتسم في سريرها. حمل نعشها الشبيه بجذع شجرة أسود على طول درب الخلنج حتى عربة الموتى التي كانت تنتظر على الطريق، في طرف الغابة. وفي تلك الأثناء كانت شتلات الصنوبر ترتعش، ميتة في الريح.

كان العرف يقضي بتغطية أرض القبر بأغصان وبراعم صنوبر، ولكن شيئاً من هذا لن يتم في هذه المرة. فقد كانت كلماتها الأخيرة هي:

- لا أغصان صنوبر حولي!

بعد خمسة أيام من وفاة كاجا الزرقاء، جاءت جماعة المياه والغابات في جولة تفتيشية. جاء الحكم سريعاً. فقد اكتشف كل شيء، وأمرت الحكومة بطرد كل سكان الأرض البراح. نشر القرار وحيثياته بحروف سوداء في الجريدة المحلية: في لجونغتافان، اعتداء غريب ضد إعادة التشجير.

كان من نتيجة كل ذلك أن المأوى الحجري استقبل ستة نزلاء جدد في نهاية الصيف. ثلاث مسنات وثلاثة مسنين اختلطوا في المشيين مع النزلاء الآخرين الخاضعين لعصا قيادة مارتان -العصا التي تضرب على الصنج في مواعيد الوجبات.

أما بالنسبة لمارتان نفسه، فكان ذلك تعاقب الأيام. كان الصيف هو الحدث الوحيد، المتكرر من ساعة إلى ساعة. كان قد كبر في الدم والأحاسيس والروح.

كانت بين الوافدين الجدد من أرض الخلنج، توسا التي كانت صانعة

قصص ومعروفة بهذه الصنعة في كل المنطقة. كانت قد ضاعت في متاهات أقاويلها الخاصة. كانت تجد ما تقوله حول كل شيء وكانت، بمساعدة أبخرة الهندباء، تحرك مبرقة الجحيم نفسه، تحرك هذه الأداة الناشزة التي كان الشيطان يعزف عليها بتلذذ. كان هناك دائماً، جديد لدى توسا - يوجد، دائماً، الجديد والجريء من الأقاويل.

صادفت آنا الهضبة في الممشى الثاني، سألتها آنا الهضبة قائلة:

- هل أنتم متفقون مع الله في منطقة لجونغتافان؟

دمدمت توسا وهي تحرك شعرها الخلنجي:

- لا بأس، وأنت؟

- شكراً. فيما يتعلق بي، سلمت أمري إلى الرب. الرب صخرة.

زقزقت توسا قائلة:

- طوبى لك إذن!

استأنفت آنا الهضبة كلامها قائلة:

- ولكن المرء لا يرى ذلك لدى سماعك. أتتخيلين أنك أتيت إلى هنا من أجل أن تلهي؟

قالت توسا:

- دعيني!

- هذا ما سوف ينبغي عليك أن تقوليه لله الحي أيتها البهيمة القذرة! ولكن يوماً سوف يأتي تصرخين فيه بالجبال: اسقطي علينا! وللهضاب: غطينا! هذا ما قيل في الكتاب المقدس.

تضاحكت توسا على الرغم منها:

- أنت عارفة جداً أيتها الخرقاء! لست على قدرك من المعرفة. لا وقت لدي.

تفحصت آنا الماكرة من رأسها إلى قدميها وقالت:

- آه نعم! أنت من اللواتي ذهبن إلى بوميرانيا!

- اللعنة!

- وفي بوميرانيا يكادون لا يعرفون إذا كان الله موجوداً. تسود، فيها، كل أنواع الأباطيل.

تقدمت من توسا وأمسكت بكتفيها وأمرتها قائلة:

- اتبعيني إلى غرفتي.

تبعتها توسا مرغمة، وسرعان ما أعادت آنا الهضبة إغلاق الباب عليهما. وضعت المفتاح في جيب تنورتها. تيبست توسا وظلت واقفة، مرتعشة وخائفة.

كان الكتاب المقدس موضوعاً على الطاولة كقطعة صوان مأخوذة من صخرة الرب. أخذت آنا تقرأ بصوت مرتفع وبلهجة مهددة. كانت توسا مضطربة تماماً، كتلعة خلنج على الأرض البراح في عاصفة خريف.

كان الصيف قد تقدم إلى درجة كافية عندما اكتسح وباء التيفوئيد المنطقة. وقعت تيرا، في الوقت نفسه مع ماريا، فريسة المرض. جرى تداول أسوأ الشائعات. سقط رجل من القرية من قبل. امتلأ المستوصف بالمرضى الذين بدت حالتهم خطيرة وتستوجب عزلهم. كانت تيرا وماريا من بينهم. انقضت عدة أيام قبل أن يعرف مارتان أي شيء فيما عدا أنهما كانتا «مريضتين في حالة خطرة». كان يوجه لكل من كان يصادفهم، بمن فيهم النزلاء السؤالين ذاتهما: «كيف حال الآنسة اليوم؟ أهناك تحسن اليوم؟»

معظم الذين كان يسألهم كانوا يكتفون بالغمغمة. ومن أجل ذلك كان يكرههم، كان ذلك كما لو أنهم لم يكونوا يحسون بأنهم معنيون. كان يكرههم لأنهم لا يفهمون ما كان من غريب ومخيف في حالتهما.

لم يحصل على حق الدخول إلى المستوصف ولا حتى إلى الحديقة. كانت قد علقت على البوابة لافتة بيضاء تقول:

بسبب خطورة الوباء، تمنع الزيارات حتى إشعار آخر.

كان مارتان ينتظر أمام البوابة ليرى ما إن كانت الآنسة مالان سوف تخرج. بعد برهة طويلة، خرجت في حوالي الساعة الثانية. اجتازت الحديقة وسألته لماذا كان يتسكع هناك.

- أنا لا أتسكع، أريد أن أعرف حال الآنسة تيرا.

كان مارتان يوجه إلى الآنسة مالان نظرات متوسلة ردت عليها بابتسامة باردة ومتعالية. وبما أنه كان مستمراً في رفع عينين متوسلتين نحوها، قالت له:

- اهتم بما يعنيك يا بني. لا تأت إلى هنا لتحرن.

ابتعد مارتان عن البوابة. تمتم يقول:

- شكراً على كلماتك الطيبة.

كانت الدموع تسيل على وجنتيه.

- شكراً! شكراً! (التفت وقال): أنت لا تستطيعين كذلك أن تقولي لي كيف حال ماريا؟

ولكن الآنسة مالان كانت قد رحلت من قبل.

كان لديها عمل كثير مع المرضى، كانت منهكة وذات مزاج فظ. وككل الأطفال كان يفسر الحياة حسب أفكاره، حسب جوعه، حسب حزنه.

بكى مارتان خلال ثلاثة أيام. لم يكن يكاد أن يأكل. عندما كان يسأل، كان يرشق إجاباته كمجنون. لم يعد يحيي أحداً. عندما علم أن آنسة المأوى ذي الفروع السبعة قد مرضت، هي أيضاً، انتابه فرح رديء، ما يشبه العزاء. كانت المديرة والطاهية بالوكالة تتساءلان عمن كان هذا الغلام الذي ينظر إلى الناس شزراً ولا يفعل سوى أن يطوف كمجنون بين أشجار الجوز عند سفح الهضبة، لا يحيي ولا يأكل.

ذهبت المديرة البديلة لتأتي به. كانت شخصاً بعينين طيبتين وقورتين، أكثر صفاء مما ينبغي تقريباً، وكان لها أنف على شكل بوق وشعر أكثر شقرة مما ينبغي، أشد شقرة من القش في أيلول. كانت تشع بالصراحة والتفهم. وكانت نفسها تبدو صافية ومذهبة كضوء الشمس على القمح.

أمسكت بمارتان من كتفيه وسألته قائلة:

- لماذا أنت غاضب يا صغيري؟

لم يجب. ولكنه لم يستطع الامتناع عن النظر في عينيها الكبيرتين الصافيتين واللتين لا تحملان أي سر، عينين كانتا كلهما صفاء، كلهما صراحة، كانتا تعبران عن فرح ضوء النهار وإرادة الحياة اليومية. وجد مارتان أن يديها كانتا صلبتين قليلاً ولكنها، فيما عدا ذلك، أشد لطفاً من تيرا، ولكنها لم تكن مثلها. قالت وهي تربت على خده:

- حاول أن تأكل قليلاً.

أفلت منها ومضى حرداً في زاوية. قال وهو يعض يده:

- كيف حال الآنسة تيرا؟

كان ينظر إلى الوافدة الجديدة بهيئة عدائية تحولت إلى ابتسامة

عنيدة وحزينة سرعان ما أخفاها وهو يعض يده عدة مرات. سال الدم من يده. كانت السامرية الشقراء التي كانت تقف أمامه غير قادرة على الكذب. وعلى الرغم من كل شيء، حاولت أن تهرب من سؤاله. انبثقت شرارة في نظرة مارتان. ردت السامرية على سؤال مارتان بسؤال آخر لم يكن يجدي:

- كانت الآنسة تيرا لطيفة، أليس كذلك؟

لم يحر جواباً. كان قد لاحظ أنها تحدثت عن تيرا بصيغة الماضي. وبقفزة ارتمى عليها بكل وزنه وهتف بصوت مبحوح قائلاً:

- أما زالت الآنسة تيرا على قيد الحياة؟ هل هي حية؟ أريد أن أعرف.

كان مارتان يمطر بقبضتيه بالضربات صدر البديلة، كان يجبرها على الرد، وأخيراً انتزع منها ما لم يكن يريد سماعه:

- كلا!.. لقد ماتت!!!

الفهرس

مقدمة	5
تنبيه للقارئ	9
مارتان	23
من مزرعة إلى أخرى	57
مزرعة تولين	119
مزرعة نوردا	211
مأوى من حجر	309

الجديد من اصدارات المدى

الكتاب	المؤلف	المترجم
والدة	فرانسوا موریاك	محمد عبد الحميد عنبر
مائة عام من الفكر النقدي	سعيد الغانمي	
اجتماع شمل العائلة	ت.س. اليوت	محمد حبيب
نجمة تقود البحر	عبدالفتاح اسماعيل	
ماكينة الابصار	بول فيريليو	د.حسان عباس
جمال على معطف القيصر	سيغريد هونكي	صلاح حاتم
للحكاية وجه آخر	روز شوملي	
العقل الايماني	حسن ابراهيم احمد	
اقتفاء الاثر	خليل صويلح	
الهاربون من الحرية	غالب هلسا	
مختصر تاريخ الاسماعيليين	فرهار دفتري	سيف الدين القصير
نوافذ الغرفة المعتمة	محمد شمس الدين لصولحة	
سياف الزهور	محمد الماغوط	
موسيقى الالوان	جبر علوان	
لواعج الاصفر	محمد سعيد الصكار	
طبيبة في بيت البرزنجي	ايلونا بورسكا	حسين العامل
الازمنة الضائعة	احمد الزيدي	
اليوتوبيا المفقودة	محمد كامل الخطيب	
شرف	صنع الله ابراهيم	
فلسفة الشعر الجاهلي	د.هلال الجهاد	

هاري مارتنسون

نوبل ١٩٧٤



- ولد في ٥ آيار ١٩٠٤.
- كان أول نجاح كبير له هو كتاب « الشوك يزهر » ١٩٣٥ في هذا الكتاب يصور نفسه طفلاً رعاه المجتمع بعد موت والديه.
- روايات مارتنسون هي روايات رحلات وتشرد، وتدلنا عناوينها «رحلات دون هدف» ١٩٣٢، «السفر» ١٩٣٦، «والطريق من كلوكريك» ١٩٤٨، وهي آخر مؤلفاته النثرية.
- توفي في ١١ شباط ١٩٧٨.



علي مولا